الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 53 - June 2003

مجلة شهرية . العدد الثالث والخمسون . السنة الخامسة . يونيو ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات

قراءة فى أوراق إدارة بوش .. وعقلها!

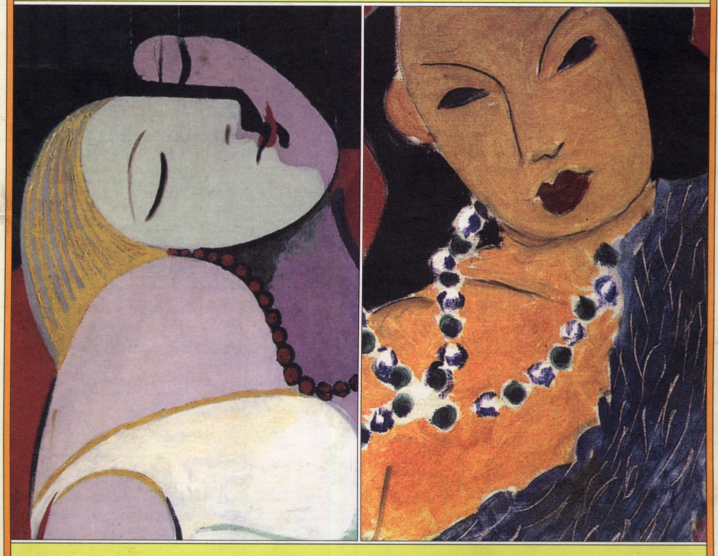
محمد حسنين هيكل

◆◆◆

أمن إسرائيل استراتيجية امريكية / عزمى بشارة ◆ تراجيديا كربلاء / فاروق عبد القادر

اليوجينيا حرب وراثية / أحمد مستجير ◆ إبحار فى محيط اللغة / شوقى ضيف

مائة بن لادن!؟ / أيمن الصياد ◆ نون: تعديل المناهج بيدى أم بيد عمرو؟! / سلامة أحمد سلامة

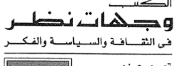
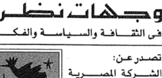
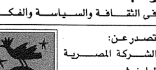


ماتيس وبيكاسو .. الصديقان الغريمان فى معرض واحد ! / أحمد مرسى

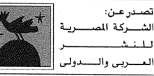
رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد




الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى




رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

السنة الخامسة
العدد الثالث والخمسون
يونيو ٢٠٠٣

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم




محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- أحمد مرسى.. فنان وشاعر مصرى مقيم فى نيويورك.
- أحمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة بجامعة القاهرة.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- جون شميد.. كاتب أمريكى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- شوقى ضيف.. رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- عُبادة كُحيلة.. أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة
- عزمى بشارة.. سياسى وأكاديمى من عرب إسرائيل.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- كاثلين كريستسن.. كاتبة أمريكية متخصصة فى الشأن الفلسطينى.
- ليلى إبراهيم أبو المجد.. أستاذ الدراسات العبرية بكلية الآداب جامعة عين شمس.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.

رسوم العدد للفنانين:
محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة ـ أحمد اللباد





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير) e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت www.weghatnazar.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى ٦٠ دولارا أمريكيا ـ أوروبا وأفريقيا ٧٠ دولارا أمريكيا ـ أمريكا وكندا ٨٠ دولارا أمريكيا . باقى دول العالم ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف ٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهما ـ تونس ٤ دنانير. اليمن ٢٠٠ ريال. فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

المثقف.. والموسوعة.. والفن

أن ينشغل كاتب بعمل واحد نصف عمره فهذه قصة. وأن يتصدى العمل لما هو غير مسبوق فى ثقافتنا العربية.. نصبح إزاء قصة أخرى. تشهدُ بعض تفاصيلها زوابع يستوجبها إقدام المبادرة. وتستدعى كلُ فصولها دهشةً وإعجابًا وتقديرًا بجهد فذ وراء عمل يبقى الأول من نوعه فى المكتبة العربية.

هذا الكتاب.. الموسوعة، أخذ من صاحبه أربعين عامًا من الزمان.. والجهد والبحث والعرق. ليخرج عملاً فريدًا. يحمل عنوانًا لا يقدر عليه ربما غير صاحب الكتاب والجهد، وهذه النوعية من الثقافة: «العين تسمع والأذن ترى».

أكثر من ثلاثين جزءًا / كتابًا تضمه تلك الموسوعة حتى الآن. أولها كان عن الفن فى مصر القديمة. وآخرها يصدر قريبًا عن «دار الشروق» فى ثلاثة أجزاء تتناول الفنون الآسيوية (هندية وصينية ويابانية).

صاحب تلك الموسوعة المثقف السوربونى (الثمانينى) الذى ارتبط اسمه بالثقافة منذ كان وزيرًا لها فى تلك الأيام الجميلة التى لا تتكرر (١٩٥٨-١٩٦٢) ثم (١٩٦٦-١٩٧٠): د. ثروت عكاشه؛ أحد رواد حركة التنوير الثقافى فى عالمنا العربى. خريج كلية «أركان الحرب» الذى حصل على الدكتوراه فى الآداب من جامعة السوربون ١٩٦٠. والذى يشهد له تاريخ الثقافة إنجازه مشروع إنقاذ آثار النوبة ومعبد أبوسمبل ومعبد فيلة فضلاً عن إنشاء معاهد السينما والمسرح والباليه والكونسرفتوار، وإقامة دار الكتب والوثائق القومية وقصور الثقافة وفريقى الأوبرا والباليه قبل أن يتم اختياره نائبًا لرئيس اللجنة الدولية لانقاذ مدينة فينسيا وتراثها (١٩٦٩-١٩٧٨).



يعرف الكافة أن المشكلة الأولى التى تعترض المثقفين بعامة، والمتعطشين إلى الثقافة بخاصة هى «كيفية قراءة العمل الفنى» سواء كان رقصة باليه أو لوحة فنية أو معزوفة موسيقية أو تمثالاً، فإن المتلقى عادةً يستقبل العمل بمشاعره المجردة وبتذوقه التلقائى والفطرى محتكمًا إلى مزاجه الخاص فيحكم له أو عليه دون الرجوع إلى المقاييس التى استقرت فى وجدان الإنسان وثبتت عبر الزمن.

هنا تأتى قيمة موسوعة ثروت عكاشه الفنية. والتى كان جزؤها الخاص بالفن العراقى القديم (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٤) عونًا لـ«وجهات نظر» عندما احتجنا فى العدد الماضى صورًا لمقتنيات متحف بغداد الذى تعرض للنهب بعد الاحتلال الأمريكى.



كان الفنان حسين بيكار يقول إن تذوق العمل الفنى ظل مقصورًا على ما يحتويه العمل من موضوعات ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالحياة العامة أو الخاصة، وكيفية تناول الفنان وسرده لهذه الموضوعات.. ولذلك كان التقييم محصورًا فى الجانب الأدبى أو المعنوى للعمل، وليس فيما وراء قشرته الظاهرية من عناصر تقنية وفنية وجمالية، وهى الأساسيات التى تمنحه قيمته الرفيعة وتجعله يتصدر نظائره من المنجزات الأخرى.

إن كل ما يعرفه الجمهور مثلاً عن رائعة ليوناردو دافنشى الخالدة «الجيوكاندا» هو ابتسامتها الساحرة وأناملها البضة، ونظرتها الحالمة التى تلاحق الرائى أينما اتجه، أما ما وراء هذه الظواهر من قيم ومضامين فنية وتشكيلية فهذا مالا يدركه إلا الصفوة المتخصصين أو النقاد. وإذا كانت هذه الجزئية الموضوعية فى الماضى تجذب المتلقى إلى العمل الفنى وتطوى مشاعره فى تلافيف نشوة عاطفية غامرة لا شأن لها بجوهر الفن وجمالياته، فإن ما طرأ على الساحة الإبداعية فى السنوات الأخيرة من تطورات فكرية قد باعد بين الجمهور وبين الفن وألقى به فى دوامة من الطلاسم التخصصية التى تفوق إدراكه، مما أدى إلى اتساع الفجوة بين الفن والجمهور وزيادة الأمية الفنية والثقافية بين عامة الناس.

وهناك فرقٌ بين التذوق الدارج وبين الوعى الناضج. فالمتلقى العادى يستقبل العمل الفنى منقادًا بحاسة فطرية غير مثقفة تسلمه إلى حالة انطباعية من القبول أو الرفض دون أن يدرى لماذا. أما المتلقى الواعى الذى لديه خلفية ثقافية عن الفن الذى يواجهه فإن استمتاعه بالعمل يكون مضاعفًا. ولا عجب أن نرى أغلب الحاضرين فى العروض الموسيقية يمسكون بالنص الموسيقى المكتوب ويتابعون العزف والأداء والقيادة لحظة بلحظة، ويستمتعون بكل حركة أو جملة استمتاعًا مضاعفًا. فهم مستمعون ونقاد فى الوقت نفسه. وهذا هو الفرق بين التذوق والوعى المثقف.



فى «وجهات نظر» ندرك أهمية ما تحدث عنه بيكار. ونحرص على أن نخصص من حين لآخر عددًا من صفحاتها لما يمكن اعتباره ثقافة فنية. فنعرضُ فى هذا العدد قراءةً «فنيةً» لمعرض أُقيم فى نيويورك أخيرًا للوحات بيكاسو وماتيس.

وجهات نظر

محمد حسنين هيكل



قراءة فى أوراق

أولا: محاولة للبحث عن الحقيقة!

■■ تفضل كثيرون غيرى وسبقوا إلى عرض واحد من أهم الكتب السياسية التى صدرت فى الولايات المتحدة عن رئاسة «جورج بوش» (الابن)، والذى ظهر تحت عنوان «بوش فى حرب» (Bush at War) - ومؤلفه «بوب وودوارد» هو الصحفى الأكثر اطلاعا فى العاصمة الأمريكية - ويشغل الآن منصب مدير تحرير جريدة الواشنطن بوست - الجريدة الأكثر نفوذا فى العاصمة الأمريكية.

وكان «بوب وودوارد» قد بدأ صعوده إلى القمة منذ قام (مع زميله «كارل برنشتين») بتفجير فضيحة «ووترجيت» التى كسرت رئاسة «ريتشارد نيكسون» (سنة ١٩٧٤)، وأدت إلى استقالته من رئاسة الولايات المتحدة، ومن يومها راح «بوب وودوارد» يتقدم حتى أصبح الآن عميد «صحافة التحقيق» التى أثبتت كفاءتها فى النفاذ إلى دخائل السياسة، والغوص فى خباياها، وتغطية أكبر مساحة من وقائعها، وكشف أدق أسرارها.

....

....

[وهذه مدرسة صحفية تدرك أن النفاذ إلى العمق - حق قارئ لا يعنيه ولا يرضيه أن تنحصر مهمة الصحافة فى مدح السلطان والإشادة بعظمته فيما فعل ولم يفعل، وتعرف - أيضا - أن قارئها يستطيع النظر إلى سطح الحوادث من متابعة التليفزيون، فى حين أن الكلمة المكتوبة - حياتها وشبابها - أصبحت موصولة بقدرتها على النفاذ إلى عمق لا تستطيع الصور أن تبلغه - أى بقدرتها على الذهاب وراء السطح بكل ما يتزاحم فوقه من اجتماعات واستقبالات ومراسم واحتفالات، وتصريحات وبيانات - وتلك كلها فى هذه الأزمنة وسائل تزويق وليست مناهج توثيق!].

....

....

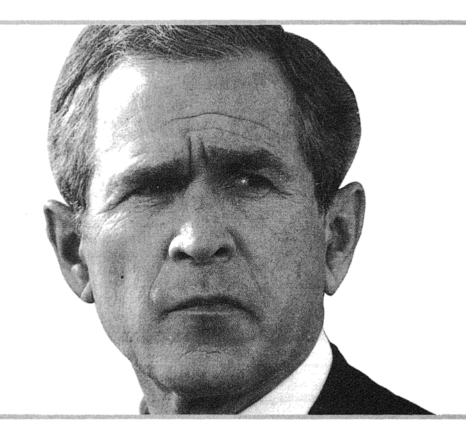
وبرغم أن كتاب «بوب وودوارد» ظهر أواخر سنة ٢٠٠٢، وبرغم أن غيرى سبق إلى عرضه كما أسلفت، فإننى أعود اليوم إليه بمنطق ربما يكون مختلفا لأنه لا يعرض للكتاب فى مجمله، وإنما يركز على صور محددة فى سياقه تكشف - أو كذلك ظنى - عن جواب سؤال يشغلنى، ولعله يشغل غيرى - مؤداه:

«كيف تحول المشروع الإمبراطورى الأمريكى من الحرب ضد الإرهاب إلى حرب ضد العراق؟، وكيف انتقلت بؤرة الحوادث فيما جرى يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من نيويورك إلى كابول - ثم من كابول إلى بغداد؟، ثم كيف وقع استبدال الأقنعة من ملامح الشيخ «أسامة بن لادن» إلى ملامح الرئيس «صدام حسين» بهذه السرعة؟

والسؤال ليس فقط عن كيف؟، ولكن بعده عن من؟ ومتى؟، وأين؟، ولماذا؟ (وتلك أسئلة أولية - خصوصا فى صحافة التحقيقات التى يمثلها نجوم من مستوى «بوب وودوارد»، و«سيمور هيرش» وغيرهما!).

ومع التسليم - كما طرحت فى أحاديث سبقت - بأن المطلب الأصلى للسياسة الأمريكية فى القرن الجديد - إمبراطورى مزدوج المقاصد فى الشرق الأوسط: يبسط السيطرة على أرضه (باعتبارها قلب العالم من بداية التاريخ وحتى حاضره)، ويمد يده إلى مكامن البترول تحتها (باعتبارها محرك التقدم المضمون حتى هذه اللحظة)، فإن تلك النقلة السريعة من نيويورك إلى كابول، ومن كابول إلى بغداد تظل لافتة للنظر، وداعية إلى التفكير من زاوية كشفها لمنطق القوة الأعظم فى هذا العصر، وفحصها لتركيب وترتيب عقلها، وأسلوبها فى اعتماد السياسات، ونظرها إلى الحوادث، وتقييمها للأطراف، ونبرة خطابها الموجه إلى عالم لابد له أن يهتم ويأخذ ما يراه جدا، لأن القرار الأمريكى - بصرف النظر عن كافة الاعتبارات - مؤثر فى الدنيا حيث يرضى الآخرون - وحيث لا يرضون!

وقد اخترت أن أعتمد فيما أعرضه من كتاب «بوب وودوارد» على أسلوب أشبه بعرض شريط صور، بظن أن ذلك أقرب إلى روح الكتاب، وكذلك أقرب إلى «المزاج الأمريكى» الذى أعطى للعالم «فن السينما» (الفن السابع) - وهو فن يقدم رؤيته لأى موضوع يتناوله فى شريط صور تتتابع إطاراته بسرعة وتكون من سرعتها حركة متصلة، يظهر فيها «الأبطال» بشخصياتهم ومواقفهم وانفعالاتهم وتعبيراتهم عن نواياهم وحتى غرائزهم، إطارا وراء إطار - حكاية وراء حكاية - فكرة وراء فكرة، بحيث يصل العرض فى النهاية إلى رواية لها دلالة - وأحيانا لها قيمة!



إدارة «بوش» وعقلها!

والحقيقة أن كتاب «بوب وودوارد» قصة سينمائية من الدرجة الأولى، وهى قصة تعترف صراحة أنها تنقل عن الحقيقة ولا تتبرأ منها (كما فى بعض أفلام السينما حين ينبه أصحابها مقدما إلى أن أى تشابه بين وقائعهم وأبطالها مع الحقيقة مجرد مصادفة غير مقصودة!) - بل إن الأمر فى هذه الحالة مختلف، لأن الأبطال فى رواية «وودوارد» وبأشخاصهم وذواتهم - بملامحهم وألسنتهم هم الذين يقصون ويحكون، ويقدمون الدليل على صحة ما يقولون. ففى مقدمة الكتاب سجل مؤلفه (وأكد البيت الأبيض) أنه قبل أن يدق حرفا على الكمبيوتر - التقى مرتين بالرئيس «جورج بوش»: مرة فى مكتبه فى البيت الأبيض لمدة ساعة ونصف الساعة فى ديسمبر سنة ٢٠٠١، ومرة ثانية فى مزرعته (كراوفورد) تكساس فى أغسطس سنة ٢٠٠٢ لمدة ساعتين و٢٥ دقيقة.

ثم يسجل «بوب وودوارد» ضمن المقدمة أنه حصل على تصريح سمح له بان يقرأ محاضر خمسين جلسة لاجتماعات مجلس الأمن القومى، وأنه حين بدأ يعد لكتابه استأذن أن يستعمل بعض النصوص مما قرأ بحروفها، وكما أوردتها المذكرات والمحاضرات فى جلسات صنع القرار.

وأخيرا يقرر «بوب وودوارد» أنه قابل مائة رجل وامرأة من الذين كان لهم دور فى صنع الحوادث فى واشنطن ضمن إدارة «جورج بوش» (الابن) على امتداد سنة ٢٠٠١ وحتى ديسمبر سنة ٢٠٠٢ حين مثل كتابه للطبع، ثم يحدد قائمة بأسماء هؤلاء الرجال والنساء الذين قابلهم أثناء جمعه لمادة كتابه - والقائمة تضم أسماء كل من:

رئيس الولايات المتحدة «جورج بوش» - نائب الرئيس «ريتشارد تشينى» - وزير الخارجية «كولين باول» - وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» - مستشارة الأمن القومى للرئيس «كونداليزا رايس» - مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «جورج تنيت» - رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة الجنرال «ريتشارد مايز» - رئيس أركان البيت الأبيض «أندرو كارد» - قائد القيادة المركزية الأمريكية الجنرال «تومى فرانكس» - وزير العدل «جون آشكروفت» - رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالى «روبرت موللر» - كبير مستشارى الرئيس «كارل روث» - والقائمة بعد ذلك متواصلة تكاد أن تكون مرجعا شاملا لأقوى مائة رجل وامرأة فى الإدارة الأمريكية الحالية.

ومعنى ذلك أن الصور التى يعرضها «بوب وودوارد» أصلية، وأن المواقف والنصوص دقيقة، وأن السياق المتوالى للحركة صحيح، وأن الحوارات والمناقشات أمينة، وبالتالى فإن القصة كما يرويها يصح اعتمادها ويجوز البحث على أساسها، حتى وإن تعددت فيه وجهات النظر عند التفسير والتحليل.

....

....

[والشاهد أن تعدد الآراء فى التفسير والتحليل لا تكون له قيمة إلا إذا كان عن معرفة ودراية بالحقائق وليس أخذا بالظنون تحسب نفسها تعرف بظاهر ما ترى، وهو على أحسن الفروض جزء من الحقيقة لا يكفى لتأسيس رأى أو تأصيل فتوى، لأن الرأى والفتوى كلاهما يحتاج إلى إلمام بالموضوع، ومتابعة للوقائع، وسماع للشهود، ومداولة تمعن النظر حتى تستوفى جوانب قضيتها، ثم يكون الرأى بعد ذلك والفتوى عن اقتناع رصين وليس عن انطباع هوائى تأخذه الريح معها حيث تسافر!].

....

....

وكما يفعل أى خبير مقتدر فإن «بوب وودوارد» يخصص أول فصلين من كتابه - أى حتى صفحة ٢٩ - للقطات خاطفة تمهد لأجواء روايته، محاولا أن يستعيد مشاهد تلك الساعة المُرْعِبة فى التاريخ الحديث (من الثامنة والنصف إلى التاسعة والنصف من صباح يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١)، وهى الساعة التى قيل أن الدنيا تغيرت بها، حتى أصبح ما بعدها مقطوع الصلة بما كان قبلها، (وتلك مقولة بولغ فيها عمدا ومع سبق الإصرار حتى تقدم حيثيات مغرضة لأحكام ظالمة، وجرائم وحشية تُرتكب باسم العدل والقانون والحرية والديمقراطية إلى آخره، مما يسترجع بعد قرنين من الزمان تلك الصيحة المأثورة عن مدام «دى ستايل» أيام فترة الإرهاب فى الثورة الفرنسية حين قالت: «أيتها الحرية - كم من الجرائم تُرْتَكَب باسمك!»).

BUSH AT WAR
BOB WOODWARD

THE RIGHT MAN
THE SURPRISE PRESIDENCY OF GEORGE W. BUSH
DAVID FRUM



وفى كتابه فإن «بوب وودوارد» يسترجع تلك اللحظات من صباح يوم ١١ سبتمبر، لكى يُهيئ قُرّاء كتابه برسم تأثيرى عام يسهل عليهم متابعة الحركة - وكذلك فإنه فى هذين الفصلين يبسط الأرضية، ويعد الخلفية، ويقدم الأبطال موحيا بشخصية كل منهم، وعلاقته بغيره، وسعى كل واحد منهم - حتى فى لحظة كارثة قومية - أن يعبر عن نفسه ويحقق غرضه. ومن خلال ذلك يعرض «وودوارد» لمحات من أحوال إدارة أمريكية غير منسجمة، لديها مشروع مُتفق عليه، لكن المسئولية عنه موزعة بين مجموعة رجال ونساء بينهم علاقات ملتبسة صنعتها خلافات سابقة، وشكوك متبادلة، وولاءات متعارضة، وكان يمكن للمشروع المشترك الجامع بينهم أن يذيب هذه الرواسب والعوالق، لكن ذلك لم يحدث لأن مسئوليته منوطة - بمنطق الأشياء - بإدارة عُليا واحدة يُفترض أن يقوم عليها الرجل الأول فى الإدارة وهو «جورج بوش» (الابن) (دوبيا)، لكن ذلك الرجل بالذات - فى تلك اللحظة بالتحديد - لم تكن لديه الأهلية، وبين الأسباب أن كبار معاونيه لم يكونوا مقتنعين بكفاءته، بل وكان بعضهم يتصور أنهم أليق منه بالجلوس على مقعد الرئاسة لولا محاذير المعارك الانتخابية وضرائبها الفادحة سياسيا وجسمانيا وإنسانيا!

والنتيجة أن هناك مشروعا إمبراطوريا متفقا عليه، لكن كل مسئول كبير فى الإدارة الجديدة اعتبر نفسه قيما عليه، ولم يكتف بأداء دوره، وإنما شك فى صلاحية غيره، وحاول أن يغتصب اختصاصه، ويسرق الكاميرا لحسابه الشخصى (كما يُقال فى صناعة السينما).

لكن السياسة - وهو طبيعى - تختلف عند هذا الحد عن السينما، وذلك لأن أى مشروع (إمبراطورى أو غير إمبراطورى) يجرى حساباته وتصوراته واستعداداته، ويرسم مشاهد البداية بالتفصيل، ويلقى ما عنده على الواقع الحى، ويكون ذلك كله بمثابة سؤال ينتظر جوابه - لأنه عندما تبدأ تفاعلات أى صراع أخذا وردا، فإن الحوادث تتدافع بغير نص متفق عليه - وهنا يختلف فن السينما عن حركة التاريخ، فالأولى سيناريو له بداية مقررة تمشى نحو نهاية مقررة، ولكن الثانية - السياسة (أى حركة التاريخ اليومية) - لها بداية مقررة تتحرك نحو نهاية قد تكون مطلوبة، لكن مقاديرها مما يستحيل ضبطه وكتابته سلفا!

وهذا هو الفارق بين السينما والسياسة، لأن الأولى سيناريو يمسك به مخرج يحكم المشاهد، والثانية سيناريو تتولاه حقائق الحياة وعناصرها - ومفاجآتها أيضا - وبالتالى فهو ليس صراع شخصيات ومواقف مرسومة، وإنما صراع إرادات متقابلة ومتعارضة - والحوار فيه مفتوح على كل الاحتمالات! ■

ثانيا:

لابد من قدرة فعل تعبر عن قوة أمريكا!

■ وهكذا يبدأ «بوب وودوارد» كتابه بلمحات خاطفة أقرب إلى ضغط «فرشاة» اللون منها إلى لقطة الكاميرا!



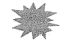
لمحة!

■ على مائدة الإفطار الساعة الثامنة صباحا فى فندق «سان ريجيس»، على مقربة من البيت الأبيض - يظهر «جورج تنيت» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، مدعوا للإفطار على مائدة راعيه وحاميه السناتور «دافيد بورين» (رئيس لجنة الأمن والمخابرات) وهو ديمقراطى يمثل ولاية أوكلاهوما. ويومئ «وودوارد» بسرعة إلى أن «بورين» هو الذى رشح «جورج تنيت» (ابن أسرة مهاجرين جاءوا قبل جيلين من اليونان) - لرئيسه الديمقراطى «بيل كلينتون» لمنصب مدير وكالة المخابرات المركزية، وكان السناتور «بورين» فيما بعد هو الذى زكى «تنيت» للرئيس الجمهورى الجديد «جورج بوش» - حتى يحتفظ به مديرا للوكالة، لأنه مؤمن بكفاءته، ويرى هناك مصلحة - وطنية - فى بقاء مسئول اختارته إدارة «كلينتون» ليواصل نفس المسئولية فى إدارة «بوش»، لأن وظيفة المخابرات المركزية - رغم السوابق - لا ينبغى أن تخضع بالضرورة لاعتبارات حزبية، وبالذات فى حالة رجل يملك خبرة واسعة فى المجال الذى اعتمدته إدارة «كلينتون» لإطلاق المشروع الإمبراطورى الأمريكى، أى مجال مكافحة الإرهاب. وقد استجاب «بوش» لرغبة «بورين» قائلا له: «إن ما وصله عن «جورج تنيت» يشهد بكفاءته». ثم أضاف قائلا لـ«بورين»: «إننى أعرف أن أول بند فى البرنامج اليومى للرئيس هو اجتماعه فى الصباح المبكر (الساعة السابعة صباحا) مع مدير وكالة المخابرات المركزية كى يطلعه على أسرار ما جرى فى العالم خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، ومعنى ذلك أن رجلك سوف يكون أول وجه يطالعنى كل صباح».

وعلى مائدة الإفطار التى جمعت «بورين» و«تنيت» وفى الساعة الثامنة والربع من صباح يوم ١١ سبتمبر - اقتحم المائدة أحد حراس مدير وكالة المخابرات المركزية يهمس فى أذن «تنيت» «سيدى المدير، هناك كارثة، وقع هجوم على مركز التجارة»، ويتناول «جورج تنيت» من حارسه جهاز تليفون محمول ويسمعه «بورين» يقول (ويفهم أنه يتحدث إلى أحد مساعديه) - بصوت مشحون: «ماذا؟.. طائرة دخلت فى برج التجارة؟! - سوف أكون عندك على الفور».

ثم يلتفت «تنيت» إلى «بورين» ويبادره على الفور: «ذلك عمل بن لادن - ولا أحد غيره!»، هكذا بالانطباع المسبق - وقبل استكمال تفاصيل الواقعة - وقبل المناقشة مع خبراء الوكالة - وقبل أى تحقيق.

وكذلك ينتهى مشهد الإفطار فى فندق «سان ريجيس».



لمحة!

■ فى ليما عاصمة بيرو وعلى مائدة الإفطار أيضا، والمضيف «أليخاندرو توليدو» (رئيس جمهورية شيلى)، والضيف «كولن باول» وزير الخارجية الأمريكية الذى يقوم بزيارة رسمية لعاصمة شيلى لحضور دورة اجتماع رئاسى لمنظمة الدول الأمريكية، وكانت هذه الدورة مخصصة لتسوية مشكلة حصص النسيج فى التجارة بين أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية، وفجأة يفتح باب الغرفة ويدخل السفير «كريج كيلى» المساعد التنفيذى لوزير الخارجية الأمريكى، ممسكا فى يده بورقة مكتوبة بخط اليد منزوعة على عجل من دفترها، والمكتوب فيها بالنص: «اصطدمت طائرتان قبل قليل ببرج التجارة»، وينهض «كولن باول» واقفا يقول لرئيس «شيلى»: «لابد أن أعود الآن إلى واشنطن»، ثم يواصل «هذا حدث كبير لا أستطيع أن أبقى بعده هنا لمواصلة الكلام عن حصص النسيج»، ثم يلتفت إلى مساعده التنفيذى يطلب تحضير طائرته فورا لرحلة العودة إلى واشنطن، ثم يعود إلى توجيه خطابه لرئيس شيلى: «لا أعرف من فعلها حتى الآن - ولكنه كائنا من كان لابد أن يلقى عقابه، نحن أمة قوية، ونحن نثق فى أنفسنا».

ثم يتصل «كولن باول» بنائبه «ريتشارد أرميتاج» ويسمع منه أن أجواء واشنطن فى فوضى عارمة والأعصاب مفلوتة، والتضارب والتخبط يستولى على أركان الإدارة، والرئيس «بوش» بعيد فى فلوريدا، ولابد من حضورك فورا، لأن البلد

«بوش» موجها حديثه إلى نائبه «تشينى»:
«نحن فى حرب.. لا نعرف حتى الآن من هو العدو وفيها.
لكن هناك من سوف يدفع الثمن، نحن سنحارب وهذا
هو الواجب الذى يدفع لنا الشعب الأمريكى مرتباتنا كى نؤديه»



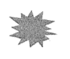
يحتاج الآن إلى يد غير مرتجفة (Steady Hand) تمسك بزمام الأمور!

وكانت خشية «باول» تلك اللحظة - في رد فعل شبه غريزي - أن يتعرض الرئيس لعملية «برمجة» تضبطه على اتجاه معين قبل وصوله هو - «باول» - إلى واشنطن.



لمحة!

■ «أندرو كارد» رئيس أركان البيت الأبيض يقترب من الرئيس «جورج بوش» (الذى كان يزور مدرسة بوكر الأولية فى قرية ساراسوتا - فلوريدا ويقرأ بصوت عال لتلاميذ أحد فصولها)، ويهمس «كارد» فى أذن رئيسه «دخلت طائرة فى برج التجارة فى نيويورك»، ويخطر ببال «بوش» (كما روى فيما بعد) أنها «حادثة اصطدام مؤسفة من طيار أخطأ مساره»، وكذلك يواصل ما كان يفعله، لكن «كارد» يعود إليه بعد قليل هامسا مرة أخرى فى أذنه، ولكن بعصبية ظاهرة «هناك طائرة ثانية دخلت فى برج التجارة - أمريكا معرضة لهجوم». وينتفض «بوش» فى شبه ذهول قائلا على الفور: «لقد أعلنوا الحرب علينا، ولابد أن نذهب إلى قتالهم حيث يكونون!». وينهى جلسته مع تلاميذ المدرسة ويستذكر (فيما بعد): «لا أعرف لماذا قلت أنها الحرب ضدنا تلك اللحظة»، ثم يضيف: «لعله كان صدى صوت والدى كما سمعته سنة ١٩٩٠ بعد غزو الكويت» - ويهرع «بوش» إلى المطار ليركب الطائرة الرئاسية عائدا إلى واشنطن ويقول قبل أن يصعد درجات السلم لكارد: «أخطرهم (يقصد البيت الأبيض فى واشنطن) أن عليهم القيام على حماية السيدة الأولى («لورا» زوجته) وعلى «الأولاد» (ابنتيه)». ويدفعه أحد حراسه صائحا: «سيادة الرئيس نريدك الآن داخل الطائرة وعلى مقعدك». وطبقا لوصف كبير حراسه فقد استحال لون «بوش» إلى بياض القطن، وتعثرت خُطاه وهو يصعد سلم الطائرة (ربما لأنه لا مغامرة ولادته من جديد، ولا ظروف حملته الانتخابية، ولا تجربة ثمانية شهور فى البيت الأبيض - هيأته لاستيعاب مثل هذه الصدمة).



لمحة!

■ «لورا بوش» (زوجة الرئيس) فى الساعة التاسعة والربع ترتدى فستانا أحمر اللون وحول عنقها عقد من اللؤلؤ تضوى حباته تحت الضوء وهى جالسة فى قاعة الاجتماعات بمبنى «راسل» فى الكونجرس، فقد ذهبت إلى هناك تُدلى برأيها فى «مشكلة التعليم المبكر للأطفال»، أمام لجنة يرأسها السناتور «إدوارد كنيدى» (شقيق الرئيس الراحل «جون كنيدى»)، ويدخل أحد مرافقيها يدعوها إلى الخروج معه فورا، لأن هناك «حادثة» وقعت، وتهرع «لورا» خارجة من القاعة ووراءها السناتور «إدوارد كنيدى» يستمعان إلى بعض التفاصيل ويهرولان من باب جانبى للقاعة، وعندما تصل إلى سيارتها تكون قد سمعت ما يكفيها، وتنتابها حالة رجفة وتمتلئ عيناها بالدموع، ولا تتمكن سيارتها من السير بسبب زحام الشوارع، ويقرر حراسها أنه لا داعى لتعريضها لخطر السير حتى نهاية شارع بنسلفانيا (حيث البيت الأبيض)، وعليه فهم يأخذون «السيدة الأولى» إلى غرفة آمنة فى بدروم إدارة البوليس السرى، ومن هناك تحاول الاتصال تليفونيا بابنتيها «بربارة» و«جينا»، ويبدأ البوليس السرى تحرياته لمعرفة مكان وجود الاثنتين، وتسمع الأم بالأسماء السرية التى يستعملها البوليس السرى للكناية عن ابنتى «بوش»: الأولى «تركواز» (حجر نصف ثمين)، والثانية «بريق» (لعله قطع من البللور أو الزجاج).

وأخيرا الساعة ١١،١٠ تمكنت من سماع صوت ابنتيها، وعندما اطمأنت راحت «لورا» تسأل فى صوت مرتعش تحاول السيطرة عليه: «إذا كان ممكنا أن تعود إلى بيتها؟».



لمحة!

■ الرئيس «جورج بوش» فى الطائرة الرئاسية يتمكن من الاتصال بنائبه «ريتشارد تشينى»، وقد وجده فى المخبأ الآمن للبيت الأبيض، لأن ضباط الأمن حملوه إلى هناك حملا خوفا على حياته، ويصغى «بوش»، وكل ما يرد به على نائبه هو قوله: «إذن فنحن فى حرب»، ثم يضيف «نحن فى حرب، لا نعرف حتى الآن من هو العدو فيها - لكن هناك من سوف يدفع الثمن، نحن سنحارب وهذا هو الواجب الذى يدفع لنا الشعب الأمريكى مرتباتنا كى نؤديه».

ويعود «بوش» للاتصال بنائبه فى بدروم البيت الأبيض يطمئنه إلى أنه فى الطريق إلى واشنطن، لكن «تشينى» يقول له: «لقد أبلغت أن Angel - أى الملاك، (وهو الاسم الرمزى لطائرة الرئيس) ملاحقة بالخطر الآن لأنها الهدف التالى». واقترح «تشينى» على رئيسه أن يبتعد إلى أقصى ما يستطيع عن محيط العاصمة، قائلا بحزم «لا تجيء الآن إلى واشنطن»، وعندما قرر مرافقو الرئيس (ممن كانوا معه على الطائرة) أفضلية توجهه إلى قاعدة «باركسويل» فى لويزيانا حيث يكون هناك فى أمان.



لمحة!

■ الرئيس «جورج بوش» يتصل بوزير الدفاع «دونالد رامسفيلد»، ويبادره بالصياح بصوت مرتفع (كذلك روى «واو»، ثم يترك الصياح إلى التعبير باللفظ ليقول «إنه يوم مأساة وطنية، ولابد أن تكون مستعدا للحرب أنت و«ديك مايرز» (يقصد قائد الطيران الذى أصبح بعدها رئيسا لهيئة أركان الحرب المشتركة)، ويضيف «بوش»: «الكرة واصلة بالتأكيد إلى ملعبكم»، ثم يواصل كلامه قائلا لوزير دفاعه «لابد أن تطلق العنان للقوات المسلحة»، ويرد «رامسفيلد» «لا تحتاج أن توصينا بما يتعين علينا عمله!».



لمحة!

■ «دونالد رامسفيلد» يدعو الجنرال «هنرى شيلتون» (رئيس أركان الحرب المشتركة) إلى مقابلته، ولم يكن فى العادة يستريح له (خصوصا بعد مشادة وقعت بين الاثنين، حين نبه وزير الدفاع على رئيس الأركان المشتركة أن لا يتصل مباشرة بالرئيس عن غير طريقه، وعندما حاول «شيلتون» أن يعترض لأن «الرئيس له الحق الدستورى أن يسمع مباشرة من رئيس أركان الحرب» - كان رد «رامسفيلد» قاطعا - «ليس مادمت أنا جالسا على مقعد وزير الدفاع») - والآن جاء «شيلتون» إلى مكتب «رامسفيلد» الذى بادره بقوله «نحن الآن فى لحظة فارقة».

ويرد «شيلتون» بقوله: «إننا على استعداد». ويجيبه «رامسفيلد» «جئنى بما لديك من خطط لمواجهة هذا الموقف».

ويضيف «رامسفيلد» «لابد أن نتحرك فورا»، لكن الجنرال «شيلتون» (رئيس الأركان وقتها) - يرد عليه وفى حضور الجنرال «مايرز» (رئيس الأركان الحالى): «إذا كانت المسئولية على «بن لادن»، وإذا كان الفاعل تنظيم القاعدة، وإذا كانت القاعدة - كما نعرف - متحصنة فى أفغانستان - فلابد لى من إبلاغك أننا لا نملك خطط طوارئ جاهزة للعمل هناك، لأن ذلك البلد لم يكن على قائمة توقعاتنا، ففى كل حساباتنا لم يكن هناك احتمال أن نشن حربا فى أفغانستان».

ويرد «رامسفيلد» بغضب: «لا أظن أن لديكم حسابا لأى حرب لا فى أفغانستان ولا فى غير أفغانستان، لقد اطلعت على بعض ما عندكم من خطط الطوارئ الجاهزة، وأشعر أن أمامنا شوطا طويلا يجب أن نقطعه حتى نستطيع بناء قدرة فعل تعبر عن قوة أمريكا، ولكم أن تنصرفوا الآن». ويرد الجنرال «مايرز» (رئيس الأركان الحالى) - قائلا بالنص: «أفهم ما تقوله يا سيدى!».



لمحة!

■ مدير وكالة المباحث الفيدرالية «روبرت مولر» يتصل من مكتبه بمدير المخابرات المركزية الأمريكية يستطلع ما عنده من معلومات، لأن «مولر» لم يمض عليه فى منصبه غير خمسة أيام، ويكرر عليه «تنيت» أن المسئولية لابد أن تكون





على «بن لادن»، ويرد «موللر» بقوله «محتمل، لأنه ليس هناك تنظيم آخر لديه مثل هذه الوسائل لترتيب عمل إرهابي بهذا الحجم».



لمحة!

■ الرئيس «بوش» يعود إلى واشنطن فى الساعة السادسة والنصف، وقد نقل إليه أن هناك محاولة لإبقائه بعيدا عن مركز القرار حتى ينفرد به «ريتشارد تشينى» الذى ينتهز الفرصة كى يؤكد لأمريكا أنه رجل الساعة، وأن يده هى التى تمسك بالدفة!

ويستدعى «بوش» رئيس مجموعة كتابة خطبه «مايكل جيرسون»، ويقول له: «إنه يريد أن يتحدث إلى الرأى العام الأمريكى فورا، وتعليماته فى شأن النقط الأساسية أنه يريد إعلانها «حربا على الإرهاب»، وتتدخل مستشارته للأمن القومى فتقول للرئيس: «إن ذلك هدف مفتوح، ويتعين عليك أن تكون الآن أكثر تحديدا».

ويتصل «جيرسون» بعدد من أقطاب الإدارة يستطلع رأيهم فيما يقترحون تضمينه فى خطاب الرئيس، ويوجه «جيرسون» للجميع استفسارات محددة، يظن أنها تساعده على صياغة النص الأكثر ملاءمة للظروف والأفعال فى التأثير على الرأى العام - وضمن استفساراته: «ما هو الهدف الأمريكى الآن؟ - من هو العدو؟ - ما هى الأدلة المتوافرة لدينا عن مسئوليته فيما جرى اليوم؟».

وتجئ إجابات الجميع وفيهم نائب الرئيس «ريتشارد تشينى»، ووزير الخارجية «كولين باول»، ووزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» - متضاربة.

وتروى «كونداليزا رايس» (مستشارة الرئيس للأمن القومى) لـ«وودوارد» (ونقل عنها): «أنها أحست مثل تائه فى الضباب - لكنها «استراحت» إلى أنه لابد أن يكون تنظيم القاعدة هو المدبر - وأن يكون «بن لادن» هو المسئول - وإلا فمن فعلها؟».

على أن هواجس «كونداليزا رايس» ما لبثت أن عاودتها، بمنطق أن تحديد مسئولية «بن لادن» عما جرى صباح اليوم فى واشنطن لابد أن تتداعى بعده مسئولية على الإدارة الأمريكية، تسائل أطراف هذه الإدارة: لماذا فوجئوا بما جرى؟ - وما الذى كانوا يعرفونه عن تنظيم القاعدة؟ ومتى عرفوه؟ وكيف تصرفوا حياله؟

ولم يكن هناك وقت لهذه الهواجس وغيرها.

....

....

[وتشير عشرات ومئات الأوراق التى تعرضت لأجواء تلك الليلة (ليلة ١٢ سبتمبر فى واشنطن) - أنها كانت سهرا طويلا مع الاختلافات والتناقضات - تحولت بعض اللحظات إلى تهم متبادلة بين الأطراف، ثم هدأت الأعصاب مع نهاية الليل على عدة مطلوبات عاجلة تفرضها الضرورات إزاء توترات تزداد حدة فى مشاعر الرأى العام الأمريكى، وقد يتفاقم تأثيرها، وكانت قائمة المطلوبات الضرورية طويلة - وبدايتها:

١ - أنه لابد من تصدير هذه الصدمة المفاجئة إلى خارج الولايات المتحدة بسرعة، لأن شحنة الغضب بعدما جرى لا يجب أن تظل محصورة فى الداخل - لأن ذلك كفيل بتوليد شحنة ساخنة يصعب التنبؤ بخطرها، أو السيطرة على اتجاه حركتها.

٢ - ومعنى ذلك أنه لابد فورا من «عدو خارجى محدد»، تلقى عليه المسئولية، وقبل انتظار للتفاصيل - لأنه بوجود هذا العدو يسهل تحويل شحنة الغضب القادم بعد قوة الصدمة، وبعد ترويع المفاجأة، وبعد وجع الحزن - إلى بعيد.

٣ - وبوجود هذا العدو فإن تعبئة شاملة ضده تستطيع أن تستوعب المشاعر وتضمها فى إطار محدد يلم شملها ويمسك بالشارد والجامح منها، وأكثر من ذلك يعطى الفرصة لتوظيفها.

٤ - وعليه فإن الأمر يقتضى استدعاء الوطنية كإطار جامع للأمة الأمريكية فى لحظة خطر، وأن يتم ذلك بكثافة تقطع الطريق على أى تساؤل - بحيث يصبح مجرد الشك - درجة من الخيانة.

٥ - وفى سياق قائمة المطلوبات أن هناك «حاجة روحية» إلى استدعاء الدين، يلعب دوره الإيمانى فى تحقيق درجة من القبول بنوازل القدر، وبالتالى تخفيف القلق والخوف وحقن جرعات من الصبر والاحتمال، تستحضر أرواح القديسين والشهداء!

وكانت تلك (فى واقع الأمر) محاولات شراء فسحة من الوقت قبل التصرف، وكان كل أطراف الإدارة - على خلاف ما بينهم - يرون ذلك ضروريا لتغطية الفجوة ما بين مفاجأة الحدث المروع - وما بين تحديد المسئولية عنه، ولعل فسحة الوقت أيضا كانت نافعة لمساعدة «جيرسون» على إيجاد صيغة جواب لأسئلته الحائرة عن الهدف الأمريكى الآن؟ - ومن هو العدو؟ - وما هى الأدلة المتوافرة «لدينا» ضده فى شأن ما جرى صباح الأمس فى واشنطن؟ - ومن ثم يتمكن من كتابة أول خطاب عام لرئيس الولايات المتحدة بعد الصدمة.

وكانت فسحة الوقت - أيضا - حاجة ملحة لتهدئة هواجس «كونداليزا رايس» وغيرها بصدد مسئولية إدارة «بوش» عما جرى؟ - ولماذا فوجئت؟ - وما الذى كانت تعرفه؟ - ومتى عرفته؟ - وكيف تصرفت إزاءه؟].

....

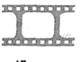
....

وفى حملة مكثفة وشاملة، جرى تحقيق المطلوبات الضرورية كلها وأمكن شراء مهلة من الوقت لالتقاط الأنفاس!

بمعنى أنه جرى بسرعة تصدير الأزمة - ووقع العثور على عدو - وانتقل التركيز إلى هذا العدو - واستدعيت وطنية العلم المخطط بالأحمر والأبيض والمرصع بمربع أزرق تصطف فيه النجوم (وهى حالة من وطنية الخوف موروثة بالتجربة) - وحضر القساوسة والحاخامات (والمشايخ) وبدأت الصلوات، وبين النتائج أن المزاج الأمريكى تحول إلى قوس مشدود بالتوتر جاهز للانطلاق فى أى اتجاه، ولابد من إطلاقه قبل أن يتذكر المواطن الأمريكى أن بلاده رصدت ما متوسطه تريليون (ألف بليون) دولار كل سنة تحت بند الدفاع عن نفسها، أى خمسين تريليون دولار - أى حوالى ٢٠٪ من مجمل الدخل القومى الأمريكى طوال خمسين سنة - (وفق تقرير الكاتب الكبير «جورفيدال» فى دراسته بعنوان «السلام المتقطع والحرب المستمرة») - ومع ذلك وبرغم هذه التكاليف المهولة، انقضت على الشعب الأمريكى مثل هذه الضربة وفى قلب وطنه (نيويورك) - (وليس كما حدث فى «بيرل هاربور» فوق قاعدة نائية وسط المحيط الهادى (جزر هاواى)). ■

ثالثا: لا نستطيع كسب حروب ضد أشباح!

■ بعد أن يرسم «بوب وودوارد» لوحته التأثيرية بلمحات وظل وفراغ، يدلف هادئا إلى عالم الصور يعرض شريطا متواصلا منها يبدأ به من الأول - أى من قبل أن تنقض صدمة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وتلك فى فن السينما هى العودة إلى الوراء (Flash Back) تسترجع خلفية المشهد.



صورة!

قبل أن يتسلم «جورج بوش» (الابن) مسئوليات رئاسة الولايات المتحدة رسميا بأسبوع كامل - جرى ترتيب اجتماع خاص له مع مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «جورج تنيت»، والمقصود أن يكون الرئيس المنتخب على دراية وإحاطة بالمخاطر المحتملة التى تنتظر رئاسته القادمة. وتوجه «جورج بوش» إلى «بلير هاوس» مقر الضيافة الرسمى المواجه للبيت الأبيض (وكان «بيل كلينتون» لا يزال يعمل منه وأمامه أسبوع كامل قبل أن يقوم بتسليمه إلى شاغله الجديد).

ودخل «جورج بوش» (الابن) إلى «بلير هاوس» ومعه شخصان اثنان، لأن سرية المعلومات التى كان مقدرا أن يسمعها يلزم حصرها فى أضيق دائرة، وكذلك لم يجئ مع الرئيس المنتخب إلا اثنان من أركان إدارته المقبلة: «ريتشارد تشينى» نائبه الذى فاز معه على نفس التذكرة،

أحس بعض أعضاء مجلس الأمن القومى أن وكالة المخابرات المركزية تقصد بطريقة غير مباشرة أن تلقى مسئولية التقصير على «مكتب التحقيقات الفيدرالى»، وأن تضع على حسابه فشلا فى التصرف على أساس معلومات وفرتها له المخابرات، وبدا أن «جورج تنيت» يحاول إعداد «خازوق» لغيره



ومساعدته التي اختارها مستشارة لشئون الأمن القومي - «كونداليزا رايس».

وعلى الناحية المقابلة جلس مدير وكالة المخابرات المركزية - «جورج تنيت» الذي اصطحب معه رجلا واحدا من مساعديه هو «جيمس بافيت» نائب رئيس المخابرات لشئون العمليات.

ولمدة ساعتين ونصف الساعة استمع «جورج بوش» (ومرافقاه) إلى عرض مفصل عن «الأصدقاء والأعداء» - و«الطيبين والأشرار» - «والفرص والأخطار» - مما ينتظر الإدارة الجديدة.

وركز «جورج تنيت» و«جيمس بافيت» فيما عرضا على ثلاثة أعداء رئيسيين:

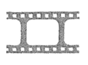
● العدو الأول هو الإرهاب والطليعة في جبهته العالمية هي تنظيم القاعدة الذي يقوده «أسامة بن لادن»، وهو رجل خطير يعتبر نفسه في حالة «جهاد إسلامي» ضد الولايات المتحدة، إلى درجة تدعوه لتعقب مصالحها ومطاردة مواطنيها في أي مكان وفي أي وقت، وذلك يجعل تنظيم القاعدة «خطرا قائما» و«خطرا عاجلا»، والصعوبة في شأنه «أننا لا نستطيع أن نعرف بالضبط متى؟ وأين؟ يختار ضرباته»، ذلك أن هذا التنظيم كيان يصعب الإمساك به (Elusive)، ثم يعرض «تنيت» «أن الرئيس الحالي «بيل كلينتون» وافق على خمسة أوامر عمليات محددة (Memorandum of Notification) تفوض المخابرات المركزية في تنفيذ ضربات هدفها تدمير تنظيم القاعدة وتصفية «بن لادن»، والغرض «إرباك نشاط الإرهابيين وإجهاض عملياتهم»، وأنه يستأذن في تجديد هذه التفويضات بسلطة الرئيس المنتخب فور أدائه للقسم الدستوري».

● العدو الثاني هو الانتشار غير المسبوق لأسلحة الدمار الشامل (الكيماوية والبيولوجية والنووية)، واحتمال وصول مثل هذه الأسلحة إلى دول «مارقة» أو جماعات «متعصبة» تستغلها دون إدراك لطبيعة القوة التدميرية لهذه الأسلحة، أو بإدراك لا تعنيه العواقب طالما كانت هذه الأسلحة تساعد على ردع الآخرين أو الانتقام منهم!

● والعدو الثالث هو الصين التي أفلتت من عوائق التخلف والحصار، وراحت تركز على بناء قوة تجعل منها - فيما لا يزيد على ربع القرن - دولة عظمى «عدوانية» على الشاطئ الآخر من المحيط الهادي.

وكانت الملاحظة الوحيدة التي أبداها «جورج بوش» بعد سماعه لكل ما عرضه عليه رئيس المخابرات المركزية: إنه يتوقع في وقت مبكر من رئاسته أن يتلقى تقريرا من الوكالة عن مقترحاتها لكسر خطر «بن لادن»، وكان «جيمس بافيت» (مدير العمليات) هو الذي رد: «نستطيع أن نوصي بدءًا من هذه اللحظة بدعم التحالف الشمالي لزعماء قبائل أفغانستان، لأن هؤلاء هم القوة المضادة لنظام طالبان - سند تنظيم القاعدة، وحامي «بن لادن» - بما يوفره للجميع من أسباب للطمأنينة وحرية العمل.

وقال «بوش» «إنه يوافق على التوصية، وينتظر أن يتلقى مشروع تفويض للوكالة، وسوف يوقع عليه لحظة أن يجده على مكتبه في البيت الأبيض عندما يتسلم مسئوليته!».



صــــورة!

في الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وبعد أن استجمع الرئيس الأمريكي بعض أعصابه في أعقاب الصدمة الأولى للأخبار التي وصلته عما جرى في نيويورك - دعا إلى عقد اجتماع لمجلس الأمن القومي على الشبكة الإلكترونية الرئاسية، وكان «بوش» ساعتها في قيادة القوات الجوية بولاية «نبراسكا»، ولأنه لم يكن قرر بعد موعد عودته إلى العاصمة، فقد أراد أن يكسب وقتا، وتمت الترتيبات اللازمة بسرعة، وكان أول المتحدثين في هذه الجلسة الإلكترونية هو «جورج تنيت» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الذي ظهر جالسا على مكتبه في واشنطن - قائلا:

«سيادة الرئيس، نستطيع أن نقول في شبه يقين (near certainty) أن «بن لادن» وراء الهجوم على نيويورك صباح اليوم، فلقد وجدنا من بحث قائمة الركاب على شركة الطيران الأمريكية للرحلة رقم ٧٧ (التي ضربت مبنى البنتاجون) - أن أحد الركاب هو «خالد المدحار»، وذلك رجل تابعنا نشاطه قبل سنة في ماليزيا، وقد تمكن «عميل في خدمة الوكالة» من تحديد موقعه في تنظيم القاعدة، ووقتها قامت الوكالة بإخطار إدارة المباحث الفيدرالية F.B.I كي تضع هذا الرجل على قائمة الممنوعين من دخول الولايات المتحدة، لكن المخابرات المركزية فوجئت عندما وجدت اسم «المدحار» ضمن ركاب الرحلة ٧٧، ومعنى ذلك أنه تمكن من التسلل إلى الولايات المتحدة.

كرر «تنيت» على الشبكة الإلكترونية المشفرة «اعتقاده بأن القاعدة هي التنظيم الوحيد الذي يملك الوسائل لتنفيذ عمل إرهابي على هذا النحو الدقيق المثير (Spectacular)».

واصل «جورج تنيت» «أن الوكالة تمكنت من تعقب مكالمات تليفونية بين بعض أنصار «بن لادن» يهنئون فيها أنفسهم على هذا «التوفيق العظيم»، ويقوم خبراء الوكالة الآن بترجمة هذه المكالمات وغيرها إلى اللغة الإنجليزية، لعلهم يستنتجون منها معلومات عن مفاجآت أخرى قد تكون جاهزة «للانفجار»!

وأحس بعض أعضاء مجلس الأمن القومي على الشبكة الإليكترونية «أن وكالة المخابرات المركزية تقصد بطريقة غير مباشرة أن تلقي مسئولية التقصير على «مكتب التحقيقات الفيدرالي»، وأن تضع على حسابه فشلا في التصرف على أساس معلومات وفرتها له المخابرات، وبدا أن «جورج تنيت» يحاول إعداد «خازوق» لغيره، وهنا اكتفى الرئيس «بوش» بأن يقول لجورج تنيت:

«حاول أن تفتح آذانك حتى لا تفوتك همسة، تنصت على كل شيء وأي إنسان داخل الولايات المتحدة وخارجها».

وقال «تنيت» إنه سيفعل، ثم عاد يحاول تثبيت «الخازوق» لمكتب التحقيقات الفيدرالي، وقاطعه الرئيس «بوش» قائلا: «إنه مذهول لا يستطيع حتى هذه اللحظة أن يتصور كيف جرى اختراق أمن أهم المطارات في الولايات المتحدة!».

صــــورة!

عاد الرئيس «جورج بوش» إلى مكتبه في السادسة والنصف من مساء يوم ١١ سبتمبر، وقرر أن يوجه خطابا إلى الأمريكيين، ودعا هيئة كُتَّاب خطبه إلى المكتب البيضاوي يبحث معهم ما يمكن أن يقوله «لأمة في حالة فزع»، وكانت هيئة كتاب خطب الرئيس قد تحسبّت للطلب واستعدت بمشروع جاهز، أشرفت على تحضيره «كارين هيوز» كبيرة مستشاري العلاقات العامة، وقام بصياغته النهائية «مايكل جيرسون» (الكاتب الأول بين مجموعة كتاب «خطب الرئيس»).

وراح «بوش» يستمع إلى النص المقترح لخطابه، ووصل «مايكل جيرسون» أثناء قراءته مشروع الخطاب إلى عبارة تقول «إن ذلك الذي حدث لم يكن مجرد هجوم إرهابي - بل كان إعلان حرب على الولايات المتحدة»، وتوقف «بوش» وسأل: «لماذا نقول ذلك الآن؟»، وردت «كارين هيوز» «هذا كلام جاء على لسانك أنت في أول تعليق نُقل عنك من فلوريدا». ورد «بوش» بقوله «شعوري أن مهمتنا الآن هي طمأنة الناس وليس تخويفهم أكثر»، ثم التفت إلى «مايكل جيرسون» يقول له: «احذف هذه الجملة». وأضاف «إنني لا أريد أن أزيد في قلق الناس، وإنما أن أساعد على تهدئة مشاعرهم».

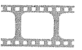
ثم دارت مناقشة استقر فيها الرأي على «أن يكون الخطاب قويا - متوازنا - يطمئن - وفي نفس الوقت يؤكد حزم الرئيس على العمل ضد الإرهاب والإرهابيين، وضد كل هؤلاء الذين يقدمون لهم المساعدة والمأوى، مع التعهد بأنه سوف يوجه ضربات عقابية للجميع: الإرهابيين - ومناصريهم - وأعوانهم - والذين يتعاطفون معهم ولو بمجرد الإيواء».

وقالت «كونداليزا رايس» مستشارة الرئيس للأمن القومي «إنها تظن باستمرار أن الكلمات الأولى التي يقولها الرئيس بعد حدث من هذا الحجم هي التي تصنع أول الانطباعات وأبقى المؤثرات، وأنه إذا كان الرئيس ينوي «إعلانها حربا شاملة ضد





الإرهاب»، فعليه أن يقولها الآن - لأن هذه فرصتك لإعلانها بحسم» - وبدا «بوش» مترددا لا يقطع برأى. وراحت النسخة النهائية المعدلة لخطاب الرئيس تتكامل، وعرف أحد مستشاريه وهو «دان بارتليت» أن رئيسه حذف عبارة «أن الهجوم على نيويورك إعلان حرب على الولايات المتحدة»، وتوجه إلى المكتب البيضاوى يحاول إقناع «بوش» بإعادة الجملة إلى نص خطابه، ورد عليه الرئيس بضيق «إننى طلبت حذفها»، وأضاف «ولا أريد اقتراحات بتعديلات أخرى على نص الخطاب، لأنى فى هذه اللحظة أجهز نفسى لإلقائه».



صـــورة!

يوم ١٢ سبتمبر (اليوم التالى للصدمة الكبرى)، دعى مجلس الأمن القومى لاجتماع خاص فى البيت الأبيض (اجتماع بشر من لحم ودم وليس ترددات ذبذبات إليكترونية مشفرة)، وكان «جورج تنيت» أول المكلفين بعرض الموقف، وألقى «تنيت» بالمسئولية على القاعدة، وبعدها على حكومة طالبان التى تؤويها، وبعدها على المخابرات العسكرية الباكستانية التى دعمت حركة طالبان ومكنت لها، واعتبرتها المؤتمنة على الجهاد الإسلامى فى أفغانستان (ضد الاتحاد السوفيتى السابق)، وصاحبة دولته الحاكمة فى ذلك البلد، وعلق «بوش» قائلا: «الحملة ضد الإرهاب فرصة عظيمة لإقناع روسيا والصين بالانضمام إلينا».

ثم التفت الرئيس إلى وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» - (وقد أخطره بالأمس أن الكرة فى طريقها إلى ملعب القوات المسلحة) - يسأله عما توصل إليه، وكان «رامسفيلد» قد أعد ورقة أمامه كتب عليها مجموعة أسئلة يريد طرحها، والحصول على إجابات عنها تكون توجيها واضحا للقوات المسلحة.

«إذا كنا سنوجه ضرباتنا ضد القاعدة، فنحن نريد أن نعرف:

١ - ما هى الأدلة المتوافرة لدينا على مسئولية هذا التنظيم عما جرى بالأمس؟

٢ - ما هى الأهداف التى يمكن أن نوجه إليها ضرباتنا لكسر التنظيم؟

٣ - ما هو التوقيت المقترح لبداية ضرباتنا؟

وتوقف «رامسفيلد» لحظة ثم استكمل: «أريد أن أكون واضحا:

١ - ليست لدينا خطط طوارئ جاهزة للتعامل عسكريا مع تنظيم القاعدة.

٢ - ليست لدينا قوات معبأة للعمل فى مناطق تواجد هذا التنظيم فى أفغانستان.

٣ - إذا أردنا توجيه ضربات جوية متواصلة فى أفغانستان، فنحن نحتاج فى الإعداد والتحضير والنقل وتشوين الأجهزة إلى مدة ستين يوما.

وتدخل وزير الخارجية «كولين باول» يبدى دهشته من أن وزير الدفاع يطرح أسئلة كان واجبه تقديم إجابات عنها.

ورد «رامسفيلد» بأنه لاحظ فى سير المناقشات أن بعض زملائنا «لا يتصورون أن ننتظر ستين يوما قبل أن نضرب»، بل وسمع أحد مستشارى الرئيس يقول: «إنه لا يمكن تصور الانتظار حتى يوم ١١ نوفمبر حتى ترد الولايات المتحدة على حدث وقع يوم ١١ سبتمبر»، وهو يريد أن يعرف الجميع أن توجيه ضربة عسكرية تختلف عن الإدلاء بتصريحات مرسلة إلى وسائل الإعلام، وأضاف «إن الأسئلة التى طرحها حقيقية وهى ليست أسئلته الوحيدة، وإنما لديه بعد ما ذكر قائمة طويلة».

فيها السؤال عن - «أية حدود سوف نلتزم بها فى توجيه الضربة؟».

وفيها السؤال عن - «من هم حلفاؤنا فى توجيه هذه الضربة؟».

وفيها السؤال عن - «هل هناك حلفاء لنا يساعدون القاعدة؟ - وإذا كان فهل نوجه إليهم ضرباتنا أيضا؟».

ثم قال «رامسفيلد» بلهجة درامية: «إن القوات تحتاج إلى توجيهات محددة!».

وقال «تشينى»: «إنه يفهم أن أفغانستان على بعد سبعة آلاف ميل من أمريكا، وأن عدد سكانها ٢٦ مليون نسمة، أى أنها فى حجم تكساس (ولعل «تشينى» أراد بهذه المقارنة أن يقرب الصورة إلى عقل «بوش») - فماذا سنفعل بالضبط؟».

وتدخل «بوش» ليقول «كما فهمت فإننا كنا نتابع «بن لادن» حتى خروجه من السودان فى مايو سنة ١٩٩٨ - هذا عرفته مما قرأته - بعد ذلك ذهب «بن لادن» إلى أفغانستان وهناك احتضنته حكومة طالبان - أبلغوا طالبان أننا نفضنا أيدينا منهم - طالبان والقاعدة هما نفس الشئ».

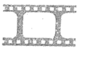
وتدخل «رامسفيلد» - يرد الجميل لباول - فيقول: «نحن نقترب أكثر من تحديد هدفنا، ولكنى أظن أننا نحتاج قبل أن نتحدث عن العمل العسكرى - إلى الحديث أيضا عن الدور الذى يمكن أن تقوم به القوة الأمريكية فى مجالات غير عسكرية، وفى التمهيد لهذا العمل العسكرى حين يجئ وقته، فهناك ضرورات لعملية إعداد سياسى وقانونى ودبلوماسى ومالى ومخابراتى، وكل ذلك لازم قبل أن تبدأ الضربات، لهذا قلت إننا نحتاج إلى ستين يوما ليس فقط للعمل العسكرى، ولكن لمقدماته وتجهيزاته غير العسكرية».

وتدخل «جورج تنيت» مدير المخابرات المركزية يقول «إن قيادة القاعدة موجودة فى أفغانستان، ولكن نشاطها عالمى، وهى موجودة فى كل القارات، ونحن لدينا قائمة بستين بلدا رصدنا فيها تحركات للقاعدة».

ورد «بوش» يقول «لنأخذهم بلدا بعد الآخر - لأننا لا نستطيع التصرف معهم جميعا فى نفس الوقت».

وعاد «رامسفيلد» يقول «المسألة ليست فقط «بن لادن»، ولكن هناك دولا كثيرة تتعاون - أو تتهاون - مع الإرهاب!».

وختم «بوش» المناقشة فى هذا الموضوع بقوله «علينا أن نرغمهم أولا على الاختيار، إما نحن وإما القاعدة، إما معنا وإما معهم، إما حلفاء لأمريكا وإما حلفاء للإرهاب».



صـــورة!

عندما انتهت اجتماعات مجلس الأمن القومى وتوجه الرئيس إلى مكتبه - لحقت به مستشارته للأمن القومى - تعرض عليه بعض هواجسها:

عادت تقول له إنها «تشعر من حولها بضباب، وهى تجاهد للتخلص منه حتى تستطيع المساعدة فى تقدير ما يمكن عمله فى اليوم التالى، وهى مُهيأة لقبول أن المسئولية تقع بالفعل على تنظيم القاعدة، ولكن هناك أسئلة سوف تطرح نفسها على الناس: سوف يتساءل الناس - إذا كان تنظيم القاعدة هو المسئول، فما الذى كانت الولايات المتحدة تعرفه عنه - وعن نواياه - وإمكانياته؟ - وماذا عرفت بالتحديد؟ ومتى عرفت؟ ولماذا لم تتصرف؟».

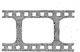
وأحس «جورج بوش» أنه مرهق، وقرر الصعود إلى الجناح الخاص، حيث تنتظره قرينته «لورا»، وآوى الاثنان فعلا إلى الفراش، لكنه فى الساعة الحادية عشرة وثمانى دقائق قام الحرس الخاص للرئيس بإيقاظه من النوم، طالبين منه ومن قرينته التوجه فورا - بملابس النوم - إلى مخبأ البيت الأبيض، وهرع الاثنان وراء أحد ضباط الحرس إلى هناك، ونسيت «لورا» (قرينة الرئيس) أن تأخذ عدساتها اللاصقة التى تستعملها لتعويض قصور بصرها، لكن «جورج بوش» لم ينس أن يأخذ معه كلبيه، وفى الممر الطويل المؤدى إلى المخبأ تحت الأرض، تقابل «بوش» مع رئيس أركان البيت الأبيض «كارد»، ومع مستشارته للأمن القومى «كونداليزا رايس»، ومعها مساعدها «ستيفن هارلى»، وكان الثلاثة يهرولون إلى المخبأ، لأن البوليس السرى تصرف معهم كما فعل مع الرئيس وقرينته، باعتبار أن هناك حالة إنذار بطائرة مجهولة متجهة نحو واشنطن، والخوف أن يكون هدفها هو البيت الأبيض بعد أن جرى الإعلان عن عودة الرئيس إليه.

وبعد عشر دقائق جاء البوليس السرى يقول أن الطائرة المجهولة بانت هويتها، وتأكد أنها طائرة عادية، لكن الاحتياط كان واجبا، ومع أن الإنذار بالخطر لم يعد ساريا، فلا يزال من المستحسن أن يقضى الرئيس وقرينته ليلتهما فى المخبأ، ونظر «بوش» إلى السرير الصغير المُعد لنومه فى المخبأ، وقرر أنه سوف يعود إلى غرفة نومه فى الجناح الرئاسى «وليكن ما

ختم «بوش» مناقشته مع مجلس الأمن القومى بقوله: «علينا أن نرغمهم أولا على الاختيار، إما نحن وإما القاعدة، إما معنا وإما معهم، إما حلفاء لأمريكا وإما حلفاء للإرهاب»



يكون»، وقررت «كونداليزا رايس» أنها فى هذه الساعة المتأخرة من الليل لا تستطيع العودة إلى شقتها فى عمارات «ووترجيت»، ولهذا فسوف تقضى ليلتها فى المخبأ!».



صـــورة!

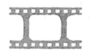
فى الساعة السابعة صباحا يوم ١٢ سبتمبر، وصل «جورج تنيت» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إلى البيت الأبيض ومعه التقرير اليومى للوكالة، لكنه فى ذلك اليوم كان تقريرا من نوع خاص.

كان الرئيس فى مكتبه يتحدث مع مستشارته للأمن القومى، وبدا فى حديثه معها أنه يريد إزاحة المسئولية عن إدارته (ويضعها على سلفه «بيل كلينتون») قائلا: «إنه يعتقد أن إدارة «كلينتون» ردت على تحدى الإرهاب بتهاون شديد». ثم تساءل «بوش» «ما معنى أن يرد «كلينتون» على نسف السفارات الأمريكية فى أفريقيا بإطلاق دفعة صواريخ موجهة إلى أفغانستان؟ - وأى رد هذا؟ - وما الذى يمكن أن تحققه مثل هذه الضربات؟ حريق فى خيمة؟ - هدم بيت من الطين بصاروخ من طراز «كروز»؟ - هذه نكتة!

يضيف «بوش» «لابد أن نتصرف بقوة، وإلا اهتزت صورة أمريكا».

وعندما دخل «تنيت» إلى المكتب البيضاوى، توقف «بوش» عن إبداء سخطه على سلفه ليسمع مدير مخابراته، وراح «تنيت» يتحدث ويقدم للرئيس قوائم بأسماء مسئولين كبار فى القاعدة يساعدون «بن لادن»، من «أيمن الظواهرى»، إلى «أبو زبيدة» - إلى آخرين. ولم يكن «بوش» على استعداد لأن يدخل فى مجاهل هذا العالم الغامض للإرهابيين، وأحس «تنيت» أن رئيسه يتعجل النتائج ولا تعنيه التفاصيل وكذلك قال: «لدينا خطة لتكثيف نشاطنا حتى نتمكن من توجيه ضربات قاتلة للإرهابيين، لكن هذه الخطة تحتاج إلى اعتمادات مالية طائلة تصل إلى ألف مليون دولار، ورد «بوش» بسرعة «سوف أعطيك كل ما هو لازم لمهمتك».

وأوضح له «تنيت» أن مهمته مهما نجحت - محصورة فى معرفة أكثر ما يمكن معرفته عن الإرهابيين، ثم اختراق تنظيماتهم، وإلحاق الضرر بهم إلى أقصى حد، لكن الضربة القاضية القاتلة لابد أن تكون بواسطة العمل العسكرى، وهذه مهمة القوات المسلحة!».



صـــورة!

بعد انتهاء اجتماع مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض (يوم ١٢ سبتمبر)، عاد الرئيس «بوش» إلى مكتبه، ومشت بجواره «كارين هيوز» مستشارته للشئون العامة، التى كان يريد أن يتحدث معها عن لغة «الخطاب العام للإدارة» فى الأيام القادمة، وعندما استقر وراء مكتبه قال لها: «إنه يريد عقد اجتماعات يومية لتشكيل وتوجيه الرسالة التى يريد توجيهها إلى الشعب الأمريكى عن الحرب ضد الإرهاب!» - وبادرت تسلمه ورقة تحتوى على ملاحظات يصح له إبداؤها أثناء اجتماع مقرر له مع قيادات القوات المسلحة سوف يحضره فى البنتاجون بعد ظهر هذا اليوم، ووضع «بوش» الورقة على مكتبه، وعاد يوجه الحديث إلى «كارين هيوز» قائلا:

«دعينا أولا نتفق على الصورة الأوسع، نحن أمام عدو ليست له ملامح (Faceless)، وهذا العدو أعلن الحرب على الولايات المتحدة - إذن نحن فى حرب».

ثم يستطرد:

«إننا فى حاجة إلى خطة - إلى استراتيجية - إلى رؤية، ولابد لنا أن نُعَلِّم الشعب الأمريكى كيف يستعد لهجوم آخر؟ - الشعب الأمريكى يحتاج أن يفهم أن الحرب ضد الإرهاب هى المحور الرئيسى لجهد الإدارة وللحكومة من الآن فصاعدا».

وردت «كارين هيوز» بأنها سوف تذهب إلى مكتبها للتحضير بعض النقط عن هذه «الرسالة»، وكتابتها على ورق، ثم تعود بها إلى الرئيس. وتوجهت «كارين» بالفعل إلى مكتبها فى الدور الثانى، وفتحت جهاز الكمبيوتر واستعدت للكتابة، لكن الرئيس طلبها إلى العودة فورا، وحين دخلت إلى المكتب البيضاوى بادرها بقوله: «دعينى اليوم أقل لك كيف يجب أن تؤدى عملك» - ثم ناولها ورقتين من أوراق مكتبه عليها بخط يده «مجموعة أفكار» (كذلك وصف الورقتين)، وراحت «كارين» تقرأ:

«هذا عدو يضرب ويختفى، ولكنه لن يستطيع الاختباء منا إلى الأبد.

هذا عدو يتصور أنه فى مكمن آمن، لكنه لن يظل آمنا إلى النهاية.

هذا عدو لم نتعود على مواجهته، لكن أمريكا سوف تتأقلم على الحرب معه».

وأضاف «بوش»: «والآن عودى إلى مكتبك لتجهزى نفسك!».



صـــورة!

فى اجتماع ثالث لمجلس الأمن القومى (خلال يومين)، استمع الرئيس «بوش» إلى تقارير عدد من مساعديه، ثم انفض الاجتماع بعد نصف الساعة، ولكن الرئيس استبقى ستة منهم لجلسة محدودة.

وفى بداية هذه الجلسة المحدودة توجه «بوش» بنظره إلى «كولين باول» الذى رد على النظرة بجواب - قائلا: «إن وزارة الخارجية بدأت فعلا فى نقل رسالة الرئيس إلى حكومة باكستان ونظام طالبان» - «إما أن تكونوا معنا - أو أنكم ضدنا».

وقال «بوش»: «إننى أريد إعداد قائمة بما نريده من طالبان، لا يكفيهم أن يسلموا لنا «بن لادن» - نحن نريد كل تنظيم القاعدة، إما أن يسلموهم لنا مباشرة، وإما أن يطردوهم من عندهم، ونحن نقوم بالقبض عليهم فور خروجهم».

وتدخل «رامسفيلد» بقوله: «من المهم بالنسبة لنا أن نحدد أهدافنا الآن، فمن الضرورى أن نتوافق فى عملنا مع شركائنا فى التحالف ضد الإرهاب، والذى وَقَّعَ أعضاؤه اتفاقا معنا لمواجهة خطره»، ثم زاد «رامسفيلد» «كل شركائنا فى التحالف سوف يطلبون منا معلومات محددة وتوصيفات مقبولة، ومازلت ألح على أن هناك إجابات مطلوبة على أسئلة مطروحة مثل: هل حربنا هى ضد «بن لادن» والقاعدة فقط - أم هى ضد الإرهاب بالمعنى الأوسع؟».

وكان «كولين باول» هو الذى استبق الرئيس برد قال فيه: «الهدف حرب ضد الإرهاب بالمعنى الأوسع - والبداية ذلك التنظيم الذى قام بالعمل المباشر الذى تعرضت له الولايات المتحدة أول أمس».

وتدخل «تشينى» نائب الرئيس ليقول: «الهدف حرب ضد الإرهاب بالمعنى الأوسع، أى الإرهابيين والذين يناصرونهم - لكن عليك أن تلاحظ أنه سوف يكون من الأسهل علينا العثور على مناصرى الإرهاب أكثر من العثور على الإرهابيين أنفسهم».

ورد «بوش»: «لنبدأ بالعثور على «بن لادن»، فذلك ما يتوقعه الشعب الأمريكى، وإذا نجحنا فإننا نكون قد وجهنا ضربة قوية إلى الإرهاب بالمعنى الأوسع، نحن أمام «سرطان» ولابد من استئصال الورم، وإذا بدأنا الحرب على الإرهاب بالمعنى الأوسع فلن يكون فى مقدور الرجل العادى فى أمريكا أن يتفهم ذلك».

والتفت «بوش» إلى «رامسفيلد» يسأله: «هل توصلتم إلى تحديد ما نستطيع عمله عسكريا - فى أسرع ما يمكن؟!

ورد «رامسفيلد»: «لم نجد غير قليل جدا، مما يمكن أن يؤثر».

ثم روى وزير الدفاع أنه بالأمس استدعى الجنرال «تومى فرانكس» (قائد القوات المركزية الذى قاد الحرب على العراق حتى الآن) - وسأله عن استعداده للعمل ضد تنظيم القاعدة وضد طالبان إذا أصبح ذلك ضروريا. ورد «فرانكس»: «أن القيادة المركزية تحتاج إلى عدة شهور لرسم خطة عمليات واسعة فى أفغانستان»، وعندها قاطعه وزير الدفاع بقوله «لديك فرصة أيام أو أسابيع على الأكثر - ليست لديك فرصة شهور!» - وهنا بدا الضيق على قائد القيادة المركزية وقال: «إننا نحتاج إلى قواعد نعمل منها، وإلى حشد يكفى للمهمة التى نطلبها، وإلى خطوط مواصلات مأمونة نتحرك عليها وإلى أشياء كثيرة، لأن أفغانستان فى منتصف الكرة الأرضية على الناحية الأخرى من العالم، مع العلم أن القاعدة تنظيم حرب عصابات، وأعضاؤه مختفون فى الجبال، وهم يستعملون البغال فى جر المدافع والعربات، ومعسكراتهم - بما فى ذلك معسكرات التدريب - خالية ليس فيها شىء».





وأضاف «رامسفيلد»: «إننى قلت لقائد القيادة المركزية، إننا نريد أفكارا خلاقة، شىء ما بين إطلاق صواريخ «كروز» وبين حرب واسعة.

وتدخل «بوش» فى مجرى الحديث ليقول: «أن «تونى بلير» (رئيس وزراء بريطانيا) اتصل بى على التليفون صباح اليوم الباكر يقول لى «إن العالم ينتظر منا عملا قويا، وليس مجرد إجراءات لتهدئة مشاعر الرأى العام الأمريكى، وتجعله يحس أفضل!».

واستطرد «بوش» (فى الغالب بتأثير رئيس أركان البيت الأبيض وربما تلقينه): «إن البنتاجون لابد من دفعه دفعا لكى يفكر جديا فى كيفية التعامل مع حرب عصابات بأسلحة تقليدية - لدينا مشكلة وهى أن العسكريين عندنا مضت عليهم فترة طويلة وهم يحاربون معاركهم عن بعد».

وواصل «بوش» كلامه: «لابد أن نتصرف بسرعة قبل أن يتغير المناخ العالمى، خصوصا فى أوروبا لأننا لابد أن نأخذهم معنا إلى حيث نذهب، ولا يجب أن نعطيهم الانطباع بأننا نتصرف وحدنا». ثم أضاف «إن العالم الخارجى مازال ينظر إلىّ على أننى «رجل متهور» من تكساس، هم يظنون ذلك - أليس صحيحا؟ - لا يعرفون أننى رجل مختلف عما يظنون!».

وكان الرئيس «بوش» على وشك أن يستقبل زعماء الكونجرس، لكنه قبل مجيئهم إلى البيت الأبيض اتصل بنفسه بكل من الرئيس الروسى «فلاديمير بوتين»، وبرؤساء فرنسا وألمانيا وكندا والصين، ثم ترك مهمة الاتصالات ببقية الحلفاء إلى وزير الخارجية، قائلا له: «إننى أريد أن يمشى الجميع معنا، لكننى على استعداد للمشى وحدى إلى آخر الشوط إذا اقتضى الأمر».

ثم خرج الرئيس إلى الصحفيين يقول لهم: «سوف يكون هذا صراعا هائلا بين الخير والشر - لكن الخير سوف ينتصر!».

صورة!

التقى «بوش» فى الساعة الحادية عشرة والنصف بزعماء الكونجرس، وبدأ كلامه معهم بقوله:

«إن العدو كان يحلم بأن يقابلنا هنا فى هذا المبنى، كان يريد أن يجىء إلى هنا ليحول البيت الأبيض إلى أنقاض. أريد للكونجرس أن يعرف أن تلك لم تكن حادثة منعزلة، ولا أريد أن تتحول أنظاركم عن هذه المعركة، بعد شهر من الآن سوف ينهمك الشعب الأمريكى فى متابعة مباريات كرة القدم لكأس العالم، لكن إدارتى سوف تكون منهمكة فى إدارة حرب لا آخر لها.

إن العدو ليس جماعة محددة، ولكن عقلية معينة، هذه العقلية تكره المسيحية وتكره اليهودية، وتكره كل شىء يختلف عنها، وعلى بقية الأمم أن تختار».

وفوجىء بعض زعماء الكونجرس بلهجة الرئيس، وارتفع صوت زعيم الأغلبية - الأسبق - فى مجلس الشيوخ السيناتور «توماس راسل» موجها كلامه للرئيس - قائلا: «أرجوك أن تكون أكثر تحفظا فيما تقول - وإذا كنت تريد تأييدنا، فإننا نطلب منك الاعتدال ومراعاة وقع كلماتك على أصدقاء الولايات المتحدة».

ثم تدخل السيناتور «روبرت بيرد» (زعيم الحزب الديمقراطى فى فرجينيا وعمره ٨٣ سنة) ليطلب من «بوش» أن يهدئ روعه قائلا له: «إننى تعاملت مع عشرة رؤساء للولايات المتحدة قبلك، ولقد فهمت مما قلته لنا أنك لا تريد منا قرارا بشن الحرب، وإنما تريد منا تفويضا لك باستعمال القوة، أى أنك تطلب منا ما سبق للرئيس «جونسون» أن طلبه فى فيتنام سنة ١٩٦٤ (فيما سُمى بقرار «خليج تونكين»، وكانت تلك كذبة كبيرة طلب فيها «جونسون» تفويضا من الكونجرس بالرد على عدوان، ولم يكن هناك بالفعل عدوان).

استطرد السيناتور «بيرد» العجوز ليقول لبوش: «لن تحصل من الكونجرس هذه المرة على قرار مماثل لقرار تونكين، الكونجرس لن يسمح لك بهذا، وأمريكا مازال لها دستور يحكمها!».

وأخرج «بيرد» من جيبه نسخة من الدستور!

وتوتر جو الاجتماع!

صورة!

فى الساعة الرابعة من مساء يوم ١٥ سبتمبر - دُعى مجلس الأمن القومى إلى اجتماع آخر، وبدأ «بوش» بإلقاء صلاة فتح بها المداولات (كما أخذ يفعل أخيرا) - وكان وزير الدفاع «رامسفيلد» هو الذى بدأ الكلام قائلا:

«مازلت مُصرًا على سؤال لم أتلق جوابا عنه - هل حربنا ضد القاعدة؟ - أم هى ضد الإرهاب عموما؟».

ورد «بوش» قائلا: «شعورى أن الولايات المتحدة يجب أن تبدأ بن لادن أولا - لأنه إذا جرى ضرب تنظيم القاعدة، فإن البقية تتداعى تلقائيا».

وعاد «رامسفيلد» إلى الكلام: «إننا لا نستطيع أن نقيم تحالفا دوليا ونحتفظ به على مجرد ضرب القاعدة، لأن ضرب القاعدة هدف محدود ويمكن أن يتلاشى سريعا، وعندئذ ينفك التحالف ضد الإرهاب بوهم أنه أدى مهمته».

وتدخل نائب الرئيس «تشينى» فى الحوار قائلا:

«إننى أريد أن أركز أكثر على قضية الدول التى ترعى الإرهاب، وأريد أن ألفت النظر إلى أن التركيز على «دول لها كيان واضح» أسهل من التركيز على جماعات ليست لها ملامح» - الدول التى ترعى الإرهاب «متجسدة»، والجماعات الإرهابية مجرد «أشباح»، وأظن أننا سوف ننجح أكثر فى العمل ضد «جسد»، ولا ننجح بالقدر الكافى ضد «شبح»».

وكان «بوش» هو الذى رد على نائبه قائلا:

«إننى متخوف من تشتيت عملنا، أظن أننا لابد أن نكون محددين أكثر حتى نحتفظ بتأييد الرأى العام، الناس فهموا أن القاعدة هى التى سببت لنا كل هذه الآلام فى الأيام الأخيرة، وهم ينتظرون منا أن نضرب فى هذا الاتجاه قبل أن نتحول إلى غيره - هذا التركيز على القاعدة أيضا مهم لأصدقائنا فى التحالف».

وعاد «تشينى» يجادل:

«إن تأييد العالم لنا مهم، لكنه لا يصح أن يقيد أيدينا عن التصرف، من حقنا أن نتصرف بمفردنا، المهام هى التى يجب أن تحدد التحالف، وليس التحالف هو الذى يحدد المهام».

وفجأة قال «رامسفيلد»:

«أليس من الضرورى أن نضرب العراق أيضا وليس القاعدة فقط؟ - العراق يمكن أن يكون هدفا متجسدا أمامنا، وقابلا للضرب على أساس أنه من رعاة الإرهاب - «صدام حسين» ليس شبحا وإنما هو بلد!».

أشار «رامسفيلد» إلى معاونين له يجلسون وراءه فى اجتماع مجلس الأمن القومى (وفيهم نائبه «بول وولفويتز» ورئيس لجنة التخطيط الاستراتيجى «ريتشارد بيرل»)، واستطرد: «كنا فى اجتماع البنتاجون ولم يكن هناك حول المائدة من لا يعتقد فى صميم قلبه أن «صدام حسين» خطر شديد لأنه مصمم على حيازة أسلحة دمار شامل يمكن أن تصل إلى يد الجماعات الإرهابية».

ويستطرد «رامسفيلد»:

«ضرب العراق يمكن أن يبدأ بسرعة، والخطط لدينا جاهزة».

وتدخل «كولين باول»:

«ضرب العراق الآن ليس مناسبا، والأنسب هو التركيز على «القاعدة»، والرأى العام الأمريكى مشحون هذه اللحظة ضد القاعدة، وتحويله إلى الاقتناع بعمل ضد العراق، سوف يكون صعبا، والإدارة تحتاج إلى تأييد الشعب الأمريكى، والشعب الأمريكى يريد منا عملا ضد القاعدة».

وجاء الدور على الرئيس الذى قال:

«موضوع العراق يحتاج إلى وقت، الآن نريد خطة عمل لتدمير تنظيمات الإرهابيين، وأريد على الفور قائمة بأسماء هؤلاء البلطجية، وأريد خطة لتعقبهم، إننى ألاحظ أن كثيرين يعودون بأفكارهم إلى أجواء حرب الخليج السابقة، ويقارنون بين الحالتين - المقارنة ليست الآن صحيحة والشعب الأمريكى ينتظر منّا ضربة كبيرة، ولابد أن أقنعهم بأننا بدأنا الحرب ضد الإرهاب، وأن القاعدة هى الخطوة الأولى، إننى أطلب عملا سريعا ضد الإرهاب، وقد بدأت أشعر بالإحباط!».

وقال «كولين باول»:

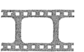
«إن هناك فرصا كبيرة للحرب ضد الإرهاب - ضد القاعدة وحتى طالبان، بطريقة تختلف عن تلك التى شنها السوفييت». ■

روى وزير الخارجية «كولين باول» لـ «بوب وودوارد» أن الرئيس يريد أن يقتل أحدا، وأنه رأى أمامه رجلا استيقظت لديه كل غرائز القتل من إحساسه بصدمة ما جرى فى نيويورك ومن تحرقه للانتقام لها مهما كان الثمن



رابعا: نحتاج إلى ضرب العراق!





صورة!

■ بعد أربعة أيام من الصدمة، وفى أول عطلة نهاية أسبوع تليها، وبالتحديد يوم ١٥ سبتمبر - دعا الرئيس «جورج بوش» أركان إدارته إلى اجتماع غير رسمى، لمناقشة أكثر هدوءًا فى منتجع «كامب دافيد»، وقد طلب من المشاركين فى الاجتماع أن يحضروه بملابس غير رسمية، حتى يكون اجتماعهم حوار زملاء وأصدقاء - صريحا مفتوحا - مرتاحا ووديا!

ودخل الرئيس نفسه إلى القاعة بقميص أزرق فتح ياقته، وفوقه جاكيت أخضر اللون، واتخذ مقعده وسط قاعة الاجتماعات المعدة فى المبنى المسمى «لوريل لودج»، وعلى يمينه جلس نائبه «ريتشارد تشينى» وعلى يساره جلس وزير خارجيته «كولين باول»، واصطف الباقون حول المائدة، ولاحظ وزير الخارجية أن وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» اصطحب معه نائبه «بول وولفويتز»، كما أن «جورج تنيت» مدير المخابرات المركزية اصطحب معه اثنين من مساعديه هما نائبه «جون ماكلولن» ومدير شئون العمليات فى إدارته «كوفر بلاك»، وأبدى «باول» دهشته قائلا: «إنه لم يكن يعرف أن مساعدى الوزراء مدعوون للاجتماع، وإلا لجاء معه بنائبه «ريتشارد أرميتاج»».

وفتح «بوش» الاجتماع بتلاوة الصلوات، ثم دعا وزير المالية للكلام عن تأثيرات الانهيار الذى حدث فى بورصات أمريكا للأوراق المالية، مبديا خشيته أن ذلك سوف يؤثر على كل الناس، خصوصا صناديق التأمين والمعاشات، وكلها تستثمر أموالها فى السوق، وعرض وزير المالية تقديره للأحوال.

ثم التفت «بوش» إلى وزير الخارجية «كولين باول» يدعوه لشرح مواقف دول التحالف، وقال «باول»:

إن وزارة الخارجية بدأت العمل على الفور - متواصلا وملحا - بادئة من نقطة ملخصها كما سمع من الرئيس «إن الهجمات على نيويورك يمكن اعتبارها فرصة لإعادة تشكيل العلاقات الدولية على مستوى العالم، والطريق إلى ذلك بناء تحالف دولى واسع لابد من إشراك أعضائه فى المعلومات والسياسات والأفكار، وقد اتصلت فى اليومين الأخيرين برؤساء خمس وثلاثين دولة، أشرح لهم أن ذلك لم يكن هجوما على أمريكا، ولكن هجوما على الحضارة ذاتها».

ثم انتقل الرئيس «بوش» إلى الكلام فى صُلب الموضوع الذى دعا الاجتماع فى كامب دافيد من أجله، واختار له هذا الجو المريح والهادئ، وكان سامعوه يصغون إليه عارفين أنه صوته - لكن أحدا منهم لم يكن واثقا أن لسان الرئيس ينطق بعقله، وإذا لم يكن فمن الذى قام بتلقينه الدرس - وعلى الأقل فقد كان واضحا للجميع أن «بوش» يتحدث بخليط مما عنده ومما عند غيره.

واستفاض «بوش» فى الكلام:

«الشعب الأمريكى يريد عملا كبيرا، مهولا، فرقعة عظيمة (استعمل «بوش» تعبير الانفجار العظيم Big Bang الذى يصف به علماء الطبيعة تلك اللحظة الهائلة التى انفجر معها خلق الكون).

لا أريد معركة واحدة، ولكن أريد حربا ممتدة يشعر بها الشعب الأمريكى ويتأكد أننا نواصل الدفاع عنه حتى أقاصى الأرض.

لا يهمنى اعتقال رجل واحد ولا اعتقال عدة رجال، وإنما يهمنى أن نتوصل إلى صيغة فعل تعطينا تفويضا مفتوحا للعمل حيث نشاء - لا يهمنى أن يحاول أحد منا أن **يضع حدودا وهمية على فعل القوة الأمريكية، أو حدودا مالية تقيد مجال عملها**».

....

....

[روى وزير الخارجية «كولين باول» لـ «بوب وودوارد» أنه:

«فى هذه اللحظة أحسست أن الرئيس يريد أن يقتل أحدا، رأيت أمامى رجلا استيقظت لديه كل غرائز القتل من إحساسه بصدمة ما جرى فى نيويورك ومن تحرقه للانتقام لها مهما كان الثمن»].

....

كان «بوش» مازال يواصل الكلام:

«ما أريده هو حرب تشد مشاعر الشعب الأمريكى، وتشد وراءه بقية العالم».

وأراد وزير الخارجية أن يستوضح بقصد التأكيد:

«الرئيس يقصد حربا على الإرهاب حتى تتم تصفيته».

وتدخل وزير الدفاع «رامسفيلد»:

«الحرب ضد الإرهاب بالمعنى التقليدى لها مواصفات، لا تخدم مطلبنا إلى النهاية:

أولا: لأنها حرب بطيئة، تأخذ وقتا، أى أنها لا تستجيب بسرعة لإحداث التأثير المطلوب.

وثانيا: لأنها حرب يصعب فيها تحقيق نتائج لافتة للنظر (Spectacular).

وثالثا: لأنها حرب لا تملك أن تركز على هدف محدد بالذات، لأنها ضد أشباح.. ضد ظلال.

ورابعا: لأنها بالنسبة لأهدافها على فرض التمكن من تحديدها، لا تسمح بمثل هذا الانفجار العظيم Big Bang الذى أشار إليه الرئيس».

وسادت لحظة صمت قطعه «بول وولفويتز» نائب وزير الدفاع بقوله:

«إن ما يطلبه الرئيس يمكن أن يتحقق فى حالة واحدة، هى حالة أن نوجه ضرباتنا إلى الدول الراعية للإرهاب، أو الدول الإرهابية، والعراق أول القائمة بوجود «صدام حسين» على رأسه!».

ولاحظت «كونداليزا رايس» أن وزير الخارجية «كولين باول» عاد برأسه إلى الوراء وقلب عينيه (كما يفعل عادة عندما يسمع ما لا يعجبه أو ما لا يقنعه!).

وكان «جورج بوش» - مرة أخرى! - هو الذى تولى الرد قائلا:

«إن «دون» (يقصد وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد») طرح موضوع ضرب العراق فى اتصال معى أمس، وقد رفضت الاقتراح لأسباب:

«صدام حسين» رجل سيئ، وهو خطر على جيرانه العرب وغير العرب، ولكنه خلال السنوات الأخيرة لم يفعل شيئا يستوجب البدء بعقابه ردا على ما حدث فى نيويورك، وليس عندنا ما يثبت صلته بما جرى، بحيث نستطيع تأسيس قضية ضده، لقد امتنع عن الشغب أخيرا، ليس لأنه رجل صالح، ولكن لأنه يحاول تفادى ضربات نوجهها إليه».

وهناك اعتباران:

أولهما: أننى لا أريد أن يتهمنا أحد بأننا نتحول إلى ملاحقة «صدام حسين» لأننا لم نستطع أن نمسك بغيره.

والثانى: أننى - كما تعرفون جميعا - أكره «صدام»، لكنى لا أريد أن يتصور أحد فى العالم أننى أطارده من باب الثأر الشخصى لأبى (My Dad)!

وتشجع الجنرال «هيوشيلتون» (رئيس الأركان الذى كان على وشك قضاء مدته بعد أسبوعين يسلم بعدها رئاسة الأركان إلى الجنرال «مايرز» الذى كان جالسا بجواره على مائدة الاجتماع)، وكذلك قال - كما نقل «وودوارد» عنه فى صفحة ٦١ بالحرف:

«إن هيئة أركان الحرب المشتركة لا ترى داعيا لإدخال العراق فى المعادلة هذه اللحظة المبكرة، ورأينا أنه يصعب ضرب العراق الآن إذا لم تظهر صلة مباشرة تكشف عن مسئولية «صدام حسين» مباشرة عن هجمات ١١ سبتمبر.

فوق ذلك فإن هيئة الأركان المشتركة ترى أن استهداف العراق يؤدى إلى إحراج دول عربية صديقة نريد دعمها فى حربنا ضد الإرهاب. ونحن نرى أن دعم هذه





الدول لجهودنا أمر حيوى، زيادة على ذلك فإن استهداف العراق الآن كفيل بأن يوقف مسيرة عملية السلام فى الشرق الأوسط، ونحن نرى استمرارها ضروريا قبل البدء فى ضرب العراق».

....

....

[يقطع «بوب وودوارد» سياق روايته لوقائع الاجتماع ليقول: «إن «كولين باول» كان قد سبق له أن تحدث مع الجنرال «شيلتون» فى اليوم السابق، ولفت نظره إلى أن هناك مجموعة من المستشارين (أولهم «وولفويتز» و«بيرل») يرونها فرصة سانحة لضرب العراق، حتى إذا لم تكن هناك أسباب تتعلق بالحملة ضد الإرهاب»، وأنه قال للجنرال «شيلتون» أثناء هذا الحديث «إن هذه المجموعة أصبحت فالتة فى تصرفاتها، ومن الضرورى إعادتها بسرعة إلى الصف وإبقاؤها فيه، لأن تحديد الأولويات بحزم ألزم الضرورات للسياسة الأمريكية الآن، ورد عليه الجنرال «شلتون»: «إنه متفق بالكامل مع ما يقوله»].

....

....

وتساءل الرئيس «بوش» موجها كلامه إلى الجنرال «شيلتون» سائلا:

«ما هى الإمكانيات الموجودة لدينا لضرب «بن لادن» وحكومة طالبان إذا لم يقوموا بتسليمه لنا؟».

ورد الجنرال «شيلتون»:

«إنه يخشى أن تقديراته فى هذا الميدان سوف تكون «متشائمة»، بمعنى أنه ليست لدينا (البنتاجون) خطط جاهزة للعمل فى أفغانستان، كل ما لدينا هو ضربات موجهة بصواريخ كروز، وهذه عملية لن تُحدث إلا حفرا على سفوح الجبال وليس أكثر!».

وتدخل وزير الدفاع «رامسفيلد» قائلا:

«إن القوات المسلحة الأمريكية تحتاج إلى مراجعة لمهامها إزاء ظروف متغيرة، وكان يمكن لها أن تكون أقدر على الاستجابة، إذا كان التوجيه إليها استهداف الدول التى تناصر «بن لادن»، لأنها هناك تستطيع أن تجد عدوا متجسدا توجه له ضرباتها، عدو حقيقى يملك أهدافا يمكن ضربها، وعدوا لا يظهر حين يشاء ويختفى حين يشاء، يفاجئنا بتوجيه ضرباته إلينا ويختفى حين نطارده بالعقاب».

وأحس الرئيس «بوش» (كما قال لبوب وودوارد) - «أنه ربما ظلم وزارة الحرب الأمريكية لأنه لم يترك لها فرصة كافية للتفكير والتخطيط فى ظروف متغيرة»، وهكذا وجه كلامه للجنرال «شيلتون» قائلا:

«أريد من هيئة الأركان المشتركة أن تعرف أننا أمام عالم جديد، وعلى الجنرال «شيلتون» أن يعود - الآن - إلى هيئة أركان حرب ويدرس معها الاحتمالات والممكنات المطلوبة لضبط أمور هذا العالم الجديد، إننى أريد خطة كاملة، وأريد توقيتات محددة، وأريد أن تكون لدى فكرة عن الثمن الذى لابد أن ندفعه، أريد خيارات واسعة، أريد قرارات عاجلة تواجه أحوالا طارئة، أريد شيئا مؤثرا، شيئا دراميا يلفت الأنظار ويشد!».

....

....

طوال الشهور التالية بعد سبتمبر ٢٠٠١، يتابع «بوب وودوارد» فى كتابه تطورات الحرب على «بن لادن» - وعلى حكومة طالبان - وعلى اتساع أفغانستان - من خلال اجتماعات «بوش» مع مستشاريه، سواء فى المكتب البيضاوى للرئيس، أو فى قاعة اجتماعات مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض.

ثم يستفيض فى الحديث عن الطيران الأمريكى وقواعد الصواريخ الثابتة أو المتحركة فى البحر الأبيض والبحر الأحمر والخليج العربى، وكيف راحت تصب نيرانها على جبال أفغانستان، ويتابع مندوبى المخابرات المركزية يسلمون حقائب الدولارات بالملايين لزعماء القبائل والطوائف - لكن النتائج « لا تزال غير كافية»، لأن «أسامة بن لادن» وأعوانه اختفوا فى الظلال ولم يظهر لهم أثر، وانفكت دولة طالبان، وتحفزت قوات التحالف الشمالى الذى تشرف عليه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تحاول إقامة حكومة جديدة فى أفغانستان، وتجرى اتصالات بملك أفغانستان العجوز «محمد ظاهر شاه» الذى اختار العاصمة الإيطالية منفى اختياريا له ومقاما، حتى يعود إلى وطنه ليرأس اجتماعا قبليا «لويا جيرجا»، تحضره الفرق المتنازعة فى أفغانستان، لأن البلد كله يوشك بعد الفوضى العارمة التى اجتاحته أن يسقط فى هاوية حرب أهلية تحول أديانه القمعية وسط الجبال الشاهقة إلى بحيرات دم أسود بأحقاد الثأر والطمع.

لكن ذلك كله مما يتابعه «بوب وودوارد» ويرصده لا يزال بعيدا عن تحقيق رغبات الرئيس «بوش»، خصوصا أن الجنرال «مايرز» (رئيس أركان الحرب الجديد) لم يتوان لحظة عن لفت الأنظار إلى «أن القوات الأمريكية لم تجد فى طول أفغانستان وعرضها غير تسعة أهداف فقط تستحق الضرب، وهذه الأهداف التسعة تم ضربها فعلا، ولم يعد باقيا شىء، لدرجة أن الضربات الآن توجه إلى ما سبق ضربه وسلاح الدمار ينصب الآن على ما تم بالفعل تدميره.

ويروى «بوب وودوارد» أن القوات الأمريكية التى وصلت إلى أفغانستان، وراحت تطل على ذلك البلد عن قرب - روعها أن الناس هناك يحتاجون إلى الطعام قبل الصواريخ، وفى لحظة من اللحظات رَقَّ قلب الرئيس «بوش»، وتذكر رسالته المقدسة ليقول: «علينا أن نحاول تخفيف آلام هؤلاء الناس، دعونا نضربهم بطرود الطعام»، ثم استدرك بسرعة: «لكنى أريد حريقا هائلا من النيران يتحقق به التطهر، وعندها يكون الغفران لأننا جميعا أبناء الله».

ثم يعود الرئيس الأمريكى كى يلح على «أنه لم يحصل بعد على «الانفجار العظيم» الذى أراده وطلبه!».

وينتقل «بوب وودوارد» بالتفاصيل إلى كواليس البيت الأبيض، حيث تبدأ مجموعة مستشاريه داخل هيئة البيت الأبيض فى القلق، ومبعث القلق عدة أسباب:

١ - الحملة فى أفغانستان يمكن أن تنتهى - دون أن يحقق الرئيس «بوش» ذلك العمل الدرامى الذى يأمل فيه.

٢ - وإذا مضت الأمور على هذا النحو «الفاتر»، فمن المشكوك فيه أن يستطيع الرئيس «بوش» أن يقود حزبه فى انتخابات التجديد النصفى (نوفمبر ٢٠٠٢) إلى انتصار ضد الديمقراطيين، وقد يفقد الحزب الجمهورى أغلبيته الضئيلة (وهو صوت واحد) فى مجلس الشيوخ.

٣ - وإذا حدث ذلك فإن ترشيح الحزب لبوش لمدة رئاسة ثانية (سنة ٢٠٠٤) قد يتأثر، كما أن فوزه أمام مرشح ديمقراطى («آل جور» - أو «هيلارى كلينتون» - أو أى حصان أسود يظهر فجأة ليتقدم صفوف الحزب الآخر) - قد يصبح موضع شك، خصوصا أن ما جرى فى الانتخابات الرئاسية السابقة يصعب تكراره لاحقا.

وعليه فإن القضية لم تعد الإرهاب، ولا «بن لادن»، ولا أفغانستان، وإنما هى مستقبل الرئيس وسجِلّ إدارته.

وهكذا ينتقل مركز الثقل فى القرار الأمريكى إلى هيئة مستشارى البيت الأبيض، وفيها ثلاثة رجال وامرأة:

الرجال هم: «أندرو كارد» (رئيس أركان البيت الأبيض) - و«كارل روفى» (كبير مستشاريه للشئون السياسية الداخلية) - و«آرى فليشر» (المتحدث الصحفى باسمه).

والمرأة هى السيدة «كارين هيوز» المسئولة عن العلاقات العامة (بما فيها المكتب الخاص المكلف بإعداد خُطب الرئيس)].

....

....

صــورة!

مع بداية الفصل الخامس عشر من كتابه (صفحة ٢٠٥)، يصل «بوب وودوارد» فى روايته إلى حيث يقول:

تحدث الجنرال «مايرز» رئيس الأركان قائلا: «لم تجد القوات الأمريكية فى طول أفغانستان وعرضها غير تسعة أهداف تستحق الضرب، وتم ضربها فعلا، ولم يعد باقيا شىء، لدرجة أن الضربات توجه إلى ما سبق ضربه وسلاح الدمار ينصب الآن على ما تم بالفعل تدميره



صباح يوم الأحد ٧ أكتوبر، كان «كارل روفى» (كبير مستشارى الرئيس للشئون الداخلية) فى بيته شمال غرب واشنطن، لقد انقضت أسابيع منذ وقعت هجمات ١١ سبتمبر، ولم تكن تلك بالنسبة لهذا الرجل فترة سعيدة، لقد عرف «جورج بوش» (الابن) أثناء عمله السابق مع والده، وأصبح مستشاره الانتخابى عندما طرح ترشيح «دوبيا» للرئاسة جديا، ولم يكن «روفى» قد حضر أيا من اجتماعات رئيسه مع كبار أعضاء إدارته من الوزراء، ولا شارك فى اجتماعات مجلس الأمن القومى، وسبب استبعاده أن الرئيس «بوش» ونائبه «تشينى» توافقا على أنه ليس من المستحسن مشاركة مسئول عن السياسة الداخلية فى اجتماعات إدارة الأزمات الدولية أو مجلس الأمن القومى المخصصة للحرب ضد الإرهاب، لأن ذلك خلط بين «الخارجى والداخلى»، فتلك هى التقاليد، ومخالفتها الآن قد تعطى إشارات خاطئة.

وكان «روفى» يتفهم ذلك، لكنه يوما بعد يوم أخذ يقتنع ويزيد اقتناعه بأن القرارات السياسية المهمة أوشكت أن تتداخل مع الاعتبارات المباشرة والحيوية التى تخص مستقبل «بوش» وإدارته، وكان ذلك التداخل يلح عليه بصرف النظر عن حرب أو لا حرب، واعتقاده الراسخ الآن أن الحكم على «بوش» فى فترة رئاسته الأولى وفرصته الرئاسية الثانية - سوف يتأثر سلبا وإيجابا بما جرى يوم ١١ سبتمبر وبما يجرى بعده.

كان «روفى» يعتبر نفسه «مهندس» نجاح «بوش» فى انتخابات الرئاسة سنة ٢٠٠٠. وكان قد دعا يوم الجمعة ٥ أكتوبر إلى اجتماع فى مكتبه، لاحظ فيه المجتمعون أن شعبية «بوش» قد وصلت إلى الذروة، ولامست نسبة ٩٠٪ (وفق استطلاعات وكالة A.B.C وجريدة الواشنطن بوست معا).

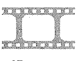
وقد علق «روفى» على هذه الأرقام بقوله:

«إن هذه النسبة مزعجة بمقدار ما هى مريحة، والسبب أن دراسة التجارب السابقة تشير إلى أن ارتفاع شعبية أى رئيس إلى هذا الحد سوف يتبعها فى ظرف أسابيع قليلة هبوط ضرورى - صغير أو كبير - ذلك يتوقف على الظروف كما حدث فى تجربة «جورج بوش» (الأب)، والآن (الجمعة ٥ أكتوبر) قرر «كارل روفى» أن يذهب إلى مقابلة الرئيس (الابن) قبل أن تنقله الهليوكوبتر إلى «كامب دافيد» لعطلة نهاية الأسبوع، وقصده أن ينبهه مبكرا إلى الاحتمالات، وبالفعل فقد لحق به فى مكتبه يقول له: «إنه فى وقت حرب الخليج (الكويت) سنة ١٩٩١، وصلت شعبية والده إلى ٨٢٪، لكنها فى ظرف ثلاثين أسبوعا تراجعت إلى نسبة ٥٩٪، ثم ظلت تتراجع حتى خسر معركة الانتخابات وفاز «بيل كلينتون»».

وحاول «بوش» (الابن) أن يتظاهر بعدم الاهتمام، فقال لرئيس أركان البيت الأبيض:

«لا تضيع وقتى بمثل هذه الأرقام لأنها مزاجية، وأنا أعتبرها بمثابة وضع أصبع على النبض لقياس سرعته فى أوقات يتغير فيها الشعور العام فى ظرف ساعات قليلة».

لكن «روفى» كان يعرف عن اهتمامات رئيسه بأكثر مما يدعى به الآن، فهو من تجربته يرى «بوش» يصرف وقتا طويلا كل يوم فى متابعة قياسات الرأى العام، ويحصى أرقامها ولاية بعد ولاية!



صورة!

وانتظر «كارل روفى» عدة أسابيع ثم قرر على مسئوليته أن يحاول استطلاع الحقائق بشأن ما يجرى، ومع أنه يتابع أخبار الضرب الذى بدأ فى أفغانستان، فإنه يشعر على نحو ما أن الأمور ليست على الطريق الصحيح - من وجهة نظر انتخابية على الأقل وذلك ما يهمه - وكذلك ذهب بنفسه إلى مقابلة وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» يسأله عن سر هذا الفتور فى إيقاع الحوادث، ورد عليه «رامسفيلد»:

«لأن الأهداف فى أفغانستان انتهت، لم تعد هناك أهداف نضربها، لم تكن فى أفغانستان من الأصل أهداف تستحق الضرب!».

وسأله «كارل روفى»: «إذن فكيف نواصل الحرب؟».

ورد عليه «رامسفيلد» بسؤال: «قل لى كيف يمكن أن نكسب حربا لا نستطيع فيها أن نركز على عدو؟!».

وأبدى «روفى» هواجسه من العواقب السياسية لهذا الفتور فى وتيرة حرب لم تعد لها أهداف تركز عليها، ورد عليه «رامسفيلد» بقوله:

«إنهم لا يريدون أن يأخذوا أية مخاطر.. لا تفعل شيئا ولن يلومك أحد، تحرك لتفعل شيئا وسوف يحصون عليك الأخطاء، وأنا شخصيا مستعد لاحتمال التبعات، لكن المهم أن نتحرك».

واستطرد «رامسفيلد»:

«هناك نقطة سوف يتحتم علينا عندها أن نقوم بشىء ما فى مكان آخر من العالم، مكان آخر غير أفغانستان، ذلك ما قلته وكررته، ومازلت أقوله وأكرره، لكن هناك من لا يريدون أن يسمعوا، لابد أن نوجه ضرباتنا بعد الآن إلى الدول الراعية للإرهاب، الدول الإرهابية.. العراق أولها - «صدام حسين» ليس له صديق فى العالم يدافع عنه حتى فى روسيا وفى الصين، وهو رجل يصعب على أحد أن يقول كلمة طيبة فى حقه».

ثم يزيد:

ليس لدينا - على أى حال - نقص فى قائمة هذه الدول: هناك إيران، سوريا، السودان، ليبيا، وبالطبع كوريا الشمالية.

وتنعقد فى البيت الأبيض اجتماعات ومناقشات وبحث عن خيارات تبدو ممكنة أو حتى مستحيلة، وحلت لحظة تلاقت فيها الضرورات الانتخابية للرئيس، مع الرغبات الملحة للجناح الإمبراطورى فى الإدارة («ريتشارد تشينى»، «دونالد رامسفيلد»، «ريتشارد بيرل»، «بول وولفويتز»، وغيرهم..).

لكن كتاب «بوب وودوارد» بلغ نهايته، والقرار معلق فى الهواء!

خامسا: عندما حلت بغداد محل كابول!

يجىء الدور الآن على صورة أخيرة هى الختام الحقيقى لما كتبه «بوب وودوارد»، مع أنها ليست واردة فى كتابه «بوش فى حرب»، وإنما جاء بها كتاب آخر غيره وهو كتاب «الرجل المناسب» The Right Man، وذلك مرجع مهم لأن صاحبه وهو «دافيد فروم»، كان واحدا من فريق «كارين هيوز» (مستشارة العلاقات العامة للرئيس ومسئولة المكتب الخاص المكلف بكتابة خطبه).

كان «دافيد فروم» محررا مرموقا فى جريدة «وول ستريت جورنال» تميز بقدرته على صياغة الأفكار المعقدة فى عبارات مبسطة، ولذلك فإن «كارين هيوز» بمشورة من مساعدها «مايكل جيرسون» طلبته للعمل فى البيت الأبيض - حتى تستفيد من مواهبه فى كتابة خطب الرئيس «جورج بوش».

وهنا تظهر الصورة الأخيرة - وهى خطيرة - وتستحق أن تتوقف سرعة عرض الكتاب عندها - ابتداء من صفحة ٢٢٤ من كتاب «دافيد فروم» عن «الرجل المناسب» (وهو يقصد «جورج بوش»!).

ويبدأ الفصل الثانى عشر (صفحة ٢٢٤) على النحو التالى:

فى أواخر ديسمبر سنة ٢٠٠١، اتصل بى (فى مكتبى بالبيت الأبيض) كبير كُتاب خطب الرئيس وهو «مايكل جيرسون» (المساعد الرئيسى لكارين هيوز) قائلا لى:

«عندى اليوم مهمة تتعلق بخطاب الرئيس السنوى عن «حالة الاتحاد» (يلقيها أواخر شهر يناير ٢٠٠٢) - فهل





نستطيع الاعتماد عليك فى صياغة فقرة أو فقرات تكفى لشرح الأسباب التى تدعونا إلى تقصد العراق (Going after Iraq).

يواصل «فروم» روايته فيقول:

«كان واضحا لى أن طلب «جيرسون» منى هو كتابة الفتوى التى تبرر حربا على العراق توضع فى سياق خطاب الرئيس عن «حالة الاتحاد» (آخر يناير ٢٠٠٢).

يستطرد «فروم»:

«فهمت مقصد «مايكل جيرسون»، وسألته هل يستطيع أن يعطينى مهلة إلى ما بعد الغد أتقدم بعدها إليه بمشروع صيغة يمكن قبولها؟ - ورد على «مايكل جيرسون» بقوله: «شانك غريب، أنت تحتاج إلى يومين كاملين لكى تتوصل إلى صيغة يفتح بها الرئيس هذا الملف».

فهمت وأدركت على الفور أن قرار الحرب ضد العراق قد اتخذ، وأن صياغة أكثر الفقرات حساسية وخطورة فيه قد أوكلت إلىّ، وكنت أعرف أن هناك مجموعة من خمسة غيرى فى مكتب العلاقات العامة يعكفون على كتابة مشروع الخطاب، كل واحد منا يكتب جزءا، ثم يسلم كل منا ما توصل إليه إلى «مايكل جيرسون» الذى يعيد «تحريره» لتوحيد الأسلوب، ثم يعطيه لكارين هيوز (مسئولة العلاقات العامة)، تراجعه وتضيف إليه لمساتها، بحيث يصبح جاهزا للعرض على الرئيس ومستشاريه السياسيين.

(وفى العادة فإن كُتّاب خُطب الرئيس لديهم ما هو كاف من التوجيهات والمعلومات والتقارير ومحاضر الجلسات، بحيث يكتب كل واحد منهم ما هو مُكَلَّف به وتحت يده مادة تكفيه) - وقد شرح «فروم» طبيعة هذا العمل الذى يقوم به حتى وصل إلى صفحة ٢٣١، لكى يركز على تناوله لمسألة العراق، وكيف فكر فى مقاربتها بصياغة فقرة - أو فقرات - عنها فى خطاب الرئيس «جورج بوش» عن «حالة الاتحاد» أمام الجلسة السنوية المشتركة لمجلس الكونجرس - فيقول:

«سألت نفسى من أين أبدأ:

من السهل جدا تبرير حرب على «صدام حسين» لأنه أسوأ من يمكن أن نلقاهم على طول المسافة من الجزائر إلى كابول، لكن المشكلة فى هذه النقطة أن رئيس الولايات المتحدة لا يصح له أن يتحدث عن التاريخ القديم لصدام حسين، (لأنه لا مجال لحسابه الآن عنه بعد السكوت الطويل عليه)، ثم إنه (الرئيس) لا يستطيع أن يتحدث عن التاريخ القريب (وإلا بدا ذلك نقدا للإدارات السابقة التى سكتت على ما فعل ولم تحاسبه)، ونحن لا نريد أن نوجه لوما إلى إدارة سبقت لأننا فى شأن الحرب نفضل سياسة تعلو على أى خلافات حزبية، لأننا فى قرار الحرب نريد وفاقا بين الحزبين.

وإذن فأنا لا أستطيع استعمال هذه الحجة.

انتقلت إلى التفكير فى ذريعة أخرى: لقد قرأت كثيرا عبارة أن «صدام حسين» استخدم الأسلحة الكيماوية ضد الأكراد فى العراق، أى ضد شعبه، لكننى لو استعملت هذه الذريعة فى الخطاب فإن أعضاء الكونجرس وأفراد الشعب قد يتساءلون «وأين كنا منذ حدث ذلك، وهو سؤال وجيه - لكنه مرة أخرى سوف يُلقى اللوم على الذين سكتوا عن هذا العمل الشنيع، خصوصا أن «بوش» (الأب) كان فى البيت الأبيض حينها نائبا للرئيس «ريجان»)، وإذن فإن الذريعة الثانية لا تصلح لتأسيس خطاب عن ضرورة الحرب مع العراق.

وصلت فى التفكير إلى تهمة محاولة اغتيال «بوش» (الأب) أثناء زيارته للكويت سنة ١٩٩٣، لكنى عدلت عن هذه الذريعة مرة ثالثة، لأن أى كاتب من الدرجة الثالثة يستطيع أن يجد فيها مجالا لاتهام الإدارة بأنها تسعى للثأر الشخصى (Omerta) على طريقة عصابات المافيا.



يستطرد «دافيد فروم» (صفحة ٢٣٢) قائلا:

«فى بعض الأحيان يكون أفضل أسلوب للبحث عن مدخل لخطاب سياسى، هو التفتيش أولا عما يحتمل أن يقوله «الخصوم» الذين يعارضونه. وفى حالة العراق تُثار دائما نقطتان:

الأولى: أنه لم تثبت لصدام حسين صلة بحوادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فلماذا نعاقبه؟

والثانية: أن «صدام حسين» ديكتاتور طاغية، لكن «ستالين» كان كذلك أيضا، ونحن لم نحاربه، وإنما اكتفينا باحتواء الاتحاد السوفيتى، فلماذا نشهر على «صدام حسين» حربا لم نقم بها ضد «ستالين»، إلا إذا اعترفنا أن قوة الاتحاد السوفيتى ردعتنا، فى حين أن ضعف العراق يغرينا!».

يستطرد «فروم»:

«كنت أعرف أننا نريد تغيير النظام فى العراق، لكن ظنى أن الرأى العام سوف يتساءل - هل نظام «صدام حسين» وحده هو الذى يستحق التغيير؟، وإذا كنا سنغير المنطقة كلها، إذن فنحن نتحمل بعبء لم تتحمله الإمبراطوريات التى حكمت المنطقة من الرومان إلى آل عثمان!».

يعود «فروم» إلى طرح أفكاره بينما هو منشغل بإعداد ما يخصه فى خطاب الرئيس:

«إن الرئيس يحتاج - باعتباره الرئيس - أن يقول شيئا واضحا يربط «صدام حسين» بمستقبل استقرار السلام فى العالم، بحيث يظهر أن المطلوب هو تصفية الخطر على هذا المستقبل وليس مجرد ردعه!».

توصلت من هنا إلى فكرة رئيسية مؤداها «أن ضرب «صدام حسين» جزء من مواجهة المخاطر التى تهدد سلام العالم»، لأنه أول الشرور.

يواصل «فروم»:

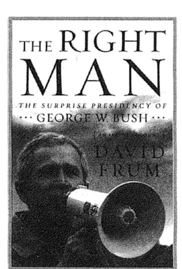
توصلت إلى صياغة حول ما فكرت فيه وعرضتها على «مايكل جيرسون» وعلى «كارين هيوز»، وقد جلسنا لمناقشة الصياغات النهائية لأجزاء الخطاب فى مكتب «كونداليزا رايس» (مستشارة الأمن القومى للرئيس)، وكان عليها أن تراجع نصه الأخير قبل أن ندخل به إلى المكتب البيضاوى.

وقد أعجبت «كونداليزا رايس» بالصيغة التى اقترحتها، ورأت أنها تتسع لآخرين بينهم إيران، وأضافت «نحن نريد إيران كذلك»!

يستطرد «فروم»:

ودارت مناقشة بدا فيها أن أول بلدان فى طابور الشر: العراق وإيران، بلدين إسلاميان، وذلك يمكن أن يولد حساسيات لا نريدها فى العالم الإسلامى، واقترح «جيرسون» أهمية إضافة دولة ثالثة غير إسلامية، وقالت «كوندى»: «كوريا الشمالية!»، وعقبت قائلة: «إذن فإن الثلاثة معا أصبحوا محورا للشر، ولا داعى لأن نقول من الآن أن الشر طابور طويل» - وهكذا جرت ولادة تعبير «محور الشر»، وقد أسعدنى أن الرئيس «بوش» قرأ الفقرة المتعلقة بالعراق فى خطابه كما كتبتها نهائيا - لم يغير فيها حرفا!

وعندما أذيع خطاب الرئيس عن «حالة الاتحاد»، كان العنوان الذى قدم له على شاشات التليفزيون وعلى الصفحات الأولى لكل وسائل الإعلام الدولى هو: «محور الشر!».



BUSH
AT WAR
BOB
WOODWARD

عندما أذيع خطاب الرئيس عن «حالة الاتحاد»، كان العنوان الذى قدم له على شاشات التليفزيون وعلى الصفحات الأولى لكل وسائل الإعلام الدولى هو: «محور الشر!»



....

....

[كذلك حكى «دافيد فروم» فى كتاب «الرجل المناسب»، وجاءت حكايته واضحة لا تقبل التباسا أو شكا].

....

....



وهنا يثور سؤال:

«ما الذى يدعو أحد كتاب خطب رئيس الولايات المتحدة إلى رواية هذه التفاصيل عن دخائل عمله؟».

والسبب يساوى وقفة أخيرة يتطرق إليها «فروم»، ويروى وقائعها على النحو التالى:

«لقد حدث أن خطاب الرئيس عن «محور الشر» لقى استحسانا واسعا لدى الرأى العام فى الولايات المتحدة، وأصبحت عبارة «محور الشر» حديث الناس فى كل محفل، وكانت زوجة «دافيد فروم» سعيدة، وكذلك فإنها كتبت لأمها رسالة إليكترونية تقول فيها «إن زوجها «دافيد» هو الذى صاغ هذا التعبير فى خطاب الرئيس، وهو سعيد جدا بهذه الدرجة العالية من القبول العام».

وتسرب الخبر إلى صحفى معروف «روبرت نوفاك»، فأشار إليه فى بند لا يزيد على ثلاثة سطور ضمن عامود يكتبه.

وظهرت الواشنطن بوست فى الصباح، وعند الظهر كان «دافيد فروم» يتلقى دعوة عاجلة من رئيسه «مايكل جيرسون» (كبير كُتَّاب خطب الرئيس)، الذى أبلغه بلهجة مقتضبة وملامح عابسة: أولا ـ أن الرئيس لا يريد «تسريبات» تفشى للصحف عما يجرى فى البيت الأبيض لأن تلك كانت «المصيبة» فى رئاسة والده. وثانيا ـ فإنه ليس من حق كُتَّاب خطب الرئيس (ولا زوجاتهم) أن يتحدثوا عن أسرار عملهم، مهما كانت دوافعهم إلى ذلك، وعليه ولسوء الحظ «يا عزيزنا دافيد» فإن هذا اليوم هو آخر أيامك فى البيت الأبيض!.

وخرج «دافيد فروم» من البيت الأبيض عائدا إلى عمله الأصلى فى جريدة «وول ستريت جورنال»، وتذكر أنه بالدرجة الأولى صحفى محترف، وقرر أن يكتب حكايته مع عقل الرئيس (يقصد «كارل روفى»)، ومع صوت الرئيس (يقصد كُتَّاب خطبه)!».

....

....

[وهكذا فإن اثنين من الصحفيين فى واشنطن سجلا على الورق ما رأيا وسمعا.

■ «بوب وودوارد» الذى عرض خلفيات ولمحات وشريط صور تحكى وتستفيض.

■ و«دافيد فروم» الذى قدم مشهد الختام فى لعبة الأقنعة، حين جرى استبدال صورة الشيخ «أسامة بن لادن» (الظل ـ الشبح القادر على الاختفاء فى الظلال) ـ بصورة الرئيس «صدام حسين» (الجسد الذى يمكن أن يُطال ويُضرب حتى يتحول إلى أشلاء وسط أنقاض).

....

....

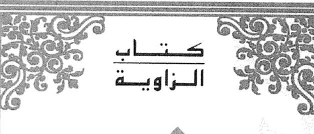
[لم تكن فى حسابات البيت الأبيض تلك اللحظة أسلحة دمار شامل يملكها النظام فى العراق ويُراد نزعها منه، ولم يكن فى الحسابات ديكتاتورية تخنق شعب العراق ويُراد كسر قبضتها عن رقبته، ولم تكن هناك ديمقراطية وحرية غابت عن أرض العراق فجأة ويُراد لها أن تشرق مع الربيع الجديد، ولم تكن هناك صلات بتنظيم القاعدة وخلاياها الإرهابية المنتشرة فوق سطح الكرة الأرضية ويُراد تصفيتها ضمن الحملة العالمية على الإرهاب.

كل ذلك لم يكن فى الحساب، ولا كان مما يمكن أو يصح انتظاره، لأنه مخالف لطبائع وحقائق الأشياء، والواقع والصحيح أنه كانت هناك أحوال إنسانية، وصراعات سياسية، ومطالب إمبراطورية، وضرورات بترولية، ولوازم انتخابية، وكله يتداخل ويختلط فى وعاء طبخ القرار الأمريكى، وكل طبق يحتاج إلى محسنات للطعم ولمسات جمال على الشكل ترضى الذوق وتفتح الشهية، وعندها تجىء لحظة إضافة المغريات من نوع «نزع أسلحة الدمار» و«إبعاد الديكتاتورية» و«ضمان حقوق الإنسان» و«مستقبل الديمقراطية»!]. ■

....

....





كتاب الزاوية



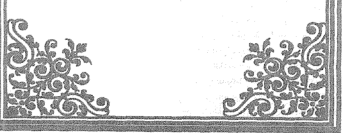
قوانين حقوق الإنسان

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حدث تقدم ملحوظ نحو تبنى الاتفاقيات والمعاهدات الخاصة بحقوق الإنسان الدولية منها والإقليمية والانضمام إليها، بالإضافة إلى إنشاء آليات التنفيذ. وجاء رسوخ ثقافة احترام حقوق الإنسان فى كافة أرجاء العالم نتاجًا للتطور التاريخى الذى شهده العالم ولتأثير القيم النابعة من الأديان.

ويقول الدكتور شريف بسيونى أستاذ القانون ورئيس المعهد الدولى لقانون حقوق الإنسان فى جامعة دى بول بشيكاغو فى مقدمة كتاب «الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان».. المجلد الأول، دار الشروق ٢٠٠٣: إن الفضل فى تطور القانون الدولى لحقوق الإنسان وآلياته وتطبيقه ووسائل تنفيذه عبر العالم يرجع إلى المنظمات غير الحكومية وبعض الحكومات المعنية بحقوق الإنسان والأمم المتحدة وكذلك المنظمات الإقليمية.

ورغم الانتهاكات الكثيرة والمتعددة للقوانين الخاصة باحترام حقوق الإنسان إلا أن السنوات القليلة الماضية شهدت اهتمامًا شعبيًا عالميًا بأهمية تطبيق هذه القوانين وانعقاد مؤتمرات عديدة تطالب الحكومات باحترامها والقوى المتحاربة بالالتزام بقوانين حقوق الإنسان الخاصة بالحروب.

وقد رأت مجلة «الكتب.. وجهات نظر» أن تنشر بعض نصوص من المواثيق والإعلانات والاتفاقيات الخاصة باحترام حقوق الإنسان مشاركة منها فى تشجيع الاهتمام الشعبى بهذه الحقوق التى لم تعد بأى حال من الأحوال أشياء كمالية بل جزءًا لا يتجزأ من حياة الإنسان وكرامته.



أمـــن إســـرائيل

عـــزمـي بشـــارة



قدمت الورقة موضوع هذه القراءة المطولة يوم ٨ يوليو ١٩٩٦ إلى رئيس حكومة إسرائيل بنيامين نتنياهو فى أعقاب انتخابه لرئاسة الحكومة الإسرائيلية وهزيمة شمعون بيرس بعد مقتل رابين. واكتسبت هذه الورقة أهمية إعلامية بأثر رجعى إبان الإعداد للعدوان على العراق حين أكدت ضرورة أن تدعم إسرائيل الحرب على العراق، أولاً: كخيار أمريكي، أى فى إطار السياسة الداخلية الأمريكية، وثانياً: كخيار استراتيجي إسرائيلي يكتسب أهمية قائمة بذاتها بالنسبة لإسرائيل، مما جعل الحرب تبدو كأنها حرب بالأصالة عن أمريكا وبالنيابة عن إسرائيل. وقد اكتسبت أهمية بأثر رجعى لأنه حين كتابتها بدت الورقة خارجة عن السياق التاريخي. فى ظل سياسة إدارة كلينتون الخارجية.

ولكن رغم ما يبدو ويظهر للوهلة الأولى من محدودية أهمية أو فاعلية الورقة سياسيًا، إلا أن الورقة تصلح للقراءة كنموذج لتحول حقيقى جار فى اليمين الأمريكي، كما أنها صورت وجسدت تطابقا بالمفاهيم مع اليمين الإسرائيلي المتطرف، كما عكست تحولاً حقيقياً فى اليمين الإسرائيلى ذاته تم تجاهله فى حينه مع انتشار الاعتقاد الخاطىء أن انتصار باراك على نتنياهو فى العام ١٩٩٩ كان انتصاراً لليسار.

على كل حال نحن لا نرى أن للورقة أهمية قائمة بذاتها ولا نوافق على منح كتابها أهمية شخصية أو قدرات خارقة على التحكم بسياسة الولايات المتحدة الأمريكية عالمياً. فأبرز كتابها وأحد أهم رموز اليمين الأمريكي فى الإدارة ورموز المحافظين الجدد عمومًا منذ مرحلة ريجان، ريتشارد بيرل، اضطر للاستقالة من منصب رئيس مجلس الدفاع، وهى هيئة مدنية نصف رسمية تعين من قبل وزير الدفاع كهيئة استشارية للبنتاجون.

وقد استقال بيرل على إثر حملة «النيويورك تايمز» عليه لوجود تعارض بين علاقاته مع الشركات المنتجة للسلاح ووجوده فى هذا المنصب شبه الرسمي. وهى علاقة من النوع الذى كان ينبغى أن يدفع تشيني، نائب رئيس الولايات المتحدة، نفسه للاستقالة. وجاءت الاستقالة فى بداية الحرب مع تعرض خطة البنتاجون إلى مفاجآت جعلت بعض العرب يتحمس أو يعوم على شبر ماء ليفسر استقالته كنتيجة لـ«فشل» الخطة، وكان الخطة الأمريكية العسكرية قد فشلت.

تنبع أهمية الورقة من أهمية الأفكار الواردة فيها والتى تعكس أيديولوجية عقائدية متماسكة فى السياسة الخارجية ما لبثت أن تحولت عندما سنحت الظروف إلى أساس نظرى حقيقى يعكس تطابق الرؤية الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

وكلما ذكرت هذه الوريقة تثور فى نفوسنا تصورات حول خطة مؤامراتية قام بها بضعة أفراد لاختطاف السياسة الخارجية الأمريكية، والحقيقة أن التحول فى السياسة الأمريكية فى مرحلة القطب الواحد أدى إلى تبنيها تدريجياً، ثم إلى تحقق هيمنة هذه المدرسة السياسية فى عهد رئيس ضعيف يطرح ألف سؤال حول شرعية انتخابه ناهيك عن مؤهلاته، ويبحث عن معنى ورسالة لرئاسته تتجاوز كونه ابن رئيس سابق.



فى العام ١٩٩٢ أعد كل من بول ولفويتز، نائب رئيس وزير الدفاع الأمريكي الحالي، وزميله لويس ليبي، مساعدى ديك تشيني وزير الدفاع فى حينه، وثيقة تسمى «دليل تخطيط الدفاع فى البنتاجون» Pentagon Defense Planning Guide دعت إلى «إنهاء مهمة» تلك الحرب وإسقاط النظام العراقي. وقد أكدت هذه الوثيقة الأطروحة الأساسية للتغيير فى السياسة العالمية الامريكية: الحفاظ بكل ثمن علىٰ وحدانية القوة الأمريكية بحيث لا تتجاوز قوتها دولة أو ائتلافا من دول. ولم تشتهر هذه الأطروحة فى حينه لأن الواقع ذاته تجاوزها وأكدها دون الحاجة إلى أى تآمر. أى أن الاقتصاد الأمريكي تجاوز حجماً ونجاعة كافة الاقتصاديات الأخرى وبلغ المصروف العسكرى الأمريكي عملياً ما يتجاوز الصرف العسكرى للعشرين دولة التى تليها فى حجم الإنفاق العسكرى مجتمعة دون أن يشكل ذلك عبئاً على الدخل القومي. كما تجاوز التطور العلمى الأمريكى فى مجالات الحاسوب وتقنيات العدسات والاتصالات والصواريخ أية إمكانية لمنافسة من خارج الولايات المتحدة. وتنفق الولايات المتحدة على الأبحاث وحدها فى مجال الأسلحة أكثر من مجمل الإنفاق العسكرى لبريطانيا وألمانيا سويًا. وهذا وحده كاف لقطع الطريق على المنافسة النوعية مستقبلا. ويبلغ حجم الاقتصاد الأمريكي ضعف اليابانى، كما بالإمكان تدريج اقتصاد كاليفورنيا وحدها خامسا على الصعيد العالمى قبل فرنسا وبعد بريطانيا.

ولكن جورج بوش عاد إلى تأكيد مبدأ الوحدانية والتفرد فى المكان الأول نصاً وحرفاً فى خطابه الشهير فى قاعدة ويست بوينت فى يونيو من العام ٢٠٠٢ ليس فقط تأكيداً لهذا المبدأ وانما تفصيلاً له فى السياسة الخارجية كأساس للحرب الإمبريالية فى الخليج، كما ورد بشكل واضح فى النص الرسمى التالى: «ستكون قدرتنا العسكرية قوية إلى درجة تمنع خصومنا المحتملين من بناء قوة عسكرية على أمل تجاوز قوة الولايات المتحدة أو التساوى معها».

لقد وقع على الورقة موضوع قراءتنا التى تكرر ذكرها فى سياق التآمر لشن الحرب على العراق كل من ريتشارد بيرل القادم من عهد إدارة ريجان، والذى أسمته الصحافة الإنجليزية أمير الظلام نتيجة لآرائه المتطرفة، وجيمس كولبرت (المعهد اليهودى لشؤون الأمن القومى)، تشارلز فايربانكس (جامعة جون هوبكنز) وسوف نرى أن لمركز

A Clean Break: A New Strategy for Securing the Realm

(بداية جديدة: استراتيجية جديدة لأمن الدولة)

Richard Pearle (Study Group leader)

Jerusalem, Washingon D.C.:

Institute for Advanced Strategic and Political Studies, July 8. 1996.

أكدت وثيقة «دليل تخطيط الدفاع فى البنتاجون» الأطروحة الأساسية للتغيير فى السياسة العالمية الأمريكية: الحفاظ بكل ثمن على وحدانية القوة الأمريكية بحيث لا تتجاوز قوتها دولة أو ائتلافا من دول

الدراسات السياسية والاستراتيجية فى هذه الجامعة شأنا عظيمًا فى بلورة اليمين المتطرف فى الإدارة الأمريكية دون علاقة مباشرة بالنفوذ الصهيونى الأمريكى القائم بذاته، دوجلاس فيث (شركة فيث أند زيل Faith&Zell) وهو حاليًا مساعد وزير الدفاع سوية مع زميله وولفويتز، روبرت لوديز (رئيس معهد الدراسات السياسية والاستراتيجية الذى أصدر الورقة، ومقره فى واشنطن والقدس)، جوناثان توروب (معهد واشنطن لشئون الشرق الأدنى) ووجوده تأكيد على تشابك اللوبى الصهيونى القديم: معهد واشنطن والإيباك واللوبى اليمينى الإسرائيلى، مع اللوبى الجديد، دافيد وورمز (معهد الدراسات السياسية والاستراتيجية) وقد انتقل للعمل فى البنتاجون فى عهد إدارة بوش الابن، وزوجته ميراف وورمز (جامعة جون هوبكنز).

ويضاف مضمون الورقة الذى يشمل دمج الدعوة الصريحة لشن الحرب على العراق ضمن الاستراتيجية الإسرائيلية إلى أسماء الموقعين عليها وتبوئهم مناصب مرموقة فى الإدارة الأمريكية التى شنت الحرب لينتج ظاهرة مثيرة للاهتمام وحب الاستطلاع. ولكن ما يهمنا هو أولاً: مضمون هو من أسس السياسة الأمريكية الجديدة. نص كهذا يذكر بأن الأحداث التخريبية التى شهدها العراق من قبل غوغاء المدن والقبائل ليست بعيدة عن عقل هؤلاء التآمرى.



النـــــص:

١- يبدأ النص بهجوم سافر وصريح على حزب العمل الإسرائيلى «الذى يقود الحركة الصهيونية منذ خمسة وسبعين عاماً»، وذلك لأنه أوصل المجتمع الإسرائيلى بسياساته الاقتصادية المعتمدة على قطاع الدولة إلى حالة أزمة وإفلاس (وهى مغالطة بالطبع) وإلى إنهاك المجتمع الإسرائيلى واعتمد على محدودية قدرته على الصمود بدلا من أن ينميها عبر نشر أوهام مثل «الشرق الأوسط الجديد» والتنازل عن أراض، ثم الاستعانة بالولايات المتحدة لتمريرها فى المجتمع الإسرائيلى حيث لا تحظى هذه السياسة بشعبية.

يعادونها هى تلك التى تستخدم للتعبئة ضد انتشار النفوذ الأمريكى.

تنص الورقة أنه باستطاعة إسرائيل أن:

- تعزز التعاون مع تركيا والأردن لاحتواء ثم وقف ثم قلب ما يواجهها من تهديدات. وهذا يتطلب الانتقال من تطبيق شعار «السلام الدائم» إلى المفهوم التقليدى للاستراتيجية القائم على توازن القوى.
- تغيير طبيعة العلاقة مع الفلسطينيين، بما فى ذلك التمسك بحق المطاردة الساخنة (وتعنى ملاحقة منفذى العمليات الفلسطينيين) إلى داخل مناطق السلطة الفلسطينية و«تغذية بدائل لقبضة ياسر عرفات على المجتمع الفلسطينى».
- تؤسس قاعدة جديدة للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية تنطلق من الاعتماد على الذات والتعاون الاستراتيجى فى مجالات الاهتمام المشترك ودعم القيم الغربية. ويصبح هذا ممكناً إذا اتخذت إسرائيل خطوات تقليص المعونة الأمريكية المالية لها، هذه المعونة التى تعيق الإصلاح الاقتصادى. ويلتقى معدو التقرير فى هذا المطلب مع عناصر متطرفة فى اليمين الإسرائيلى تعتبر الدعم الأمريكى المالى لإقامة دولة يهودية والرغبة فى القضاء عليها وذلك بواسطة مبادلة «الأرض مقابل السلام» لا تضمن «السلام الآن». ادعاؤنا على الأرض التى تطلعنا إليها بأمل طيلة ألفى عام هو ادعاء شرعى ونبيل. وليس بوسعنا أن نصنع السلام من طرف واحد مهما قدمنا من تنازلات. وحده قبول العرب غير المشروط بحقنا هذا، خاصة ببعده الإقليمى، «السلام مقابل السلام»، يشكل أساساً صلباً للمستقبل».

يقترح المؤلفون بشكل واضح خرق ومراجعة أو إلغاء اتفاقيات أوسلو. وتشكل هذه التوصية تعبيرًا عن موقف أمريكى رافض لأوسلو أصلاً. مع الفرق أن كلاً من الإدارة الأمريكية ونتنياهو تكيفا مع اتفاقيات أوسلو على أمل أن يؤدى إلى تغيير فى الموقف الفلسطينى، أما هؤلاء فقد ثابروا فى موقفهم الرافض لاتفاقيات أوسلو إلى أن تبنته الإدارة الأمريكية واليمين الإسرائيلى بعد الانتفاضة الثانية. هنا علينا أن نتوقف قليلاً عند الفرق بين هؤلاء وبين اللوبى الإسرائيلى التقليدى الذى عمل قبل أن يسطع نجمهم فى سماء العاصمة واشنطن.

استراتيجية أمريكية

الورقة باعتباره مؤشراً على نمط صريح ومعلن إلى درجة الوقاحة فى التفكير اليمينى الجديد. وثانيًا غرابة تحويل هذه السياسة إلى نصائح لإسرائيل فى كيفية التدخل فى السياسة الأمريكية والتأثير عليها أيضًا. وهذه الدعوة الصريحة لرئيس حكومة بلد أجنبى للتدخل فى الشؤون الأمريكية الداخلية للتأثير على عملية صنع القرار فيها لا يميز اليمين التقليدى. ولا يمكن تخيل أن يقوم ممثلو اليمين الأمريكى القديم بخطوة كهذه، فالوطنية الأمريكية تصده عن تقديم نصائح كهذه. الوطنية الأمريكية فى حالة هذا اليمين الجديد تشمل إسرائيل، ولا تتعامل معها كدولة أجنبية. ومن هذا المنظور فإن وجود أخطر جاسوس فى تاريخ البنتاجون جوناثان بولارد فى السجن الأمريكى فى هذه المرحلة هو عبارة عن انضباط أمريكى عسكرى حتى تجاه إسرائيل.

يفاجأ المرء من صراحة ووضوح النص إلى درجة التآمر الصريح للعبث فى شئون الدول الداخلية، بواسطة تشجيع «القبائل العربية» مثلا على اختراق حدودها للتخريب كما يتم الحديث عن سورية فى الورقة. وتجاوز سيادة الدول عند الحاجة

لقد سبب حزب العمل على حد تعبير معدى الورقة تآكلا فى قدرة الصمود والاحتمال الوطنية الإسرائيلية، وقد بنى سياسته أيضاً على محدودية قدرة الاحتمال وانعدام ثقة «الأمة» بذاتها (يستخدم كاتبو الورقة وهم أمريكيون مصطلح الأمة بدون إضافات أو نعوت والقصد هو الأمة اليهودية أو الإسرائيلية، لا ندرى أيهما المقصود).

هنا يستغرب القارئ من غزارة استخدام المؤلفين لمفاهيم الأمة والقومية وضرورة رفع معنوياتها وثقتها بذاتها كمقدمة لصنع السلام بالشروط الإسرائيلية. والغريب أنهم يرفضون التدخل الأمريكى فى الشؤون الداخلية الإسرائيلية (والمقصود هو استعانة رابين بها ضد شامير مثلاً) ولكنهم لا يرحبون فقط، بل يدعون إلى تدخل إسرائيلى فى شؤون الولايات المتحدة الداخلية وفى عملية صنع القرار فيها. هؤلاء قوميون بدون شك، واليمين الجديد يؤكد على دور القومية عالمياً فى السياسة الخارجية، ولكن يبدو لى أن قومية هؤلاء هى قومية يهودية مختلطة بوطنية مشتركة أمريكية وإسرائيلية. والقومية الوحيدة التى

المباشر لإسرائيل عائقا أمام استقلال الأخيرة ونموها الاقتصادى السليم فى آن.



وتقوم المقاربة الجديدة التى يقترحها المؤلفون إلى موضوع السلام على نسف كامل لمبدأ الأرض مقابل السلام، ويقترحون مبادىء أخرى تقوم على اعتراف العرب بحاجتهم هم إلى السلام: السلام من أجل السلام والسلام من خلال القوة و مبدأ توازن القوى.

ويقترح المؤلفون النص التالى لتلخيص الموقف الإسرائيلى الرسمى الجديد من السلام:

« لقد قمنا لمدة أربعة أعوام بالسعى إلى سلام قائم على تصور شرق أوسط جديد. نحن فى إسرائيل لا نستطيع أن نلعب دور الأبرياء فى عالم غير برىء. نحن نعيش فى بيئة جيران خطيرة، مع دول هشة تعيش صراعات مريرة. ويعتمد السلام على طبيعة وسلوك أعدائنا. وحالة طمس الحدود الأخلاقية بين الجهد المبذول

لقد قامت AIPAC (The American Israel Public Affairs Committee) بعد العام ١٩٦٧ مع ازدياد أهمية إسرائيل استراتيجياً فى المنطقة. وقد مثلت فى نشاطها تصور الحكومة الإسرائيلية القائمة، أياً كانت، ودافع ممثلوها عن مواقف الحكومة الإسرائيلية وجندوا لها الدعم والتأييد فى واشنطن، وفى الكونجرس على وجه التحديد، على شكل لوبى يعمل على إقناع النواب بدعم الموقف الإسرائيلى سياسياً بما فى ذلك موضوعات خارجية مثل قضايا حق يهود الاتحاد السوفيتى بالهجرة وغيرها، وقضايا التسلح والدعم المالى لإسرائيل.



أما المرحلة الانتقالية من الناحية النظرية، أو من حيث المفاهيم، فشكلها تأسيس معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، وقد تأسس عام ١٩٨٥. وقد تجاوز فى نشاطه الكونجرس إلى العمل المباشر فى التأثير على الإعلام والسلطة التنفيذية.

أمن إسرائيل استراتيجية أمريكية

لعب مارتن أنديك دوراً أساسياً في تمثيل وجهة نظر هذا اللوبي في الإدارة الأمريكية. ومن أهم وثائق هذه المؤسسة الصهيونية تقرير «البناء من أجل السلام: استراتيجية أمريكية من أجل السلام». "Building for Peace: An AmericanA Strategy for the Middle East" وقد عارض هذا التقرير الذي صدر عام ١٩٨٨ بعد انفجار الانتفاضة الأولى تدخلاً أمريكياً يفرض إجراء تفاوضيا على إسرائيل، أو يفرض تسوية. وقد وجد ستة من مؤلفيه طريقهم عملياً إلى إدارة بوش الأولى حيث ساهموا في تعزيز موقف يرفض التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ويدعو الإدارة الأمريكية إلى عدم فرض التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية على إسرائيل. وهذا التجنب الأمريكي هو الذي أنجب صيغة مدريد الفاشلة التي فرضت بموجبها إسرائيل أن يكون الطرف التفاوضي الفلسطيني من خارج منظمة التحرير الفلسطينية.. وعندما وصلت إسرائيل الرسمية إلى قناعة بالحاجة إلى مفاوضات جدية قامت بنفسها بالالتفاف على هذه الصيغة في أوسلو متجاوزة عملاً تراكميًا لسنوات طويلة مع اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة.

ولكن تقييم نشاط مارتن أنديك ودنيس روس يظهر أنهما واصلا عملياً محاولة إثبات عدم صلاحية منظمة التحرير الفلسطينية للتفاوض. ومع أن روس كان الموفد عابر الرئاسات والإدارات لشؤون اتفاقيات أوسلو، إلا أنه لم يقتنع بأوسلو في يوم من الأيام مثلما كان موقف «معهد واشنطن» المذكور.

ولا شك أن سياسة الاحتواء المزدوج التي تبناها كلينتون ضد العراق هي الأب الشرعي، أو غير الشرعي، لسياسة محور الشر عند بوش. إلى هنا الاستمرارية والشبه، أما الفرق فيكمن بالضبط في الفرق بين الاحتواء والمواجهة الشاملة أو الحرب الشاملة في عهد بوش. وليس غريبا أن يشدد النقاد الأمريكيون المخضرمون من قدامى المناضلين الديموقراطيين ضد سياسة الإدارات الأمريكية المتعاقبة العدوانية في مناطق مختلفة من العالم من أمثال نعوم تشومسكي وجور فيدال على الاستمرارية كان سياسة إدارة جورج بوش الابن لا تمثل جديدا على الإطلاق.

«الحدود الشمالية»:

محور توصيات الورقة في حالة سورية ولبنان المسماة هناك بالحدود الشمالية اعتبار سوريا وإيران وحزب الله أهدافا ملحة في عملية محاربة الإرهاب. ويفترض أن تعاقب سوريا في لبنان، ولكن يجب أن تعاقب إسرائيل سوريا في المستقبل في سوريا ذاتها إذا لم ينفع الأسلوب الأول. «وأخذاً» بعين الاعتبار طبيعة النظام السوري، فإن من الطبيعي والأخلاقي في آن أن تغادر إسرائيل شعار «السلام الشامل» وأن تنتقل إلى «احتواء» سوريا وأن تلفت النظر إلى أسلحة الدمار الشامل وأن ترفض شعار «الأرض مقابل السلام في الجولان».

ثم وفي الإطار ذاته يورد التقرير الفقرة التالية:

«يشدد هذا الجهد على الإطاحة بصدام حسين، وهو هدف استراتيجي بحد ذاته بالنسبة لإسرائيل، كوسيلة لتغليف (اقرأ احتواء) طموحات سورية الإقليمية. لقد تحدى الأردن سورية مؤخراً بطرح إعادة بناء المملكة الهاشمية الأردنية في العراق، وقد ولد الاقتراح نزاعاً سورياً أردنياً رد عليه الأسد باختراقات في الأردن تمس باستقرار النظام فيه. لقد أشارت سوريا مؤخراً إلى أنها، ومعها إيران، تفضل صدام حسين ضعيفا لا يكاد يصمد في صراع البقاء، وذلك لإجهاض محاولات الأردن وإذلالها».

وإمعاناً في محاولة إقناع الحكومة الإسرائيلية بضرورة الإسهام بدور لتجهيز الأجواء لشن حرب على العراق يثير التقرير قضية «الشيعة في لبنان» وضرورة تحريرهم من التأثير الإيراني، وذلك عبر إعادة ربطهم بالنجف، حيث تربطهم علاقات تقليدية تسبق علاقاتهم مع إيران، وذلك بعد تأمين نجف صديقة بعد الإطاحة بنظام صدام حسين.

حضانات اليمين الجديد في واشنطن:

قبل ثلاثين عاماً قامت في واشنطن «لجنة الخطر الداهم»، وشكلت هذه ظلاً للمؤسسة العسكرية في حينه خارج البنتاجون بحيث تقول ما ليس بوسع العسكريين أن يقولوه ويرغبون بقوله. ولم تترك هذه الهيئة أثراً جدياً في مرحلة الرئيس كارتر ولكن نفوذها ازداد دون شك في مرحلة ريجان. هذا النمط من إقامة ظل خارج المؤسسة السياسية للمؤسسة العسكرية في فترة لا تروق لها السلطة السياسية وقراراتها هو نموذج نسخ في مرحلة كلينتون بإقامة مؤسسات تعبر فيها قوى اليمين في الإدارة العسكرية والسياسية الأمريكية عن مواقفها في متنفس من خارج المؤسسة إلى أن تحين الفرصة لممارسة تأثير مباشر على البنتاجون كما حصل في فترة بوش الابن.



ونذكر من هذه المؤسسات التي شكلت حضانات لنمو اليمين الجديد على هامش المؤسسة ثم داخلها:

١ ـ مجلس سياسات الدفاع، Defense Policy Board وتذكر على قائمة مجلس إدارته أسماء كل من ريتشارد بيرل، جيمس وولسي رئيس مخابرات سابق، فرانك جافني، اليوت كوهين، هنري كيسنجر، جيمس شليزنجر رئيس مخابرات سابق، هيوت جنجريتش رئيس الكونجرس السابق. وتتألف غالبيتهم من موظفين سابقين في المؤسسة العسكرية والسياسية يجمعون بين اليمين التقليدي واليمين الجديد.

٢ ـ مدرسة الدراسات الدولية العليا في جامعة جون هوبكنز، SAIS. وقد أسسها بول نتسه Paul Nitze في العام ١٩٤٤ وقد شغل بول نتسه مناصب رفيعة في كافة الإدارات الأمريكية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ماعدا إدارة كارتر. وحتى استقالته عام ٨٩ شغل منصب وزير خمس مرات. وبول نتسه هو أبو اليمين الجديد الروحي. وجميعهم إما تلامذته المتأثرون بفكره، أو خرجوا من معطفه روحياً. وقد مثّل الرجل الموقف غير القابل بالتوازن العسكري مع الاتحاد السوفيتي والردع القائم على أساس خوف الخصم من الضربة الثانية المدمرة والذاهب إلى ضرورة خرق التوازن لضمان التفوق العسكري الأمريكي وإمكانية القضاء على الاتحاد السوفيتي.

٣ ـ مشروع لقرن أمريكي جديد: PNAC تأسس عام ١٩٩٧ ورئيسه وليم كريستول وينشط معه بشكل خاص روبرت كاجان. كريستول هو رئيس تحرير صحيفة Weekly Standard حالياً بعد أن اشتراها كونراد بلاك الذي اشترى جيروزاليم بوست الإسرائيلية أيضاً وحولها إلى صحيفة يمينية. ويملك شركات صحافة في بريطانيا وكندا ويتبنى مواقف اليمين الإسرائيلي.

وقد نشر PNAC مشروعا أو خطة لضرب العراق والإطاحة بنظام صدام حسين بناء على ورقة وولفويتز وليبي من العام ١٩٩٢ «دليل الدفاع الأمريكي»، التي قدمت لتشيني في حينه كوزير دفاع. ويعتقد وولفويتز أن اليمين الجديد قد حقق انتصارا باقتناع الإدارة بشن حرب على العراق، ولكنه ما زال يشعر على خلاف مع الإدارة في شأن السعودية، وهو يرى أن المملكة العربية السعودية تنشر بالسطر الأخير فكرًا ديماجوجيا معاديًا للغرب يتناقض مع ممارساتها.

ومن يتواجد على مجلس إدارة هذه المؤسسة؟ وولفويتز، اليوت كوهين (رئيس)، رامسفيلد، جافني، دونللي، ابرامز، جب بوش.

٤ ـ مركز السياسات الدفاعية CSP: Center For Security Policy، ومن مستشاريها اليوت ابرامز المدان بالكذب وبالتورط في قضية إيران من مرحلة ريجان. والذي أعيد تعيينه حالياً كرئيس لقسم الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي.

٥ ـ المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي، JINSA:Jewish Institute for National Security Affairs. تأسس عام ١٩٧٦ لتعزيز الدعم العسكري لإسرائيل لكي لا تجد نفسها في وضع كوضعها إبان الحرب عام ١٩٧٣ مرة أخرى. وحتى بداية فترة حكم بوش الابن جلس في مجلسها الاستشاري كل من: تشيني، جون بولتون، وما زالت على مجلسها أسماء كل من: جيمس وولسي، ريتشارد بيرل، جين كيرباتريك (المندوبة الأمريكية في الأمم المتحدة في عهد رونالد ريجان) اويجين روستوف، ومايكل ليدين (وسيط أوليفر نورث إلى إسرائيل في عملية إيران ـ كونترا).

تجمع المؤسسة بين اليمين القديم من مرحلة ريجان واليمين الجديد. وأهم الناطقين باسمها هو مايكل ليدين صاحب مفهوم الحرب الشاملة ضد الإرهاب. ويمكن تلخيص توجه المؤسسة بأن هنالك تطابقا تامًا بين الأمنين القوميين الأمريكي والإسرائيلي وأن السبيل لتأمين سلامة وازدهار البلدين يبدأ بتحقيق الهيمنة الكاملة على الشرق الأوسط بأساليب التآمر والتمويه والحرب المباشرة.

٦ ـ مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية. رئيسه برنت سكوكروفت مستشار الأمن القومي السابق. وأعضاء: تشيني، وولسي، كيسنجر، شليزنجر، رمي لي هنت (من شركة Hunt Oil في تكساس).

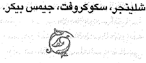
٧ ـ المجلس الاستشاري للاستخبارات الخارجية: وفي مجلسه سكوكروفت، جون دويتش (رئيس المخابرات السابق) وهانت.

٨ ـ هنا نورد الحالة اللافتة التي تظهر مدى تشعب أذرع التيار اليميني الجديد بشكل يوضح الصورة ويغلق الدائرة.

غرفة تجارة الولايات المتحدة ـ أذربيجان. وكان مجلسها مؤلف من قائمة معدي الحرب على العراق؛ وولفويتز، بيرل، تشيني، ارميتاج (مساعد وزير

الوطنية الأمريكية فى حالة هذا اليمين الجديد تشمل إسرائيل، ولا تتعامل معها كدولة أجنبية. إن وجود جوناثان بولارد أخطر جاسوس إسرائيلى فى السجن الأمريكى عبارة عن انضباط أمريكى عسكرى حتى تجاه إسرائيل

الخارجية حالياً وأيضاً من أبطال إيران / كونترا سابقا)، وبريجنسكى، كيسنجر، شلينجر، سكوكروفت، جيمس بيكر.



وقد تحولت أذربيجان عملياً إلى دولة محمية أمريكية، دون إشارة أمريكية أو تلميح إلى مدى ديموقراطية أذربيجان، وغيرها من جمهوريات آسيا الوسطى التى تسعى الولايات المتحدة لتحويلها إلى محميات دون إشارة إلى مدى ديموقراطيتها، كأن كلمة آسيا قد بدلت كلمة أمريكا فى عبارة «أمريكا الوسطى». ويبدو أن العراق يجب أن تكون مثل أذربيجان الغنية بالنفط.

لقد أقام الناتو عملياً فى العام ٩٩ مجموعة دول الجونان (جورجيا، مولدافيا، أوكرانيا، أوزبكستان - أذربيجان)، وهى مجموعة الدول على بحر قزوين الغنى بمصادر الغاز الطبيعى. وفى مركز هذه المجموعة دولة أذربيجان.

ولا شك أنه بالإمكان ضم مجلس سياسات الدفاع برئاسة ريتشارد بيرل إلى هذا اليمين الأمريكى الجديد الذى يعتبر فى جلساته العراق كهدف تكتيكى ومصر كهدف استراتيجى والسعودية هى الحلوى. وقد كانت أكثر حركاته إحراجاً وإثارة فى الفترة الأخيرة ما تسرب إلى الإعلام من جلسته ٢٠٠٢/٧/١٠ عندما اعتبر لورين مورافيتش فى مداخلته أمام المجلس السعودية عدواً للولايات المتحدة مستخدما فى وصفها تعبير «نواة الشر» kernel of evil.

وفى تقرير أخير أصدره «مركز النزاهة فى سلك العمل العام» حول هذا المجلس الاستشارى شبه الرسمى تبين أنه من بين ثلاثين عضوًا فى هذا المجلس الذى يقدم المشورة للبنتاجون تسعة على الأقل يحتفظون بعلاقات لشركات صناعات عسكرية حققت فى الأعوام ٢٠٠١ و٢٠٠٢، ٧٦ مليار دولار من أرباح التعاقدات. كما تبين أن أربعة أعضاء مسجلون كأعضاء فى جماعات ضغط للتأثير على الكونجرس، أحدهم يمثل اثنتين من أهم شركات صناعة الأسلحة فى أمريكا.

لقد حاولت أوساط «مجلس سياسات الدفاع» برئاسة بيرل حال وقوع عمليات الحادى عشر من أيلول استغلالها فوراً من أجل توجيه النقمة ضد العراق ومن أجل إعداد المزاج السياسى والجماهيرى لضرب وقلب نظام الحكم فى العراق. ولم يكن ذلك مجرد تطبيق للورقة التى نقوم بقراءتها وإنما لتحقيق هيمنة نمط جديد من التفكير السياسى على البيت الأبيض نفسه. هكذا حددت الإطاحة بنظام صدام حسين كجزء من المعركة ضد الإرهاب. كان هذا موقف رامسفيلد ومن ورائه البنتاجون بأسره.

لقد أوفد هؤلاء الذين اجتمعوا فى «مجلس سياسات الدفاع» بعد عمليات ١١ سبتمبر مباشرة جيمس وولسى إلى لندن للبحث عن أدلة تربط النظام العراقى بالقاعدة. وهو الذى خرج إلى العالم بفرية لقاء براغ بين محمد عطا وأحمد العانى من المخابرات العراقية. هذه الفرية التى كررتها صحف روبرت موردوخ (١٧٥ صحيفة إضافة إلى شبكة فوكس) وغيرها من الصحف الرخيصة وغير الرخيصة دون علاقة بملكيتها. والتى أحرجت حتى المخابرات التشيكية الودودة.



وهكذا يلخص نعوم تشومسكى العملية بأسرها بالأرقام: بعد ١١ سبتمبر مباشرة اعتقد ٣٪ من الأمريكيين فقط أنه توجد علاقة ما للعراق بالعملية. وعشية شن الحرب على العراق اعتقد ٥٠٪ من الأمريكيين أن العراق تقف وراء عملية ١١ سبتمبر أو لها علاقة بها.

لقد نشرت (PNAC) مشروع قرن أمريكى جديد) مذكرة موجهة إلى كلينتون تطالب بشن الحرب على العراق والإطاحة بنظام صدام حسين يوم ٩٨/١/٢٦ وقد وقع على المذكرة أربعون شخصية منهم كريستول، تشينى، ليبى، رامسفيلد، وولفويتز، بولتون، بيرل، ابرامز، خليلزاد (مسؤول الشأن الأفغانى فى الإدارة الأمريكية بعد ١١ سبتمبر، والكلف بلعب دور فى الإدارة العراقية إلى جانب جاى جارنر) وارميتاج، اليوت ابرامز (وزير دفاع سابق وله ضلع فى قضية إيران / كونترا) كاسبر وانبرجر (وزير أمن سابق له ضلع فى إيران / كونترا)، فرانك برلوتشى.

وعندما لم يتعامل كلينتون مع رسالتهم قاموا بالاستعانة بالكونجرس على أسلوب اللوبى الإسرائيلى المعروف. فتم توجيهها إلى جنجرتش رئيس مجلس الشيوخ وإلى رئيس الأغلبية فى ترينت لوت يوم ٩٨/٧/٢٩، وكانت نتيجة هذا المسعى صدور قرار «تحرير العراق» عن الكونجرس فى نوفمبر ٩٨، كان ذلك قبل أسابيع من بدء كلينتون بقصف العراق لمدة أربعة أيام متواصلة فى عملية «ثعلب الصحراء».

نمط التفكير الجديد:

لقد حذر زعماء عرب الولايات المتحدة من أن حربها على العراق سوف تؤدى إلى حالة من عدم الاستقرار فى المنطقة، ظناً منهم أن هذا التحرير سيهز مخططى الحرب على العراق أو يصدمهم. والحقيقة أن مفاهيم الاستقرار أو عدم الاستقرار قد باتت مفاهيم ثانوية بالنسبة إلى مخططى ومنظرى هذه الحرب. ولأن تصورهم للعالم يقوم على مفاهيم أخرى أساسية مثل وحدانية القوة والهيمنة، حق الضربة المانعة، فإن تحذيرًا من نوع «إن الحرب على العراق تمس بالاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط» لا تخيفهم إطلاقا.

وتستطيع أن تميز نمط التفكير الأمريكى الجديد بانه استخلاص لنتائج الحرب الباردة ونهاية الاتحاد السوفيتى وإدراك لمعنى قوة ووحدانية قوة الولايات المتحدة، وقد انطلق طريق الوصول إلى هذا الاستنتاج من حرب الخليج الثانية مروراً بالتدخل العسكرى فى البلقان والحرب على أفغانستان وصولاً إلى الإطاحة بالنظام الحاكم فى العراق بعد احتلال ذلك البلد عسكرياً.

وتشتق من التفوق العسكرى المطلق عناصر أخرى مهمة تميز عقيدة وحدانية القوة مثل نهاية سياسة الردع التى تميز مرحلة التوازن فى القوى. فما ميز حالة التوازن لم يعد كافيا ولا حتى سارى المفعول، والمقصود الردع الذى يمنع الطرف الآخر من القيام بعمل عسكرى مباشر ضد الولايات المتحدة أو مصالحها الحيوية جدًا نتيجة لخوفه من رد الفعل المدمر، وقد يفسح الردع المجال للتنفيس عن الصراع عبر نزاعات إقليمية. وأصبح المطلوب مع انهيار التوازن ونشوء حالة القطب الواحد هو المبادرة إلى القيام بعمل أو أعمال فى حال وجود خطر، ولو كان الخطر غير أكيد بل قائم بالقوة أى بالإمكانية وحدها. وتمثله قوى غير ودودة لمصالح الولايات المتحدة.



هنا يتم التمييز بين ضربة وقائية preemptive strike والتى كانت تعتمد إبان الحرب الباردة فى حالة وقوع خطر شديد وملموس وتستخدم قبل وقوعه لشل قدرة الخصم على إيقاعه من ناحية وبين الحرب الوقائية War Preventive والتى تكتفى بتشخيص إمكانية خطر يأتى من دولة أخرى من أجل شن حرب. يطبق إحلال المبادرة إلى الحرب محل غياب الردع مفهوم الوحدانية بشكل كامل، إذ قد تقوم الولايات المتحدة «بما هو ضرورى» بغض النظر عن وجود حلفاء. وتتغير طبيعة التحالفات تبعاً للمهمة وليس العكس كما يقول رامسفيلد، أى أن الولايات المتحدة لم تعد تحدد مهماتها بناء على التحالفات. وهذا يعنى أيضاً تحطيم قواعد اللعبة القديمة والإجماع الدولى وغيرها لغرض شن الحرب أمام إصرار الولايات المتحدة على اتخاذ خطوة العمل العسكرى ولو وحدها. هنا تتحول وحدانية القطب إلى وحدانية الفعل: من unipolarism إلى unilateralism.

وأمام وحدانية قوة الولايات المتحدة وحريتها فى الحركة وأمام زوال الحاجة إلى التوازن والردع والالتزام بالمؤسسات الدولية يصبح الالتزام بالاتفاقيات والمعاهدات والقواعد المتفق عليها أمراً نسبياً، وتميل الولايات المتحدة إلى عدم تقييد نفسها بمعاهدات، وتقوم حتى بالتراجع عن معاهدات موقعة. هكذا تراجعت إدارة بوش عن موافقة إدارات سابقة بالتوقيع على اتفاق كويوتو حول تسخين الغلاف الجوى، وعن اتفاق إقامة المحكمة الجنائية العالمية على أساس معاهدة منع انتشار الأسلحة البيولوجية، ورفضت ومعها إسرائيل التوقيع على معاهدة دولية لإقامة المحكمة الدولية لمحاكمة مجرمى الحرب.

فى سياق «الحرب ضد الإرهاب» اكتسبت الحرب معنى الشمولية. ولا شك أن وجود قوة عسكرية لدى الولايات المتحدة لغرض التدخل فى أى بقعة فى العالم وعلى أهبة الاستعداد للانتشار لدى صدور الأمر لا تعكس توجها جديدا بل إمكانيات جديدة أيضا. ولا شك أن النقاش الذى شهدته واشنطن حول حجم القوة العسكرية اللازمة لاحتلال العراق وإحداث التأثير اللازم بأقل خسائر للقوات الغازية وبأقصر وقت ممكن، وهو النقاش الجدى الوحيد الذى دار فى إعلام المؤسسة الإعلامية الأمريكية، له علاقة مباشرة بمدى صحة هذه النظرية عمليا. فالموضوع لا يتعلق بالعراق وحده وإنما بنمط عمل الإمبراطورية «المضطرة» لتفعيل قوة تدخل سريع لحسم قضايا وقلب أنظمة.

ويستطيع أى محلل نقدى أن يوقف سير العرض الحماسى حول تحول ثورى وجذرى فى السياسة الأمريكية ليقول لنا، أن الجديد الوحيد فى الأمر هو القدرة التقنية العالية وليس التغير الأيديولوجى، فهى التى تمكن الولايات المتحدة من إخضاع الخصم واحتلال الدولة بسرعة وأقل خسائر ممكنة، لأنه يتم تنفيذ المهمة الأساسية قبل الانتشار البرى بواسطة سلاح الطيران وسلاح الصواريخ والقدرة التكنولوجية العالية فى مجالات الرصد والتوجيه والاتصالات. وهذا صحيح إلى حد بعيد.

ولا يكفى بالطبع أن نحمل التكنولوجيا المتطورة المسؤولية كلها، بل يضاف أيضا انهيار القطب

الثاني الذي كان قادرا على إمداد الخصم الإقليمي في الصراع بالدعم الكافي لإطالة صموده ولتحقيق انتصارات بمعنى ما بسبب قدرته على تحييد بعض من قوة أمريكا العسكرية أيضا. ولكن ألم يكن للتكنولوجيا المتطورة بفعل التنافس بين الاحتكارات وتوظيف العلم في عملية الإنتاج أثر على انهيار القطب الثاني كقطب مواز أو رادع؟ هكذا عدنا إلى التطور التكنولوجي.

لقد ذكرنا أن الإدارات الأمريكية السابقة اقتنعت بموقف إسرائيل عدم التفاوض مع منظمة التحرير أكثر مما اقتنعت إسرائيل ذاتها في لحظة تاريخية محددة. ولكن قد يفاجأ المرء أن يسمع أنه كانت قوى أمريكية أساسية تعارض كامب ديفيد الإسرائيلي المصري نفسه. فكيسنجر صاحب نظرية فصل القوات بين إسرائيل ومصر نصح الإسرائيليين بعدم إزالة المستوطنات في سيناء. وفي حينه وبعد مرور زمن على الاتفاقيات رد شارون الذي تولى أمر هدمها على هذه الانتقادات أنه دون إزالة المستوطنات ما كان بالإمكان التوصل إلى سلام مع مصر بل إلى حالة لا حرب في أفضل الحالات. فأجابه كيسنجر، والرواية على ذمة شارون، وماذا لديكم مع مصر الآن؟ أليست حالة لا حرب؟



لقد تطورت فكرة السيطرة العسكرية الأمريكية المباشرة على الخليج تدريجيا، ولم تحصل مثل كسر في التواصل Clean Break الفكري مثلا بفعل من المحافظين الجدد. فمنذ أن ارتفعت أسعار النفط في الأعوام ٧٤-٧٥ بعد الحظر الذي رافق حرب أكتوبر، وموجة الارتفاع الثانية بفعل الثورة الإيرانية، منذ تلك المرحلة يجري تفكير استراتيجي أمريكي حول الموضوع. والموضوع مطروق بكثافة وتزدحم فيه مراكز الأبحاث، وقد لفتت النظر مقالة لروبرت درايفوس يذكر فيها عن السفير الأمريكي السابق لدى السعودية أكينز Akins أنه قرأ مقالاً موقعًا باسم مايلز اجنوستوس نشر في هاربرز ثم في عدة صحف أمريكية تحت عنوان «السيطرة على النفط العربي» ويدعي كاتب ذلك المقال أنه يستند إلى مصادر عليا في الإدارة الأمريكية تدعو إلى السيطرة الأمريكية المباشرة على منابع النفط العربي وإدارة إنتاجه من تكساس وأوكلاهوما، وما كان من السفير المتحمس إلا أن هاجم المقال باعتباره دعوة استفزازية لتوتير العلاقة مع دول صديقة في الخليج....ولم ينتظر السفير طويلا ليكتشف أن المصادر العليا هي وزير خارجيته كيسنجر ذاته وأن مهاجمة المقال المذكور كلفته وظيفته كسفير في الخارجية الأمريكية.

لقد أعلن كارتر عن أول قوة للتدخل السريع في الخليج بعد تصريحه الشهير في كانون الثاني عام ١٩٨٠ والذي حدد فيه الخليج كمنطقة حيوية للمصالح الأمريكية والأمن القومي الأمريكي. هكذا أقيمت قوة التدخل السريع وذلك في عهد أحد الرؤساء السابقين صاحب السمعة الأكثر اعتدالا في تعامله مع العالم الثالث.



وفي عهد ريجان قامت قيادة المنطقة الوسطى التي سمعنا تغطية إعلامية مكثفة من مقرها في قطر إبان الحرب العدوانية على العراق. وتمتد المنطقة الخاضعة لهذه القيادة من القرن الإفريقي وحتى أفغانستان. وفي هذه المرحلة تم الرهان بشكل جدي على تسليح تركيا والسعودية إضافة إلى إسرائيل، كما بيعت طائرات اواكس وإف ١٥ للسعودية الأمر الذي أثار حفيظة ونشاط إيباك في الكونجرس ضد هذه الصفقات. ولكن الولايات المتحدة لم تتمكن من إقناع دول الخليج بضرورة وجود عسكري أمريكي جدي ومباشر، عدا في دول مثل البحرين وعمان، إلى أن سهلت حرب الخليج الثانية عليها المهمة باجتياح العراق للكويت. بعده تمكنت الولايات المتحدة من إقامة قواعد عسكرية ضخمة في الكويت والسعودية وقطر. ومنذ ذلك الحين باعت الولايات المتحدة للسعودية أسلحة ومعدات ومباني بمبلغ ٤٣ مليار دولار وللكويت بمبلغ ١٦ مليار دولار، هذا عدا قطر والبحرين والإمارات.

حرب الخليج الثالثة تثبت كما يبدو حاليا الوجود العسكري الأمريكي في الخليج، كما ترجمته في الواقع إلى خطوة عملية هي تغيير نظام، وربما إقامة نظام بديل تحت الحماية الأمريكية في أحد أهم بلدان المنطقة على الإطلاق.

ورغم النقاش المستمر هل هو النفط أم الهيمنة الإمبريالية أم إسرائيل فلا شك أن هنالك علاقة للنفط بالموضوع حتى لو كان المنطلق الأساسي هو الهيمنة. وإسرائيل وحدها أو النفط وحده لم يكن كافيا لشن حرب. ومع أن الهيمنة هي الدافع إلا أن هنالك شكًا إذا كانت الولايات المتحدة ستتدخل عسكريا ضد احتلال الكويت لأنها إمارة صحراوية مهمة بذاتها دون نفط.

إذا سيطرت الولايات المتحدة بواسطة «نظام صديق» على مصادر النفط في العراق تكون الولايات المتحدة قد أحكمت السيطرة على معظم ينابيع النفط في العالم. فاحتياطي النفط العراقي هو الثاني في العالم بعد المملكة العربية السعودية، وتكلفة استخراجه رخيصة بكافة المقاييس، ١,٥ دولار للبرميل الواحد. والولايات المتحدة تستهلك سنويا ربع الاستهلاك العالمي للنفط، وهي في الوقت ذاته لا تنتج إلا نصف ما تستهلك، هذا عدا الطاقة الهائلة الكامنة في السيطرة على هذه المقدرات فيما يتعلق باقتصاديات العالم أجمع. هذه الحقائق دعت الأيكونومست البريطانية المؤيدة للحرب والتي اتخذت هي أيضا موقفا صقريا بعد ١١ سبتمبر إلى تقرير ما يلي: «تنطلق مصلحة أمريكا الاستراتيجية في ملاحقة صدام حسين من ضرورة إنقاذ العالم من أسلحة الدمار الشامل القائمة والممكنة، ولكن هنالك اعتبارًا ضخمًا آخر مهما كان ثانويا، إلا أنه لم يحظ بالاهتمام الذي يستحق، والمقصود هو الأثر الهائل الذي سيتركه فتح احتياط هذا البلد الهائل من النفط». وإذا أحكمت الولايات المتحدة قبضتها على احتياطي النفط العالمي فلن تبقى بالتأكيد استقلالية ولو نسبية لتتمتع بها منظمة أوبك فيما يتعلق بكمية النفط التي تضخ وأسعاره.

لقد صرح الرئيس الأمريكي إن مجرد وجود قوة عظمى واحدة عالمية، امبراطورية، معرضة في عقر دارها لهجمات بطائرات مدنية حوّلت سلاحا تدميريا، يضاف إليها مجرد سهولة إنتاج الأسلحة الكيماوية، هذه «المجردات» وحدها تبرر أن تقوم هذه الدولة العظمى بضربات وقائية مانعة خارج حدودها. هذه أصول اللعبة الجديدة. والسؤال هو ما الذي يدخل في نطاق الخطر والوقاية منه، وما هو نوع الوقاية المتاح؟ هكذا نطق جورج بوش بالعقيدة الاستراتيجية الجديدة يوم ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٢.



هذه الأفكار وحدها تغني عن السؤال عن المشترك بين إسرائيل وأمريكا، لأن فكرة الضربة الوقائية المانعة خارج الحدود لتجنب نشاط معاد داخل الحدود، خاصة في المنطقة العربية، هي فكرة إسرائيلية قلبا وقالبا، جسدا وروحا.

وتستطيع الولايات المتحدة أن تدعي أن مجرد وجود النظام العراقي بحد ذاته هو خطر. كما قد تدعي في المستقبل أن وجود حزب الله هو كذلك، وأن التخلص نهائيا من وجود حركات مثله يتطلب تغييرا جذريا في لبنان، وهذا يتطلب بدوره تغييرا جذريا في سوريا. وقد ادعت الولايات المتحدة أمرا مشابها بالنسبة لياسر عرفات شخصيا، وهي تقوم في هذه الأثناء بمحاولة إجراء التغييرات اللازمة على مستوى القيادة الفلسطينية للبدء بمفاوضات إسرائيلية فلسطينية بعد تنفيذ المخططات العدوانية لإقامة دولة فلسطينية بالشروط التي تتصورها أمريكا.

في هذه الأثناء، تبتز الولايات المتحدة أنظمة صديقة لها مثل مصر والمملكة العربية السعودية بإثارة موضوع أوضاعها الداخلية المطلوب إصلاحها كجزء من هذه الوقاية المطلوبة للدولة العظمى ضد «خطر الإرهاب». وقد يتبين أن هذا التكتيك الابتزازي هو جزء من استراتيجية شاملة، أو قد تضطر الولايات المتحدة للتعامل معه بجدية إزاء ديناميكية الأحداث.

أفكار أولية عن عجزنا أمام تناقضات الإمبراطورية

يرجع جور فيدال تاريخ السلوك الإمبراطوري للولايات المتحدة إلى حقبة ترومان ويعرض ولادتها بشكل مسرحي كما يليق بكاتب قصة ويستعير المشهد من كتاب Dean Acheson, Present at the Creation: My Years in the State Department (١٩٦٩) ودين أتشيسون هو وزير خارجية ترومان، والمشهد هو جلسة في غرفة اجتماعات الحكومة في البيت الأبيض بمشاركة كبار المسؤولين في الخارجية والأمن القومي والأغلبية في الكونجرس يوم ٢٧ فبراير ١٩٤٦ لاتخاذ قرار للتدخل في اليونان ضد إمكانية وصول اليسار إلى السلطة في ذلك البلد بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ويعني هذا القرار بداية تحلل إدارة ترومان من إرث روزفلت وبداية التحلل من اتفاقيات يالطا والتصرف كامبراطورية ذات أجندة سياسية مدعومة بالقوة العسكرية في كل مكان لا يخضع لسيطرة السوفييت المباشرة. إنه عهد ترومان الذي اتخذ فيه القرار بإلقاء نار جهنم على هيروشيما ونجازاكي لغرض إرهاب الاتحاد السوفيتي سياسيا (إرهاب سياسي ضد حكومة بغرض التأثير على قراراتها بواسطة قتل المدنيين) وتحذيره من قدرة أمريكا النووية. وهي أيضا حقبة الانقلاب الدموي المدبر أمريكيا ضد حكومة ديموقراطية في جواتيمالا لأنها تجرأت على فرض ضريبة حد أدنى على شركة يونايتد فروتس الأمريكية العاملة فيها والتي تجاوزت ميزانيتها ضعف ميزانية جواتيمالا. مفتتحة بذلك سلسلة من

تقوم المقاربة الجديدة التى يقترحها المؤلفون إلى موضوع السلام على نسف كامل لمبدأ الأرض مقابل السلام، ويقترحون أن تقوم على اعتراف العرب بحاجتهم إلى السلام: السلام من أجل السلام والسلام من خلال القوة

الانقلابات المدعومة من جهاز المخابرات الأمريكية لأسباب شبيهة فى العديد من دول أمريكا اللاتينية.

وتسلك الولايات المتحدة فى المنطقة العربية سلوكا إمبراطوريا يشير إلى التراتبية ويؤكد مصدر الشرعية، ولكنه أيضا يلمح من الآن إلى تناقضات الحالة الإمبراطورية (الإمبريالية) الأمريكية وحدودها.

خذ مثلا السلوك الأمريكى على الصعيد العالمى الذى يذهب باتجاه تأكيد نسبية الحدود الوطنية للدول فيما يتعلق بحقوق الإنسان كما ادعى بشأن العراق وصربيا، وجرائم الحرب تحديدًا. فمن المفترض أن ينسجم هذا السلوك مع محكمة لاهاى بشأن جرائم الحرب، خاصة أن الولايات المتحدة نفسها قد بادرت إلى هذا النوع من المحاكم ضد قادة الصرب وجرائمهم فى الحروب الأهلية البلقانية الأخيرة فى نهاية القرن العشرين. ولكن طابع محكمة لاهاى القانونى المجرد الذى يتعامل مع الكونية بجدية، يناقض السلوك الإمبريالى الذى يلتقى مع الكونية فى حالة واحدة فقط، وهى حالة تطابقها معه (اقرأ: مع مصالحه الخارجية كما تتمخض عنها أيضا بنيته الداخلية ومناقشاته حول الاختلاف على فهمها أيضا) .



إن مجرد محاولة الولايات المتحدة «التهرب» من محكمة مجرمى الحرب فى لاهاى بعد أن وقعت على وثيقتها التأسيسية، ثم عادت ورفضت الانضمام إليها كعضو كامل، يعنى أن الولايات المتحدة قد تحجم ذاتها وتتصرف مثل دولة صغيرة تحتال على القانون. كان هذا أيضا حالها عندما طرحت الحرب على العراق لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة بالقوة العسكرية، ثم تهربت من التصويت فى مجلس الأمن تجنبا لموقع الأقلية هناك. وقد بلغ صغر الإمبراطورية حدا جعلها يوم الثالث من أغسطس ٢٠٠٢ توقع اتفاقية مع إسرائيل، تتفاهم فيها «الدولتان» على عدم تسليم أى منهما مواطنى البلد الآخر لمحكمة مجرمى الحرب الدولية فى لاهاى. هذه الاتفاقية لا تشير فقط إلى وجود دولتين تتهربان من القانون الدولى، مثل مجرمين صغيرين يتفقان على عدم وشاية أحدهما بالآخر، إنها تشير أيضا إلى أن التوازن بين القيم الكونية ومؤسساتها ومدى تأثيرها على الرأى العام ثم على مجموعات من الدول من ناحية، وبين الإمبراطورية وسلوكياتها كمصدر للشرعية من ناحية أخرى قد يحل على المدى البعيد محل التوازن بين «المعسكرين». فالتصرف الأمريكى - الإسرائيلى يذكر بأيام محاصرة معسكر لمعسكر آخر فى الأمم المتحدة، الأمر الذى كان يجعل الولايات المتحدة وإسرائيل يرتبان أوراقهما خارج مؤسسات ما سمى بالشرعية الدولية.




ولا تدعى الولايات المتحدة ضمنا فى هذه الاتفاقية أن ما تقوم به قواتها خارج الحدود الأمريكية لا يمكن أن يعتبر جرائم حرب فحسب، بل إن هذا يسرى أيضا على ما تقوم به الدولة اليهودية خارج حدودها المعترف بها دوليا. أى أن الإمبراطورية الكبيرة تفرخ إمبراطورية صغيرة تمضى فى طريقها لا تلوى على شىء. وتخطئ هذه الأخيرة الصغيرة خطأ فادحا ومميتا إذا اعتقدت أنها تستطيع أن تحتل دولا ناسخة الإمبراطورية، فهذا السلوك فى النظام العالمى محفوظ للامبراطورية، ولها فحسب.

تبدأ اللاعقلانية الأمريكية فى المنطقة العربية فى المرحلة الراهنة باستثناء إسرائيل من قواعد الشرعية الإمبراطورية. فبموجب منطق هذه الشرعية ذاته المستثنى الوحيد هو أمريكا لأنها هى مصدرها، ولا يوجد مبرر لاستثناء إسرائيل إلا اللاعقلانية الأمريكية فى التعامل معها. وقد وصلت اللاعقلانية الأمريكية فى التعامل مع إسرائيل مؤخرا حد التحالف مع اليمين الإسرائيلى وإحراج اليسار الإسرائيلى الصهيونى. هنالك أكثر من عنصر لاعقلانى فى تحالف اليمين الأمريكى المسيحى المتطرف مع اللوبى الإسرائيلى اليمينى فى الولايات المتحدة ومع اليمين الإسرائيلى. لقد كنا نقول أن القضية الإسرائيلية هى قضية أمريكية داخلية، فبتنا نضيف أنها قضية أمريكية داخلية متعلقة باللاهوت السياسى الاستيطانى أى بـ«الميتابوليتكس»، ما وراء السياسة.

قد ينسحب بعض كتاب الورقة موضوع قراءتنا من نصائحهم الفجة لنتنياهو حول القضية الفلسطينية، فقد أصبحوا فى السلطة. ووجودهم فى الإدارة يحتم عليهم مسؤولية وتكبلهم بقيود لا تكبل الأيدى التى كتبت تلك الورقة. ولكن ما كتب هناك هو ما يؤمنون به. والحل الوسط الممكن، السلم الممكن للنزول عن شجرة الغرور العالية هو إقامة دولة فلسطينية ضمن ما يرضى الرأى العام الإسرائيلى من شروط، والقيادة الفلسطينية التى ترضى بهذه الشروط هى الشريك المؤهل لتغيير فكرتهم عن الفلسطينيين.

لقد ثبت أيضا أن تحرك الدول العربية كل على حدة فى الحوار مع الولايات المتحدة يجعلها أكثر تعرضا للضغط مما لتوجيه الضغط، فالمتوجه إلى واشنطن بغرض التأثير عليها يجد بانتظاره إدارة تحمل بيدها ملفاته وتضغط عليه فى المكان الذى يؤلمه، «حيث يوجع». قد يكون ما نقوله أضغاث أحلام وكلامًا للتمنى ولكن على العرب أن يحاوروا الولايات المتحدة سوية بالحد الأدنى من الاتفاق. ولا يستطيع التيار القومى أن يحل محل التعاون بين الدول العربية بهذا الشأن، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، ولا يستطيع أن يقنعها أن هذه هى مصلحتها إذا لم تكن مقتنعة، فهو أى التيار ليس أدرى منها بمصلحتها.



ولو كانت الدول العربية دولا ديموقراطية لسهل تبنى الشرعية الدولية على مستوى الرأى العام باتجاه استخدام هذه «الاستثنائية الإسرائيلية» من أجل تثبيت رفض «الاستثنائية الأمريكية» أيضا والتمسك بالقيم الكونية لمحاربتها، ولسهلت أيضًا ترجمة هذا الرأى العام على مستوى عملية صنع القرار العربى الرسمى. ولكن فى غياب الحالة العربية القادرة على استغلال هذه التناقضات القائمة فعلا والتى تحجم الولايات المتحدة، لا يدعو الرئيس بوش أمم العالم للتصدى لـ«إرهاب الفلسطينى» فحسب، بل وإلى احتلال بلد عربى دون توفر حجة شكلية إطلاقا، ودون أن يجهد نفسه بالدفاع عن قراره هذا إلا فى جلسات الإدارة الأمريكية الداخلية التى لن نعلم ما يدور فيها إلا بعد عشرين عامًا فى أفضل الحالات.

والطامة الكبرى أن إسرائيل ماضية فى إرهابها فيزداد عندنا الشعور بالغبن والمرارة و«الاستثنائية» العربية أو الإسلامية، ويتحول الموقف المطلوب تجاه بلد عربى يواجه خطر الهجوم الشامل إلى تقاعس وعجز من ناحية، وإلى تعصب وسياسة هوية ترفض أن ترى طبيعة النظام العراقى إلا ضمن المقولة المخففة: «المنطقة كلها ديكتاتوريات». فلماذا العراق؟ ولكن كل هذا التعميم أسهل من سماع مسؤولين عرب يتحدثون بالديموقراطية فى دول غير ديموقراطية كل ما يميزها أنها متحالفة مع المشروع الأمريكى. على أى أساس؟ أو ينتقدون الفساد بغرور من موقعهم فى دول تملك فيها عائلات حاكمة الدولة وثرواتها فلا تحتاج إلى الفساد لأنها تملك كل شىء أصلا، وينتشر فيها نظام العمولات إلى درجة فرض الشراكة فى الأعمال الاقتصادية. فعلى أى أساس يتحدثون عن الفساد؟

سوف يكتشف قباطنة العدوان أن إحدى أكبر جرائم الولايات المتحدة هى التعامل أداتيا مع موضوعة الديموقراطية تعاملا قد يدفع أوساطا واسعة من الشعوب المظلومة والمغلوبة على أمرها وذات المصلحة بالديموقراطية الاجتماعية والسياسية فى أحضان سياسات الهوية المعادية لهذه الأدوات باعتبارها شأنا إمبرياليًا. وإذا لم تتحول قضايا هذه الشعوب والمجتمعات الحياتية ومنها الحقوق السياسية والديموقراطية إلى هم القوى الوطنية القومية، فإن ذلك لن يقلل من شأن هذه القضايا بل سيقلل من أهمية هذه القوى على المدى البعيد. وسوف يجعل هذه القضايا موضوع صراع بين سياسات الهوية وبين الأمريكان والنخب المتحالفة معهم، وهذا صراع يتضمن حلولا وسطا كثيرة ولا يتخذ بالضرورة شكل مقاومة الاحتلال. التحول فى العراق إلى مقاومة الاحتلال ليس بديلا لبرامج قومية ديموقراطية سياسية تطبيقية، أى برامج سياسية تمارس، فى كل بلد عربى. لقد ولى العهد الذى ترفع فيه قضية واحدة إلى مرتبة «القضية القومية» وتؤجل بموجب ذلك كافة القضايا فى انتظار حلها، وتتحول مهمة القوميين إلى التضامن معها، مهمة القومى هى أولا مهمة وطنية ديموقراطية فى بلده، ولن تقن حتى التضامن القومى مع قضية تعتبر قومية إذا لم يشكل قوة وطنية ديموقراطية فى بلده. وكما تحاول الولايات المتحدة أن تقيم نموذجا جذابا كما تعتقد فى العراق، على التيار القومى فى كل بلد عربى أن يشكل فى بلده نموذجا جذابا ولا يمكن أن يتم ذلك دون مشروع سياسى فى الحكم أو فى إصلاح الحكم.

ولكى نفهم ردة الفعل علينا اليوم أن نتذكر بذهول أن الشعوب مغلوبة على أمرها من قبل الديكتاتورية ومن قبل مستوردى الهيمنة الأمريكية بحجة استيراد الديموقراطية إلى درجة أننا لم نحص حتى الآن عدد قتلى وجرحى العدوان الأمريكى على العراق. نحن ببساطة لا نعرف عدد ضحايا هذا العدوان. هل هم عشرة آلاف؟ هل هم أكثر من ذلك؟ هل يهتم أحد بإحصاء القتلى والجرحى والمعاقين العراقيين من المدنيين والجنود؟ والجنود أيضًا بشر، والقتلى الأمريكيون هم جنود أيضًا، وجهلنا بالرقم ليس صدفة ولا هو من مزايا الديموقراطية التى تحترم حياة ومصير حياة المواطن الفرد. ■



يعتقد أحد صناع السياسة البارزين فى أواخر القرن العشرين، ممن لم يتقلدوا منصبًا، أن الرأى العام الأمريكى ينظر إلى القضايا الإسرائيلية الفلسطينية، وهو جاهل أساسًا بمشاعر وأوضاع الفلسطينيين، لا شعوريًا على الأقل، وأن الفلسطينيين شعب متخلف محب للقتال، وهم أناس يستحقون الشفقة، وأنهم عمومًا أناس مختلفون عن الأمريكيين، بينما يرون الإسرائيليين أناسًا مقدامين مغامرين ومتقدمين، خاضعين لحصار عربى، وهم «مثلنا». وبمعنى حقيقى، وحتى التسعينيات، كان هنالك أحد صناع السياسة البارزين، ممن لم يستبعدوا الفلسطينيين تلقائيًا من اعتبارات سياسية، لأن الإسرائيليين قد أسسوا ببساطة أمة ذات سيادة، بينما الفلسطينيون لم يفعلوا ذلك.

وتفيد الأعراف المعمول بها عمومًا فى الولايات المتحدة أن الصراع قد تأصل لا لأن الفلسطينيين فقدوا أراضيهم وديارهم ووطنهم، وأنهم يحاولون استرداد إرثهم المفقود، بل لأن العرب يضمرون كراهية دفينة لليهود. إن فكرة أن الصراع لا يشمل كراهية غير مبررة فحسب إنما قوميات متنافسة، مفهوم لا يجد له مكانًا فى إطار المرجعية، حتى يومنا هذا فى الولايات المتحدة.

إن هذه الرؤية الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية ليست وليدة اليوم أو حتى الأمس القريب بل تعود إلى فترات طويلة بحيث أصبحت جزءًا أساسيًا فى التفكير الأمريكى.. وقبل ٤ سنوات أصدرت الكاتبة الأمريكية كاثلين كريستسن كتابًا حول تأثير هذه الانطباعات على صنع السياسة الخارجية الأمريكية بشأن الشرق الأوسط تناولت فيه تطور هذه الرؤية والانطباعات على صنع السياسة تجاه القضية الفلسطينية فى كل إدارة أمريكية منذ وودرو ويلسون الذى تزامن عهده مع إصدار وعد بلفور عام ١٩١٧. واختارت مجلة «وجهات نظر».. أن تنشر الفصل الخاص بسياسة إدارة الرئيس السابق بيل كلينتون من هذا الكتاب الذى سيصدر قريبًا باللغة العربية عن دار قدمس فى دمشق.

قبل ستة أشهر من انتهاء سنوات مدة رئاسته الثمانى فى يناير عام (٢٠٠١م) واجه الرئيس بل كلينتون أخيرًا تلك القضايا التى كانت لأكثر من نصف قرن فى صلب الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، وهو الصراع الذى اعتقد أنه يعرفه جيدًا وأنه ينتظر الحل. فى الحقيقة، لم يكن الحل النهائى للصراع قريبًا، وهناك رأى بأنه لم يكن لدى كلينتون، فى الحقيقة، فهم جيد للصراع وجذوره، وللقضايا التى تكتنفه ولوجهات نظر الفلسطينيين وإسرائيل.



عندما أنهى كلينتون مدة ولايته، كانت عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية على وشك الانهيار التام. ففى يوليو من عام (٢٠٠٠م) سعى كلينتون لإنهاء العملية السلمية باستدعاء الزعماء الإسرائيليين والفلسطينيين إلى مؤتمر قمة فى كامب دفيد، للتعامل مع أكثر قضايا الصراع حرجًا. وبعد أسبوعين من المفاوضات المكثفة، انهار مؤتمر القمة جراء فجوات واسعة بخصوص قضايا مثل مطلب إسرائيل أن تبقى المستوطنات الإسرائيلية فى مكانها فى الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية؛ والإصرار الفلسطينى على بسط السيطرة على معظم القدس الشرقية؛ ومآل ما يقارب من ثلاثة ملايين لاجئ فلسطينى ممن كانت ديارهم أصلاً فى إسرائيل. وبعد شهرين، أى فى سبتمبر من عام (٢٠٠٠م) فإن زيارة استفزازية قام بها الزعيم السياسى اليمينى الإسرائيلى أرييل شارون إلى موقع مقدس للمسلمين واليهود على حد سواء، وما تبع تلك الزيارة من قتل سبعة فلسطينيين من المحتجين غير المسلحين على أيدى جنود إسرائيليين، فجرت انتفاضة عنيفة قام بها الفلسطينيون على امتداد الأراضى المحتلة. وقد أطلق على تلك الانتفاضة، الشبيهة بالانتفاضة الفلسطينية التى اندلعت فى عام (١٩٨٧م) اسم انتفاضة الأقصى، وهو اسم المسجد الذى انطلقت منه. إحباطات الفلسطينيين العميقة، التى تراكمت طوال سبع سنوات من عملية سلمية بدت للفلسطينيين محكومًا عليها بالاستمرار بشكل لانهاية له ودون تقدم، والذى بدا بدوره بعيدًا من وضع حد للاحتلال الإسرائيلى، ومتيحًا لإسرائيل أن تعزز من سيطرتها، انفجرت بمسيرات قذف شباب فلسطينيين، وإطلاق الشرطة الفلسطينية وأفراد من الميليشيا غير الرسمية النار. أدى رد إسرائيل العنيف الذى تضمن إطلاق قناصة إسرائيليين النار على رماة الحجارة وهجمات دبابات وقصف مروحيات على المنشآت الفلسطينية، إلى سقوط ضحايا فى صفوف الفلسطينيين بلغ عددهم فى يناير من عام (٢٠٠١م) عندما انتهت مدة ولاية كلينتون فى البيت الأبيض (٣٥٠) تقريبًا، معظمهم من الشباب. والفلسطينيون قتلوا حوالى خمسين إسرائيليًا، بمن فيهم جنود شاركوا فى إطلاق النار، وبعض المدنيين الذين سقطوا جراء هجمات الإرهابيين، قامت بها مجموعات من الأصوليين الإسلاميين، أو أنهم قتلوا جراء هجمات القناصة على الطرق العامة فى الأراضى المحتلة.

وبعد انقضاء ستة أشهر من مؤتمر كامب دفيد، ومع المفاوضات المستمرة المتقطعة، والجهد المكثف الأخير الذى بذله كلينتون ليصوغ اتفاقية خلال شهره الأخير فى السلطة، عجز الجانبان عن حل الخلافات الحادة المتبقية. وبعد مرور أقل من ثلاثة أسابيع على انتهاء ولاية كلينتون، اختار الناخبون الإسرائيليون، الذين خاب أملهم باحتمالات السلام، والغاضبون على رئيس الوزراء السابق إيهود باراك الذى قدم للفلسطينيين تنازلات رأوا أنها مبالغ فيها، شارون رئيسًا للوزراء. أما شارون، المعارض العنيد للعملية السلمية التى بدأت بالتوقيع على اتفاقيات أوسلو فى عام (١٩٩٣م)، فقد أعلن خلال حملته الانتخابية أن عملية أوسلو قد ماتت، ووعد ألا يقدم المزيد من التنازلات عن الأراضى للفلسطينيين، وألا يتخلى عن أى جزء من القدس، أو أى أراض فى الضفة الغربية وغزة تتجاوز نسبتها الـ (٤١٪) التى قدمت للحكم الذاتى الفلسطينى، الجزئى أو الكامل.

وفى الوقت ذاته، كان الفلسطينيون أيضًا فى حالة من التشوش. فالقيادة لم تكن مسيطرة على المنظمات الفلسطينية المنشقة، خاصة المجموعات الإسلامية الأصولية، ولم تكن قادرة أن تسيطر بشكل كامل على «الشارع» وعناصر الميليشيات الذين كانوا على رأس الانتفاضة. بدأت الانتفاضة، التى اندلعت احتجاجًا على الفساد الكامن فى مستويات القيادة العليا، بالالتفات إلى نفسها ومهاجمة الفلسطينيين الآخرين الذين يعتقد أنهم متورطون بالفساد أو متعاونون مع إسرائيل. ومع أن القيادة استمرت بالالتزام بعملية السلام، إلا أنها كانت منقسمة حول نوع التسويات ومداها، التى يجب على الفلسطينيين أن يقدموها لإسرائيل ليتم التوصل إلى اتفاقية سلام نهائية، كما أنها افتقدت حتى أى رؤية أو استراتيجية طويلة الأمد لتحقيق السلام.

مما يدعو للسخرية حقيقة أن كلينتون أقام مع الفلسطينيين روابط أوثق مما قام به أى رئيس سابق، لكن ذلك لم يكن كافيًا لحل مشاكل جوهرية صعبة؛ فمن الأمور التى افتقدت فهم القضايا ذات الأهمية الحاسمة للفلسطينيين وتناولها بطريقة مساوية لتلك المهمة للإسرائيليين. لقد كان إطار كلينتون المرجعى، مثل صناع سياسة الولايات المتحدة لما يقرب من قرن من الزمان، منحازًا لإسرائيل، ومع روابط الصداقة السطحية بالزعماء الفلسطينيين، فقد استمر حتى نهاية ولايته فى التوسط من منظور تركز بشكل رئيسى على اهتمامات إسرائيل، بدلاً

لقد كان إطار كلينتون المرجعى، مثل صناع سياسة الولايات المتحدة لما يقرب من قرن من الزمان، منحازًا لإسرائيل، ومع روابط الصداقة السطحية بالزعماء الفلسطينيين



فلسطين فى العقل السياسى الأمريكى

تأليف: كاثلين كرستسن

ترجمة: مفيد عبدونى، مراجعة: زياد منى

دمشق: دار قدمس، (يصدر قريبا)، ٥٠٠ ص.

العقل الأمريكى

من أن يكون مرتكزًا على هموم الطرفين بشكل متساو.

كان تركيز كلينتون منصبًا على الدوام على عملية صنع السلام، بدلاً من الجوهر. فقد استقبل الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات ثلاث عشرة مرة فى البيت الأبيض، أكثر من أى زعيم آخر فى العالم؛ وتعامل بشكل ودى ومألوف مع المفاوضين الفلسطينيين؛ وتفرغ مرتين لمفاوضات مطولة مع الفلسطينيين، خلال تسعة أيام التى احتيج إليها للتوصل إلى اتفاقية «واى» (Wye) فى عام (١٩٩٨م) والأسبوعين الموقوفين لقمة كامب دفيد المخفقة؛ وكان على دراية بجغرافية الضفة الغربية والقدس الشرقية إلى حد جعل تباهيه بقدرته على رسم خريطة وهو نائم، لكن كلينتون لم يتوصل إلى فهم عميق للقضايا الجوهرية الحاسمة التى فصلت بين الفلسطينيين والإسرائيليين حتى نهاية رئاسته، عندما أطلق، بشكل متأخر للغاية، مجموعة من الاقتراحات التى حددت الإدارة الأمريكية فيها لأول مرة موقف الولايات المتحدة إزاء القضايا الرئيسية.



مع نهاية ولاية كلينتون، كانت الولايات المتحدة قد تورطت بعمق فى الأزمة العربية-الإسرائيلية لمدة دامت أطول من الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. فمنذ خمسين عامًا أضحى الجميع، من معلقى وسائل الإعلام إلى الشعب بشكل عام، إلى صناع السياسة أنفسهم، منهكين بسببها. وقاد الإنهاك إلى فقدان الصبر، الذى أدى بدوره إلى ميل الولايات المتحدة لعدم الاهتمام بقضايا لم تكن ذات شأن كبير للأمريكيين، لكنها موضع اهتمام حيوى للجانبين. وما عناه ذلك، عمليًا، أنه، ومع أن الفلسطينيين رأوا اقتراحات إسرائيل فى كامب دفيد غير كافية إطلاقًا لخلق دولة فلسطينية، قادرة على الحياة، على أراض متصلة، وذات ما يعدونها عاصمة جديرة بالاحترام، فإنهم تعرضوا لضغوط شديدة، على كل مستويات الخطاب الجماهيرى فى الولايات المتحدة، ليقبلوا ما عرض عليهم، ذلك أن الوقت كان يمضى بسرعة. من ناحية أخرى، حظيت إسرائيل بترحيب وإشادة كبيرين لأنها تزحزحت عن موقف الحد الأقصى، ولأن عددًا قليلاً من الأمريكيين كان يتمتع بفهم عميق للقضايا، ولأن كلاً من إسرائيل والولايات المتحدة كانتا فى عجالة من أمرهما، وكان الإصرار الفلسطينى على تمحيص القرارات ودراستها حتى يتم ضمان الاستقرار وقابلية التطبيق فى دولة فلسطينية يعدُّ



كاثلين كريستسن

عنادًا. وهكذا، ففى صراع محكوم بالمفاهيم أكثر منه بالحقائق، حل فقدان الصبر محل القرارات الحقيقية.

رغم أن كلينتون أوشك على إنجاز اختراق (درامى) فى مفاوضات السلام الفلسطينية-الإسرائيلية، فإنه أخفق فى النهاية فى التحرر من ذات النهج السياسى الذى حد من التفكير، ولم يفلت من سياسة معظم سابقيه من الرؤساء، ذلك النهج السياسى الذى ركز على الدوام على إسرائيل واهتماماتها بشكل أساسى، بدلاً من التعامل مع اهتمامات الفلسطينيين والإسرائيليين ووجهات نظرهم بشكل متساو. لم يعد كلينتون وفريقه من صناع سياسة الشرق الأوسط أنفسهم محابين لطرف فى الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى، كما أنهم جادلوا ضد أى توكيدات بأن بؤرة اهتمام إدارتهم كانت أى شىء عدا أنها متوازنة. لكن يبقى الجدل قائمًا بخصوص من أن إخفاق كلينتون فى دفع المفاوضات للتوصل إلى نتائج ناجحة، مع تركيزه الشديد على عملية التفاوض طوال الأشهر الستة الأخيرة من ولايته، كان يعزى للانحياز لإسرائيل المهيمن سلفًا على طريقة سياسة إدارته، وإخفاقه أن يفهم ويركز بشكل متساو على وجهة النظر الفلسطينية أيضًا إزاء القضايا موضع التفاوض. وبإشراف دنس روس، الذى عمل فى وزارة الخارجية كمنسق خاص فى الشرق الأوسط طيلة مدتى ولاية كلينتون، وكان مهندسًا رئيسيا لسياسة الإدارة للقضايا الفلسطينية الإسرائيلية، سمح كلينتون وصناع سياسته لإسرائيل باستمرار بتحديد منطلق مفاوضات السلام، وكذلك جدول أعمالها ووتيرتها.

فى مطلع ولاية كلينتون الأولى، على سبيل المثال، بدأت الولايات المتحدة تقلل من أهمية قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم (٢٤٢) كنقطة بداية للمفاوضات، وذلك، دون ريب، لأنه كان مطلبًا تفضله إسرائيل. إن عدم تشديد إدارة كلينتون على أهمية القرار رقم (٢٤٢) غيّر من هدفه الأصلى: ففى حين أن القرار يفترض، كما جاء فى نصه، أن الأراضى المحتلة هى أراض عربية يمكن لإسرائيل أن تفاوض حول تعديلات عليها، جاء مفهوم الولايات المتحدة فيما يخص الأراضى المحتلة فى فلسطين، الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية، ليطرح أن تلك الأراضى فى مجموعها وكليتها إما أراض إسرائيلية، أو أراض متنازع عليها، والتى يجب على الفلسطينيين أن يفاوضوا بشأنها إن أرادوا السيادة، وإنهاء الوجود العسكرى والمدنى الإسرائيلى الكبير. إن الخط الذى اقترحه ناطقون باسم الإدارة الأمريكية، أثناء مؤتمر القمة فى كامب دفيد فى يوليو ٢٠٠٠م وبعده، والذى يشير إلى أنه ليس بإمكان أى جانب أن يتوقع الحصول على كل شىء يريده فى المفاوضات، كان موجهًا للفلسطينيين، ويحمل رسالة مضمونها أنه خلافًا للتوقعات السابقة، يجب على الفلسطينيين أن يحضروا عملية السلام وهم متوقعون المساومة حول الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية، وليس الحصول عليها وإعادتها.

بذلك غيرت إدارة كلينتون بشكل مثير نقطة البدء لعملية السلام. فنقطة البدء المرغوبة للفلسطينيين هى القرار رقم (٢٤٢) وفق التفسير الأصلى. والفلسطينيون شعروا بأنهم قدموا جميع التسويات التفاوضية الرئيسية فى عام (١٩٨٨م) عندما وافقت منظمة التحرير الفلسطينية على شروط مسبقة وضعتها الولايات المتحدة لإشراك الفلسطينيين فى عملية السلام، بما فى ذلك قبولها القرار رقم (٢٤٢) والاعتراف بإسرائيل، وحقها فى الوجود. وهم بعملهم هذا، فإنهم يتخلون عن مطالبهم فى تلك الأجزاء من فلسطين التى تقع داخل حدود إسرائيل قبل عام (١٩٦٧م). وإسرائيل، من ناحية أخرى، لا تعترف بانطباق القرار رقم (٢٤٢) على الضفة الغربية وغزة أو القدس الشرقية، ولم تقبل أبدًا مبدأ انسحاب كامل. ولكى تضمن أمنها بشكل أفضل، وبسبب التعلق العاطفى الشديد الذى يشعر به الإسرائيليون تجاه الضفة الغربية والقدس الشرقية خاصة، أرادت جميع الحكومات الإسرائيلية الاحتفاظ بكل المستعمرات أو معظمها، التى أقيمت فى الضفة الغربية وغزة، وكل المستعمرات التى أقيمت بشكل خاص فى القدس الشرقية. وبتفسيرها وتأويلها الجديد لمعنى القرار رقم (٢٤٢) تكون إدارة كلينتون قد قوضت منذ البدء أسس

حتى بعد اندلاع انتفاضة الأقصى كان لدى الساسة الأمريكان إدراك بسيط لمعاناة الفلسطينيين اليومية، أو للسبب الذى جعلهم يشعرون أن عملية السلام أثبتت عدم ملاءمتها



الموقف التفاوضى الفلسطينى، وتبنت نقطة البدء الإسرائيلية فى المفاوضات.

وبجعل الأمن الإسرائيلى موضع الاهتمام الطاغى للولايات المتحدة فى المفاوضات، والهدف الرئيسى لعملية السلام، منح مفاوضو إدارة كلينتون الإسرائيليين أيضًا الحق فى وضع جدول أعمال المفاوضات. فى معظم الأحيان، كان ينظر إلى القضايا التفاوضية وفق الأولويات الإسرائيلية. فعلى سبيل المثال، حظيت ضمانات أمن إسرائيل بأولوية أكبر من أى ضمانات مشابهة للفلسطينيين، أو أى جهد لسحب القوات الإسرائيلية من الأراضى المحتلة، أو فى إزالة المستوطنات من الأراضى المحتلة. إن أوضح مثال على الأولويات الإسرائيلية لأمن إسرائيل حدثت فى يناير عام (١٩٩٧م) عندما توسط روس وفريقه من المفاوضين لإبرام اتفاقية بين حكومة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو والسلطة الفلسطينية، حول إعادة انتشار القوات الإسرائيلية فى مدينة الخليل. فقد أجلت إسرائيل إعادة الانتشار، الذى كان مقررًا له أن يحدث فى مارس عام (١٩٩٦م) إثر عمليات انتحارية بالمتفجرات قام بها إرهابيون فلسطينيون. أكد وزير الخارجية وارن كريستوفر فى رسالة تطمين إلى نتنياهو أن «العنصر الأساسى» فى تناول الولايات المتحدة للسلام، «سيبقى على الدوام الاعتراف بالمتطلبات الأمنية لإسرائيل»، مضيفًا أن الولايات المتحدة ملتزمة بمساعدة إسرائيل على مواجهة «الحاجات الأمنية التى تحددها». وتزامنًا، أصدر متحدث باسم وزارة الخارجية بيانًا يوضح فيه أن توقيت ومواقع ثلاث عمليات من عمليات إعادة الانتشار الإسرائيلى فى الضفة الغربية، كما جاءت فى اتفاقية الخليل، «هى قضايا تقوم إسرائيل بتنفيذها، وليست قضايا للتفاوض بشأنها مع الفلسطينيين».



دعا جدول الأعمال الذى وضعته اتفاقيات أوسلو كل الأطراف إلى البدء فى التعامل مع قرارات الوضع النهائى «بأسرع ما يمكن» فى فترة مرحلية محددة لا تتجاوز مايو عام (١٩٩٧م) والتوصل إلى حل لتلك القضايا، أى: اتفاقية سلام نهائية، بحلول مايو / آيار عام (١٩٩٩م). وبسبب إخفاق حكومة نتنياهو فى استكمال انسحاب القوات الإسرائيلية المطلوبة خلال مرحلة مؤقتة، وبسبب عجز حكومة باراك فيما بعد عن تنفيذ التواريخ المحددة، تم التمديد حتى سبتمبر من عام (٢٠٠٠م). وخلال تلك الفترة الطويلة من التأخير، لم تجر أى محادثات جدية لأى قرارات جوهرية. بدأ المفاوضون الفلسطينيون والإسرائيليون محادثات الوضع النهائى فى أواخر عام (١٩٩٩م) لكنها سارت بشكل متقطع وغير حاسم، ونادرًا ما تناولت القضايا القائمة، وغالبًا ما كانت تنفض لخلافات حول أمور لا تمت للقضايا النهائية بصلة. وطوال السنوات السبع السابقة على انعقاد محادثات كامب دفيد، لم يستعجل مفاوضو الولايات المتحدة الأطراف ليتوجهوا إلى مهمة تناول تلك القضايا الأكثر خطورة، ومن الأمور التى يمكن معرفتها لم تهيأ أوراق خاصة للوضع، واستكشاف التعقيدات والنشاطات الجوهرية للقضايا، أو سبر نقاط اتفاق وخلاف محتملة. وفى الحقيقة، فمن الصواب أن نقول إنه مع أن تلك القضايا كانت أصعب الأمور وأكثرها أهمية استراتيجيًا، وأكثرها قضايا عاطفية فى الصراع تتناول صلب قرارات الهوية الاجتماعية والأمن الوطنى لكلا الطرفين، لم يعمل الإسرائيليون والفلسطينيون والأمريكيون على إعداد أرضية لما كان يُتوقع أن يكون أصعب مرحلة حتى الآن من مراحل عملية السلام.

فى غضون ذلك، وبينما أتاح مفاوضو الولايات المتحدة لعملية السلام أن تتوقف، تابعت إسرائيل تغيير الوضع على الأرض، فى الأراضى ذاتها التى هى قيد المفاوضات، وذلك باستمرارها فى بناء مستوطنات أساسية وشبكة واسعة من الطرق تصل بين المستوطنات، والاستمرار فى نقل المدنيين الإسرائيليين إلى تلك الأراضى. وخلال السبع سنوات التى تلت التوقيع على اتفاقيات أوسلو ازداد عدد المستوطنين الإسرائيليين فى الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية ليصل إلى (٥٠٪) تقريبًا، من (٢٥٠) ألف مستوطن تقريبًا إلى حوالى (٣٧٠) ألف مستوطن، معظمها بتشجيع حكومة باراك الموالية للسلام، وكذلك من حكومة نتنياهو المتشددة الموالية لإنشاء المستوطنات. وترى منظمة العفو الدولية أن شبكة الطرق والمستوطنات فى الضفة الغربية بنيت فوق أراض مصادرة من أفراد وقرى فلسطينية تفصل المناطق الواقعة تحت السيطرة الفلسطينية، إلى أكثر من مائتى قطعة من الأراضى ليست مناطق متصلة. أما فى القدس الشرقية، فقد ألغت إسرائيل بين الأعوام (١٩٩٥-٢٠٠٠م) تصريحات إقامة أكثر من ثلاثة آلاف عائلة فلسطينية، تمثل آلاف الأشخاص الإضافيين، كما هدمت بيوتًا للفلسطينيين شيدت بدون تصاريح، كما شجعت أعدادًا ضخمة من الإسرائيليين لتستوطن القدس الشرقية وتبنى بيوتًا لها فيها.

ومع اقتراب نهاية عهد كلينتون، بدأ هو ومساعدوه يختلقون ذريعة فى أن الفلسطينيين عرقلوا عملية السلام من خلال «زرع عداء فى المجتمع». فهم لم يشكوا فقط لجوء الفلسطينيين إلى العنف بانتفاضتهم التى اندلعت فى سبتمبر عام (٢٠٠٠م)، بل أيضًا لأن الفلسطينيين أخفقوا فى حذف النصوص المعادية لإسرائيل من الكتب المدرسية المقررة، وواظبوا فى التحريض على الكراهية فى نشرات الإذاعة والتليفزيون، مما يعد انتهاكًا لاتفاقيات أوسلو. استغل روس ذلك الموضوع فى مقابلاته الصحفية، كما استغلها كلينتون فى خطاب سياسى رئيسى قبل أسبوعين على انتهاء ولايته. وذكر روس فى إحدى مقابلاته أن «المفاوضات ليست مجرد حلول فنية، بل هى تدور حول إيجاد مناخ». كما أردف قائلاً: إنه طيلة عملية السلام، واظب الفلسطينيون على «خلق عداء اجتماعى بدلاً من التحضير لصنع سلام مع جيرانهم». وكلينتون انتقد أيضًا الفلسطينيين لإثارة العنف، وقال: «إنه يجب أن تكون المحادثات مقرونة بالأفعال، التى تثبت الثقة والشراكة. إن النوايا الطيبة على طاولة المفاوضات غير قادرة على البقاء إلى الأبد وليست أطول عمرًا من النوايا السيئة على الأرض».



بجعل الأمن الإسرائيلى موضع الاهتمام الطاغى للولايات المتحدة فى المفاوضات، والهدف الرئيسى لعملية السلام، منح مفاوضو إدارة كلينتون الإسرائيليين أيضًا الحق فى وضع جدول أعمال المفاوضات



اتسمت سياسة إدارة كلينتون، طيلة معظم سنواتها فى السلطة بالتشديد الكبير على عملية صنع السلام على حساب جوهرها. اعتقد صناع السياسة فى الإدارة، بقيادة روس خاصة، أن مشاركة الولايات المتحدة فى قرارات حاسمة، يجب أن تكون فى حدها الأدنى، وأنه يجب أن يسمح للطرفين أن يتقدما وفق تسارعهما، تفاوض بالجوهر دون تدخل خارجى، حيث يعتقد فريق كلينتون أنها تميل نحو الإضرار بالمفاوضات. مع أن ذلك التعامل يزعم أنه يتبنى موقفًا حازمًا من الحياد، فى موقف تكون فيه إسرائيل الطرف الأقوى، بسيطرتها ماديًا على كل الأراضى الخاضعة للتفاوض، والفلسطينيون فى موقف لا مخرج لهم منه سوى موقف لفظى لدفع موقفهم للأمام، فإن طريقة رفع أيدى الولايات المتحدة عن المفاوضات وعدم تدخلها كوسيط، ربما يصطف بقوة وراء إسرائيل، ويطلق لها حرية كاملة للتفاوض أو لرفض التفاوض إدراكًا منها لحاجاتها التى هى أدرى بها، وتتيح لها الحرية لتتخذ خطوات تراها ضرورية لمصالحها الأمنية الخاصة بها، حتى لو حالت تلك دون تحقيق مزيد من المفاوضات.

ومن منظور صنع السياسة، عندما يكون التشديد الرئيسى منصبًا على العملية ذاتها، لا يكون الوسيط بحاجة كبيرة لمعرفة النقاط الجوهرية، وبالتالى لا يتوافر سوى دافع بسيط لمعرفتها. إن الدافع لتحقيق مزيد من العمليات، وجمع الأطراف معًا على طاولة المفاوضات، فى عملية مفاوضات مستمرة، يمكن أن يكون الجوهر حينها غامضًا فعلاً. وفى حالة الصراع الفلسطينى-الإسرائيلى، فإن تركيز صناع السياسة فى الولايات المتحدة الفردى على العملية بحد ذاتها، أدى إلى إخفاء المعاناة الأساسية التى تشكل دافعًا أوليًا للفلسطينيين من مجال رؤياهم، أو إلى تجاهلها. ويبدو أنه وحتى وقت طويل بعد اندلاع انتفاضة الأقصى كان لدى صناع السياسة إدراك بسيط لما يعنيه الاحتلال الإسرائيلى المستمر لحياة الفلسطينيين اليومية، ولما أراده الفلسطينيون من المفاوضات، أو للسبب الذى جعل الفلسطينيين، بعد سبع سنوات من الاحتلال الإسرائيلى المستمر بعد أوسلو، يشعرون أن عملية السلام أثبتت عدم ملاءمتها. أطلع الرسميون فى الولايات المتحدة الصحافة، بعد أن بدأت الانتفاضة، أنهم أخفقوا فى التوصل إلى عمق الإحباط الذى يجيش بين أوساط السكان

الفلسطينيين؛ فصناع السياسة كانوا فى سبات عندما كانوا يعتقدون أن كل شىء على ما يرام على الأرض، من خلال ما شاهدوه من روابط شخصية مضللة بين الإسرائيليين والمفاوضين الفلسطينيين. وذلك يُعدُّ دليلاً واضحًا عن كيف يمكن أن يعمى التركيز على العملية (العلاقات بين المتفاوضين) أنظار المشاركين بعمق فى مفاوضات الجوهر (حقائق الحياة فى ظل الاحتلال الإسرائيلى). والفلسطينيون أنفسهم لاحظوا أن تشديد الولايات المتحدة على العملية، يؤدى إلى خلق «مفهوم مزيف للحالة السوية»؛ فالأطراف تجتمع، وذلك وحده يعتبر تقدمًا عندما كان السخط الفلسطينى يتفاقم فى الواقع، لأنه لم يتم إحراز أى تقدم على الأرض، وكانت هموم الفلسطينيين الأساسية «تحرف عن مسارها باستمرار من أجل الحفاظ على المحادثات».



إن الظلم المتأصل فى طريقة تناول إدارة كلينتون لعملية السلام الفلسطينية– الإسرائيلية، يكمن فى إخفاقها أن تدرك أن انحيازها الكلى إلى جانب واحد لضمان أمن إسرائيل الكامل يعنى بالضرورة أمنًا غير مستقر للفلسطينيين. عمل كلينتون وفريقه لصنع السياسة، الذى من المسلم به أن يكون قد بدأ منذ زمن بعيد استيعاب النهج السياسى المنحاز لإسرائيل، والسائد بين أوساط الأمريكيين، على أساس أن مخاوف إسرائيل الأمنية عميقة جدًا، وأن مهمة الولايات المتحدة الأولية، من خلال علاقات متكافئة فريدة بينها وبين إسرائيل، أن تتغلب على تلك المخاوف. وبالنتيجة، مال صناع السياسة إلى اتخاذ موقف يكونون فيه غير قادرين أن يروا حاجات الفلسطينيين الأمنية، ومعرفة السبب الذى جعلهم يشعرون أن عملية السلام قصرت فى ضمان تلك الحاجات. والوسيط الذى يشدد على الهواجس الأمنية لطرف واحد، ويتجاهل أو يغض النظر عن الهموم والهواجس الأمنية للطرف الآخر، لا يعد وسيطًا منصفًا.

يبدو أنه كانت لدى كلينتون ذاته عواطف حقيقية تجاه الفلسطينيين والإسرائيليين، وقد سماها مرة «الألم المروع» الذى يعيشه الفلسطينيون فى ظل الاحتلال، إضافة إلى معاناة اليهود الماضية، «والرغبة العميقة للإسرائيليين فى العيش دون مخاوف». وقد تمتع كلينتون بقدرة فذة تمكنه من أن يتحدث مع الآخرين عن مشاكلهم، بطرق سطحية على الأقل، مع أن قدرته الضليعة «أن يشعر بألمك» كان موضوعًا يدعو للاستهجان والسخرية السياسية، وقد توافرت لديه تسهيلات فريدة لينقل إحساسًا من التعاطف تجاه مشاكل الآخرين. لكن فى النهاية كانت هويته العاطفية تجاه إسرائيل أقوى بكثير من مشاعره تجاه الفلسطينيين وهمومهم. كان فهم كلينتون للفلسطينيين، وما كان يعنيه الاحتلال لحياتهم اليومية سريع الزوال، لا يعبر عنه إلا فى لحظات عارضة، عندما تتم مواجهته مباشرة بتلك الحقائق، مثلما حدث ذات مرة عندما سافر إلى غزة فى ديسمبر عام (١٩٩٨م) والتقى شخصيًا بالمواطنين الفلسطينيين. إن مما يلفت النظر أنه ورغم أن كثيرًا من الفلسطينيين رحبوا به بعد خطابه فى غزة، كأول رئيس فهم حقًا حالة الفلسطينيين والمأزق الذى يعيشون فيه، لم يكرر عواطفه التى عبر عنها فى غزة، رغم إشاراته المتكررة عن فهمه مخاوف إسرائيل الأمنية.

إلا أن وجهة نظر مساعدى كلينتون كانت منحازة على الدوام إلى جانب مصالح إسرائيل. وكان كل من روس وأعضاء آخرين كبار فى فريق السلام، منهم أهارون دفيد ملِّر ومارتن إندك، ملتزمين بإسرائيل شخصيًا وعاطفيًا. فقد عاشوا جميعهم فى إسرائيل قبل انخراطهم فى الخدمة الحكومية الأمريكية، وغالبًا ما كانوا يقضون إجازاتهم هناك. وفى إحدى المرات أعرب كل من ملِّر وإندك فى مقابلة صحفية عن مشاركتهما الشخصية والمهنية فى عملية السلام، وأنها كانت متلاحمة إلى حد لم يستطيعا فيه أن يحددا أين توقف الأول منهما وأين بدأ الثانى. وصرح إندك أن اللحظة المحددة فى حياته أتته عندما كان يعيش فى إسرائيل أثناء حرب عام (١٩٧٣م) عندما قرر أن يجند نفسه للمساعدة فى حل الصراع، واستنتج أن مشاركة الولايات المتحدة كانت مهمة وحساسة لإنهاء الصراع ولأجل «الدفاع عن إسرائيل». وروس قال إن كونه يهوديًا زاد من اهتمامه بالمشكلة العربية الإسرائيلية.

وأخيرًا، فإن السبب الأساسى لارتفاع وتيرة العداء المفاجئ تجاه الفلسطينيين، هو هيمنة نهج سياسى ينحو إلى أن يهتم بوجهة نظر الإسرائيليين وليس الفلسطينيين، حيث عد الإسرائيليين أناسًا متحضرين يشبهون الأمريكيين، بينما رأى الفلسطينيين والعرب عمومًا أناسًا متوحشين وغير متحضرين. يمثِّل محرر الافتتاحية الذى تساءل حول «طبيعة» الفلسطينيين جميعًا، لأن بعضهم قد قتل مدنيين إسرائيليين أبرياء، دون أن يخطر على باله أن يسأل عن طبيعة جميع الإسرائيليين، لأن بعضهم قد قتل مدنيين فلسطينيين أبرياء عددًا كبيرًا من الأمريكيين الذين يرون الصراع وعملية السلام من خلال إطار للمرجعية منحاز نحو إسرائيل ومصالحها فقط. ثمة رأى شائع نشأ من إطار مرجعية تجاهلت وجهة نظر الفلسطينيين، يرى أن الفلسطينيين يتصرفون انطلاقًا من كراهية عمياء، وليس من معاناة مشروعة، وهو رأى تم التعبير عنه، على سبيل المثال، فى مجلة «تايم» فى الأشهر الأولى من الانتفاضة، حيث تعزوها إلى الكراهية.



تحدث كلينتون نفسه وكذلك فريقه فى صنع السياسة، من حين لآخر فى الأشهر الأخيرة من رئاسته، كيف أن الفلسطينيين والإسرائيليين كانوا قريبين جدًا فى مواقفهم التفاوضية، بعد قمة كامب دفيد. كان الطرفان فعلاً قريبين أكثر مما كانوا عليه من قبل من أجل التوصل إلى اتفاقية نهائية؛ فقد عرض باراك، كما يتباهى بذلك ومؤيدوه فى الولايات المتحدة، مزيدًا من التنازلات بخصوص مدينة القدس والمستوطنات الإسرائيلية أكثر من أى رئيس وزراء إسرائيلى سابق. لكن الهوة بين الطرفين بقيت شاسعة بالمعنى المطلق. كان الطرفان «قريبين» من التوصل إلى اتفاقية نهائية لأن القضايا النهائية لم يتم التطرق إليها قبلاً؛ كانت تنازلات باراك مهمة جدًا ليس لأنها تنازلت إلى حد كبير، بل لأن إسرائيل لم تقدم تنازلات حول القدس أو المستوطنات قبلاً.

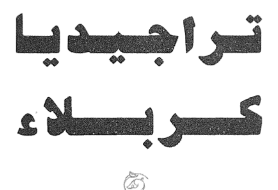


ربما يكون من الدقة أن نحكم على التقدم الذى تم إحرازه فى عملية السلام خلال سنوات ولاية كلينتون إن نحن قدرنا التقدم الحقيقى على الأرض مقابل ما هو فى توقعاتنا. ففى بداية عملية سلام أوسلو كان التوقع العام، مبنيًا على قرار الأمم المتحدة رقم (٢٤٢) وعلى سياسة الولايات المتحدة سابقًا، أن اتفاقية السلام النهائية سوف تسفر عن انسحاب إسرائيلى عسكرى ومدنى من كل الضفة الغربية وغزة ما عدا جزءًا صغيرًا منها، إضافة إلى تقاسم السيادة بين الفلسطينيين وإسرائيل فى القدس الشرقية. إن «المقاييس» التى عرضها كلينتون فى نهاية ولايته تقدم أسسًا لصيغة عادلة لمثل أى اتفاقية فى المستقبل. لكنها جاءت متأخرة. لم يتحقق عمليًا أى شىء من توقعات أوسلو ولمدة تتجاوز أكثر من سبع سنوات فى عملية سلام، ترمى إلى التوصل إلى نتائج سريعة وسهلة نسبيًا. انسحبت إسرائيل من بعض المناطق فى الضفة الغربية وغزة، مانحة الفلسطينيين حكمًا ذاتيًا كاملاً فى المدن الفلسطينية، لكن شملت تلك المناطق (١٧٪) من أراضى الضفة الغربية. وبعد سبع سنوات، احتفظت إسرائيل بسيطرتها العسكرية والمدنية على (٨٣٪) من أراضى الضفة الغربية، وكذلك ربع أراضى غزة. بقيت مدينة القدس الشرقية تحت السيطرة الإسرائيلية الكاملة. ازدادت أعداد المستوطنين الإسرائيليين، والمستوطنات، وشبكة الطرق المتقاطعة المتصالبة فى الأراضى المحتلة، ونقاط التفتيش التى تمنع تنقلات الفلسطينيين. واستمر أمن (٣٧٠,٠٠٠) مستوطن إسرائيلى يحظى بالأولوية عن أمن ونوعية حياة ثلاثة ملايين فلسطينى تقريبًا.

فى نهاية المطاف، أخفقت إدارة كلينتون فى إنجاح عملية السلام جراء اختلال هذا التوازن. لقد نفد الوقت أخيرًا لتحقيق اتفاقية راسخة متوازنة، لأن التركيز الرئيسى لإدارة كلينتون كان فى النهاية تلبية حاجات الأمن الإسرائيلية، وليس حاجات كلا الطرفين. ■

خلال السبع سنوات التى تلت التوقيع على اتفاقيات أوسلو ازداد عدد المستوطنين الإسرائيليين فى الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية ليصل إلى (٥٠٪) تقريبًا، من (٢٥٠) ألف مستوطن تقريبًا إلى حوالى (٣٧٠) ألف مستوطن





تراجيديا كربلاء

فاروق عبد القادر

لفت هذا الكتاب اهتمامى منذ قرأته - للمرة الأولى - قبل أكثر من عام. رأيت فيه وجوه امتياز عديدة، لعل أهمها أنه أول دراسة عربية - فيما أعرف - تضع هذه الظاهرة - ظاهرة «التعزية» - فى سياقاتها الموضوعية المتعددة، ثم إنه يلتزم منهجًا علميًا صارمًا فى تناولها (أغلب الظن أن الكتاب دراسة علمية للحصول على درجة من جامعة ألمانية)، تتعدد مصادره ومراجعه (فى اللغة العربية والألمانية بوجه خاص)، وتشمل مصادره دراسة ميدانية قام بها فى «الكاظمية» فى ١٩٦٨، وصاحب الدراسة نفسه - الدكتور إبراهيم الحيدرى - يثبت فى أحد هوامش كتابه عمق جذوره فى صميم موضوع بحثه: فى حديثه عن إنشاء «الحسينيات» كمؤسسات دينية وثقافية فى عراق النصف الثانى من القرن التاسع عشر، يشير إلى أن أولى هذه الحسينيات فى بغداد هى «الحسينية الحيدرية»، وعنها يقول: «شُيدت حسينية آل الحيدرى فى الكاظمية من قبل جدنا الكبير السيد محمد ابن أحمد العطار الحسينى (الحيدرى) عام ١٢٩٧هـ - ١٨٧٦م» (هامش ص ٦٨).

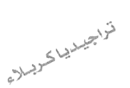
ثم كان ما حدث - ومايزال يحدث - فى العراق. وشهد ملايين الناس زحف الملايين نحو كربلاء ليشاركوا فى «أربعين» إمامهم الشهيد، كجزء متمم للاحتفال بمصرعه فى العاشر من محرم، ولا بد أن هذا الذى شهدوه كان موضع جدل ومناقشة، ولعل بعض ما كان فيه كان محلاً لنقد أو استنكار (خاصة المشاهد المتعلقة بالإيذاء الجسدى)، ورأيت ثمة أهمية مضاعفة لوضع هذا الطقس فى سياقه الموضوعى الذى حاوله صاحب الدراسة. هذا من ناحية. من الناحية الأخرى فإن السياق التاريخى لهذه الظاهرة وتطورها، وما عانته - معظم الأحيان - من قهر من جانب السلطة الحاكمة فى العراق، من أول الدولة الأموية حتى آخر نظام صدام حسين، إنما يلقى الضوء على دلالة الطقس ووظائفه، وبعضه يلقى الضوء على بعض ما يحدث فى عراق اليوم، وما أظن أنه سيتطور فى المستقبل القريب، حين ينتظم الصراع ويشتد بين الدولة الغازية والشعب المحتل، وفى ظنى أن الشيعة سيلعبون فيه دورًا مهمًا، إن لم يكن أهم الأدوار.

يقسم الدكتور إبراهيم الحيدرى دراسته إلى مقدمة وخاتمة وسبعة فصول. أهم فصول الدراسة عندى الفصلان الخامس الذى يتناول «سوسيولوجيا الخطاب الشيعى للعزاء الحسينى»، ثم السادس «الخصائص الفولكلورية للعزاء الحسينى»، ففيهما تتمثل أبرز وجوه أهمية الدراسة كلها على نحو ما سبقت الإشارة.

فيما يتعلق بمضمون الخطاب الشيعى يحدد الباحث موقفه من البداية: «إن هدفنا.. ليس المفاضلة بين خطاب وآخر، ولا الدفاع عن أحدهما ضد الآخر، فأنا لست داعية من الدعاة بقدر ما أنا باحث اجتماعى أحاول دراسة ظاهرة دينية ذات محتوى اجتماعى - سياسى، وهى فى الوقت ذاته ظاهرة فولكلورية شعبية ترتبط بالتراث العربى الإسلامى...».

وليس فينا من يجهل تراجيديا كربلاء أو مأساة الحسين. وليس المرء بحاجة لأن يكون شيعيًا أو متشيعًا كى يتفهم دلالاتها، فقد بقيت فى الضمير الإنسانى كله أسطورة تضحية وفداء، وسعى إلى إثبات الحق وشرعيته فى مواجهة القوة، والتضحية بالحياة ذاتها لإثبات صحة القضية. أما عن الشيعى العراقى - وهو ما يعنينا هنا فى المقام الأول، فقد ارتبطت ثورة الحسين وشخصيته ومبادئه وبطولته وتضحيته بالألم، والألم بالأمل، والأمل بالإنقاذ والخلاص النهائى، من أجل الإرادة الإلهية التى قررت ذلك الألم وتلك الشهادة وذلك الإنقاذ، لأن البشرية لا

تراجيديا كربلاء.
سوسيولوجيا الخطاب الشيعى
إبراهيم الحيدرى
دار الساقى: بيروت، لندن، ١٩٩٩





تستطيع وحدها أن تتغلب على الألم البشرى، وبذلك أصبح الاستشهاد طريق الشفاعة والخلاص، وأصبح الإمام الحسين نفسه «سفينة النجاة»، لأنه ضحى بنفسه لأجلهم فعاش الشهادة بصبره وإرادته وتضحيته بأهله وأصحابه من أجل إنقاذ المسلمين ونجاتهم..(..) إن الاعتقاد باستشهاد الحسين فى سبيل الحق والعدالة، وتحمله آلام التضحية والفداء، لا ينفصل، فى الوقت نفسه، عن مكانة ودور الإمام الحسين فى الشفاعة لشيعته ومحبيه يوم القيامة، والتى تظهر بوضوح وبأشكال مختلفة ومتنوعة فى العزاء الحسينى وفى الأدعية والزيارات».

يرتبط بهذا التصور العام كثير من التفاصيل التى رصدها الباحث حين قام بدراسته «الميدانية» فى الكاظمية فى ١٩٦٨ ـ السنة الأخيرة التى سُمح فيها بإقامة مواكب العزاء على هذا النحو من العلانية ـ واستغرقت ستة شهور، بخاصة فى شهرى محرم وصفر وكذلك «يوم الأربعين» فى كربلاء من تلك السنة. يضيف الباحث: «خلال دراستنا لعاشوراء، بخاصة فى المدن المقدسة: كربلاء والنجف والكاظمية وغيرها.. استطعنا جمع عدد كبير من المعلومات الإثنوجرافية والحقائق الاجتماعية والوثائق التاريخية، وكذلك عدد كبير من الخطب والأحاديث والقصص والأساطير والقصائد الشعرية والمراثى و«الأبوذيات» وغيرها من المعلومات..(..) لقد اعتمدنا فى جمعنا لهذه المعلومات الإثنوجرافية المادية والمعنوية، على طريقة البحث الأنثروبولوجية التى تقوم على الملاحظة العلمية المباشرة وطريقة المعايشة بالمشاركة، إلى جانب المقابلات المباشرة وغير المباشرة مع عدد من علماء الدين والمؤرخين وخطباء المجالس الحسينية ورؤساء المواكب والشعراء الشيعيين والنوّاح وكذلك مع عدد من المشاركين فى العزاء الحسينى والمشاهدين له، على مستويات اجتماعية وثقافية مختلفة ومتعددة..».

من التفاصيل المرتبطة بهذا التصور العام طقوس البكاء والأحزان الجماعية، فالبكاء على الحسين يلعب دورًا مهمًا فى الشفاعة والخلاص، ويعمد قراء المجالس وشعراء المواكب ومنظمو العروض إلى انتقاء التفاصيل القادرة على إثارة العواطف واستدرار الدموع: سقوط العباس بن على، حامل راية الحسين، وهو مقطوع الذراعين، وما جرى بعد ذلك من هجوم جند بنى أمية على مخيمات أهل البيت وإحراقها وخروج الأطفال والنساء خائفين مذعورين، ثم يتحول إلى وصف السيدة ليلى، أم على الأكبر بن الحسين، وهى تودع ولدها الخارج للقتال، ثم حين تنظر إليه يسقط صريعًا، ويصف مصرع القاسم بن الحسن الذى كان شابًا وسيمًا يتأهب للزواج من ابنة عمه الحسين فسقط صريعًا وأُسمى «عريس الهواشم»، ثم يصف مقتل الرضيع عبد الله بن الحسين بسهم مسموم وهو بين يدى أبيه، وموقف الإمام على الأصغر بن الحسين، وهو مريض طريح الفراش، يشهد مصارع أهله، ثم سَبْى النساء والأطفال وهو لا يستطيع شيئًا.



ويضيف الباحث: «تاريخيًا، كانت طقوس الموت والحزن والبكاء معروفة فى المجتمعات والأديان الشرقية القديمة، وبخاصة فى بلاد النهرين، حيث تذكرنا تراتيل البابليين ومناحاتهم على خرائب سومر وأكاد، وكذلك مناحات عشتار على فقيدها إله الربيع المقتول «تموز» فى سومر القديمة، بنواح زينب على أخيها الحسين وليلى على وليدها الأكبر فى كربلاء». بعبارة أخرى: تعود الميثولوجيا القديمة إلى الظهور وقد ارتدت ثوبًا يلائم مفاهيم العقيدة الإسلامية.

من هذه التفاصيل أيضًا ما يتعلق بالأمل فى ظهور المهدى المنتظر، ولاشك فى أنه أمل يتغذى ببؤس الحاضر، ومن ثم يرتبط الانتظار بعالم اليوم الذى أصبح ظالمًا ومظلومًا..«وهذا يعنى أيضًا أن نهاية العالم قد اقتربت، وأن هناك علامات ودلائل واضحة تؤكد قرب ظهوره.. وحين يظهر الإمام المهدى «فسوف يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا..».

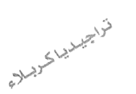
لهذا يذهب آلاف الناس إلى «سامراء» لزيارة المكان الذى يُعتقد أن الإمام المهدى قد اختفى فيه عن الأنظار، وهو يسمى «سرداب الغيبة»، ولزيارته آداب محددة، من بينها أدعية تتلى فى هذا السرداب، منها هذا الدعاء الذى يوضح وظيفة الطقس كله: «إلهى، عَظُم البلاء وبرح الخفاء وانكشف الغطاء وانقطع الرجاء وضاقت الأرض وفُتحت السماء، أنت المستعان وإليك المشتكى وعليك المعَول فى الشدة والرخاء.. إلخ».

ومن التفاصيل المرتبطة بهذا التصور العام كذلك ما فى التعازى من تعبير عن التظلم والإحباط. هنا يناقش المؤلف قضية يسكت الكثيرون عن مناقشتها (وإن كثر الحديث حولها بعد الأحداث الأخيرة) هى قضية الطائفية وعلاقة السنة والشيعة، وهو يحدد موقفه منها ورؤيته لها بوضوح كامل: «مثل أية ظاهرة من الظواهر الاجتماعية تخضع «الطائفية» فى العراق لقوانين خاصة بها ذات بُعد سياسى، وليس دينيًا أو عنصريًا أو ما شابه ذلك، فلم يحدث أن اختلف المسلمون فى العراق فيما بينهم على مسائل ومشاكل ذات أساس دينى.. (..) وفى الواقع، فما يحدث من اختلاف فى العراق هو، فى أغلب الأحيان، «تمايز طائفى» ذو دوافع سياسية ـ مصلحية، دفع إليها الحكام والسلاطين المستبدون من أجل تثبيت سلطتهم ومصالحهم، فساندوا طائفة دون أخرى..»، ويستعرض المؤلف تاريخ هذه الظاهرة فى العراق الحديث، كاشفًا مختلف العوامل الاقتصادية والاجتماعية المؤثرة فيها، ويرى أن من أبشع أنواع الاضطهاد الذى يلقاه الشيعة، إلى جانب حرمانهم من كثير من حقوقهم المدنية، هو «الخوف من إعلان تشيعهم وعجزهم عن الجهر به..»، رغم ذلك يبقى الحكم العام صحيحًا: «فى الحقيقة والواقع فلا وجود لصراع طائفى فى العراق، فلم يحدث أنه تنازع شيعى وسنى على عقيدته، ولا عربى مع كردى على قوميته، ولا مسلم وغير مسلم على دينه، وإنما حدث بين قسم من هؤلاء وبين السلطة الحاكمة.. هناك حقيقة أخرى لابد من ذكرها وهى أن النظام السياسى الحالى لم يلتزم فى الواقع بهويته الدينية ـ المذهبية بقدر ما يلتزم بمصالحه السياسية، من هنا يصبح الصراع «الطائفى» صراعًا سياسيًا بالدرجة الأولى قبل كونه صراعًا مذهبيًا..».

ترتبط بهذه القضية أخرى تثار هذه الأيام أيضًا، وهنا كذلك يلتزم الدكتور الحيدرى موقفه الثابت بطرحها الذى يراه أجدى من السكوت عنها: «إن التشكيك بعروبة الشيعى ووطنيته إنما ينطلق من نظرة خاطئة ورؤية غير واعية ودافع مصلحى، وهو تشكيك فى روح المواطنة والكرامة..(..) من منطلق التمايز والتمييز تعرض الشيعة فى العراق إلى أخطار بالغة باتت تهدد وحدة الشعب العراقى وكيانه وهويته ووطنيته، وارتفعت شعارات مهمتها ترويج اتهام الشيعة «بالتبعية الإيرانية»، وهى تهمة خطيرة مهدت لعملية استلاب وطنية حقيقية كان من نتائجها المباشرة تهجير قسرى لمئات الألوف من العراقيين «الشيعة» إلى إيران فى نيسان ١٩٨٠ قبيل الحرب العراقية ـ الإيرانية وبعدها، بعد أن اغتصبت حقوقهم فى العروبة والمواطنة، وصودرت أملاكهم المنقولة وغير المنقولة، وأهينت كرامتهم وإنسانيتهم، وفى الوقت ذاته، اضطر عشرات الألوف من الشباب والتجار وعلماء الدين والأدباء والشعراء والفنانين الذين لم يقبلوا المشاركة باللعبة السياسية القذرة.. (..) إن هذه الإجراءات التعسفية إنما جاءت كتبرير مُقنّع لأساليب التمييز والتمايز «الطائفى» وأشكال العزل والاضطهاد التى مارستها السلطة نفسها، وليس من قبل أهل السنة، عربًا وأكرادًا، لأن كثيرًا منهم مضطهدون أيضًا من قبل السلطة، التى يقف على رأسها أقلية عشائرية متسلطة ومستبدة وطائفية فى آن..».



ومن التفاصيل المرتبطة بهذا التصور العام، أخيرًا، التعبير عن الرفض والاحتجاج، ويظهر هذا التعبير بشكل مباشر أو غير مباشر، وخلال الاحتفالات بذكرى استشهاد الحسين تتحول مواكب العزاء، فى أحيان كثيرة، إلى فرص مناسبة لعرض حالة التذمر والغضب الخفية.. «وغالبًا ما يتم نقد النظام من خلال مقارنة استبداد رموزه باستبداد معاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد، قاتل الإمام الحسين، فى الوقت الذى يتحول فيه يزيد بن معاوية إلى «نموذج» للظلم والاستبداد، يكون الحسين، من الجهة الأخرى، «نموذجًا مثالاً» للرفض والثورة على الظلم والاستشهاد فى سبيل الحق، وبهذا يصبح العزاء الحسينى، إلى جانب وظائفه وأهدافه الأخرى، وسيلة من وسائل التعبير عن الصراع الخفى مع النظام القائم ومقاومته فى الوقت ذاته بشكل صريح أو رمزى..»، ويدلل الكاتب على رأيه مستشهدًا بثروة هائلة من القصائد الشعبية





(يحول دون الاقتباس عنها صعوبة عاميتها على فهم غير أصحابها)، تعبر عن كل وظائف مواكب العزاء، ويعود المؤلف إلى التاريخ القريب ليكشف عن استفادة حركات المعارضة الوطنية من هذه الاحتفالات لتحقيق التضامن في مواجهة عدو واحد، فخلال فترة الاحتلال البريطاني للعراق تضامنت للوقوف في وجه هذا الاحتلال، وتجلى هذا، بوضوح، في ثورة ١٩٢٠: «وفي آيار من ١٩٢٠ شهد العراق ظاهرة لم تكن مألوفة هي نبذ عوامل الاختلاف والتباين بين الشيعة والسنة، وتوحيد صفوفهم، وقد تميز ذلك التقارب بإقامة احتفالات دينية تجمع بين المولد النبوي على الطريقة السنية ومجلس العزاء الحسيني على الطريقة الشيعية(...) وقد أثار ذلك التقارب مخاوف الإنجليز، الذين حاولوا مرارًا إثارة النعرات القومية والطائفية لتعميق التفرقة والصراع الطائفي والديني والاثني..» (ألا تراهم يتلمظون الآن كي يلعبوا دورهم القديم في العراق؟).

ألسنا نقف على أرض صلبة إذن، حين نكاد نكون واثقين أن هذا التقارب سيقوم في وجه الاحتلال الجديد؟



يستعرض المؤلف أشكال وأنواع مواكب العزاء. هناك، أولاً: «مواكب اللطامة»، يتكون الموكب من مجموعة أو عدة مجموعات من الرجال، تقوم بلطم صدورها بالأيدي، وهي من أكثر المواكب شعبية وانتشارًا في العراق، وهي تنطلق مساء كل يوم خلال الأيام العشرة الأولى من شهر محرم، وتسير بخطوات إيقاعية، وخلال مسيرتها تقوم كل جماعة بترديد «ردَّة»، ومجموعها «ردَّات»، أي مقطعًا من مقاطع قصيدة شعبية، أما مضامين الردات فهي، على الأغلب، مدح ورثاء وتعداد لمناقب النبي وأهل البيت، وقد يتضمن بعضها شعارات سياسية وانتقادات اجتماعية. ويلاحظ المؤلف أن «أول الردات ذات المحتوى السياسي كانت في محرم من عام ١٩١٧، التي وجهت ضد الاحتلال البريطاني للعراق، أما الثانية فكانت عام ١٩٣٩ عند مقتل الملك غازي بطريقة غامضة..(..) وقد تطور المحتوى الاجتماعي والسياسي لقصائد العزاء الحسيني مع التطورات والتبدلات التي حدثت في الخمسينيات والستينيات.. ففي عام ١٩٦٨ كان محتوى عدد كبير من الردات الحسينية في الكاظمية وكربلاء هو انتكاسة حزيران عام ١٩٦٧.. وقد أعلن شعراء المواكب غضبهم واستنكارهم للهزيمة الكبرى، وخنوع الحكام العرب ومن يقف وراءهم..».

ثم هناك «مواكب اللطم بالسلاسل الحديدية (الزناجيل)». «الزناجيل» مفردها «زنجيل» وهي محورة عن كلمة «زنجير» الفارسية التي تعني السلسلة. ويتكون «الزنجيل» من مجموعة من السلاسل الحديدية الصغيرة المربوطة من الأسفل بمقبض خشبي أو حديدي، يُضرب بها على الظهر والكتفين.. «وكان في مدينة الكاظمية مكان دراستنا الميدانية عام ١٩٦٨ سبعة مواكب يتكون كل واحد منها من ثلاث إلى أربع مجموعات، وتتألف كل مجموعة من حوالي مائة شخص تقريبًا..(..) تقوم مواكب الزناجيل بطقوسها عصرًا ومنذ اليوم الخامس من شهر محرم، وتبدأ مسيرتها بحدود الساعة الرابعة أو الخامسة مساءً متجهة نحو صحن الكاظمية على شكل حلقات بيضوية أو مستطيلة.. وهم يرتدون ثيابًا طويلة سوداء مفتوحة من جهة الظهر حتى الكتفين ليتمكنوا من الضرب بتلك السلاسل الحديدية، وخطوة فخطوة يسير الموكب وهم يضربون بالسلاسل الحديدية على الكتف اليمنى مرة ثم على الكتف اليسرى مرة أخرى، وهكذا في إيقاع ثلاثي مع ضرب الطبول وصوت الأبواق والصنجات..».

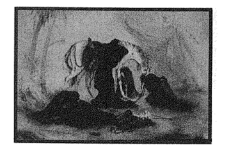
أخطر المواكب وأشهرها، وما ينصرف إليه كثير من الجدل والاستهجان «مواكب التطبير بالسيوف (القامات)..»، و«التطبير» هو جرح الرؤوس الحليقة بالقامات بضربات ليست عميقة، أما «القامات» ومفردها «قامة» فهي سيوف مستقيمة، حادة الجانبين، تشبه السيوف الرومانية القديمة، وتبدأ مواكب المطبرين طقوسها قبل شروق شمس يوم العاشر من محرم، ويرتدي المطبرون أكفانًا بيضاء ملطخة بالدم نُقش عليها «نحن فداء للحسين»، ويسيرون في شكل بيضوي على إيقاع لحن جنائزي، وإنشاد النائح وهو يردد مرثية حزينة، يتقدمهم حاملو الأعلام وهي رايات بيضاء مخضبة بالدم وقد رسم عليها سيفان متقاطعان بينهما رأس مقطوع يرمز إلى رأس الحسين، وبعض المواكب تحمل تابوتًا يرمز إلى نعشه، ويتبع التابوت عدد من الخيول العربية يتقدمها فرس الحسين البيضاء، وقد لُطخ سرجها ولجامها بالدم.. «وعندما يصل الموكب إلى الصحن الكاظمي يتصاعد حماس المطبرين، وعلى إيقاع الطبول والأبواق وهتافات الجمهور المحتشد، ترتفع الضربات على الرؤوس بوتائر سريعة حتى تصل إلى ذروتها حين يأخذ البعض منهم بالضرب على رأسه بقوة بحيث تحدث شرخًا في الرأس ينزف دمًا غزيرًا، وقد يسقط البعض منهم مغشيًا عليه، وقد حدث أن توفي البعض منهم..(..)، وحين ينظر المرء إلى هؤلاء المطبرين يرى أمامه منظرًا مرعبًا ورهيبًا.. كتلاً آدمية من الدماء ذات رؤوس مدماة تظهر كأنها مهشمة وتسيل منها دماء قانية تغطي جباههم ووجوههم وأكفانهم البيضاء..».



وقد ناقش المؤلف هذين الموكبين الأخيرين اللذين يشتملان على إيذاء بالغ للجسد أكثر من مرة (راجع، بوجه خاص، الفصل السابع «محاولات الاستغلال والتشويه» تحت عنوان «محاولات الإصلاح»، ص ٤٤٥ وما بعدها، وراجع كذلك ص ٤٧٢ من الفصل نفسه). ومن مناقشاته المتعددة نستنتج ملاحظتين: أولاً: إن علماء الشيعة ومجتهديهم لم يتفقوا على رأي موحد في هذه الممارسات بالتحريم القاطع أو الجواز الصريح، ويرى المؤلف أحد أسباب هذا الموقف أن «كثيرًا من علماء الشيعة يعتمدون في رزقهم على ما يقدمه الناس من حقوق شرعية إلى المرجعية الدينية أو وكلائها المنتشرين في جميع أنحاء العالم الإسلامي..(..) إن ابتعاد الشيعة عن طاعة الحكومة وعدم قبول أي عطاء منها أوقع البعض من العلماء تحت رِبقة العامة من الناس الذين هم مصدر رزقهم، وبخاصة في الأحيان التي مورست فيها طقوس ومراسيم تتعارض مع روح الإسلام ومبادئ ثورة الإمام الحسين..»، وبدهي أن هذا لا ينطبق على كل علماء الشيعة ومجتهديهم، ويتابع المؤلف - بتفصيل وحماسة - محاولات المصلحين منهم، وبوجه خاص السادة الشيوخ: محمد رضا المظفر وهبة الدين الشهرستاني ثم محسن الأمين صاحب «رسالة التنزيه في أعمال الشبيه» ومحمد الخالصي ومحمد جواد مغنية وسواهم.

وعلى أي حال، فليس هذا وجه عدم الاتفاق الوحيد بين علماء الشيعة ومجتهديهم، ثمة ما قد يكون أهم وأخطر، هو عدم اتفاقهم حول ممارسة العمل السياسي والخدمة العامة، من ناحية، أو الانكفاء على دراسة الأصول والاكتفاء بالفتوى فيها، والانصراف عن عالم السياسة وما يموج به من فساد وإفساد، من الناحية الأخرى (يكتب الدكتور الحيدري ما يمكن أن يفسر بعض الظواهر التي نشهدها في عراق اليوم: «بقي الشيعة يقفون من مسألة الحكم وما يمت إليه بصلة موقفًا سلبيًا، حتى على المستوى الفردي، فهم يتحاشون الحكم والحكام ويخافون الانخراط في وظائف الدولة والدخول في الخدمة العسكرية، ويؤثرون أن يصبحوا تجارًا وحملة شهادات عالية ومالكي عقارات وأراضٍ زراعية، على أن يكونوا رجال دولة وعسكريين ودبلوماسيين..» ص٣٥٣). ورغم «تسييس» الجمهور الشيعي بتأثير أحداث العقود التالية على الخمسينيات، إلا أننا مازلنا نرى مظاهر ونسمع أصداء تلك الاختلافات حتى الآن.

الملاحظة الثانية التي يؤكدها المؤلف أكثر من مرة كذلك هي أن طقوس التطبير بالسيوف والضرب بالسلاسل ليس لها جذور في أرض العراق، فهي لم تكن معروفة حتى أوائل القرن العشرين، وأن أصولها ليست عربية «بل دخلت العراق عن طريق بعض الحجاج الذين يقدمون من أذربيجان التركية لزيارة كربلاء والنجف عند عودتهم من الحج إلى مكة.. وكانوا يقومون بضرب رؤوسهم بالقامات التي يجلبونها معهم..(..) كما دخلت طريقة الضرب بالسلاسل على الظهر عن طريق الهنود الذين استقروا في البصرة وكربلاء والكاظمية، كما دخل معهم بعض ما يُحمل في مواكب العزاء مثل «علم الزنكي» وغيره..». وسواء كانت من أصول فارسية أو تركية أو هندية أو سواها، فإن عالم الاجتماع لا يخفي رأيه الواضح والمحدد: «لقد اختزل البعض ثورة الإمام الحسين بأهدافها الثورية ومعانيها السامية وأبعادها الإنسانية، بتحويلها إلى مجرد طقوس ومناسبات مأسوية لا تعبر إلا عن عنف جسدي وتعذيب ذاتي وبطرق سلبية نكوصية، في الوقت الذي يمر الشعب العراقي في أعمق محنة من



التمزق والعجز والنكوص، وإذا كنا مطالبين بانتهاج مبادئ الحسين وأهداف ثورته السامية التي تدعو إلى ضرورة احترام الإنسان والدفاع عن كرامته، علينا التصدي لأي إذلال ونكوص واتخاذ مواقف رفض وتحدٍّ، كما فعل الحسين..».

وإنني أود الوقوف عند «الظاهرة المسرحية» في هذه الطقوس، ليس فقط لولعي الدائم بفن المسرح، ولكن أيضًا لأن «مسرح التعزية» موضوع شغل المسرحيين العرب، وغير العرب، وكان محل دراسات واجتهادات، ومازال يحتمل المزيد.

وسوف نجد في هذه الطقوس شكلين من أشكال «المسرحة» أولهما مسيرة المواكب الكبرى حسب وصف الدكتور الحيدري لها في بحثه الميداني في الكاظمية في ١٩٦٨، وثانيهما مسرحية «الشبيه» أو «التشبيه» أو «التشابيه»، وهي التي ينصرف إليها تعبير «مسرح التعزية» أو «التعازي» وهي التي تقدم في ليلة عاشوراء.

تبدأ مسيرة المواكب عادة منذ اليوم الخامس من محرم، في حدود الخامسة مساء، ماعدا يوم عاشوراء حيث تخرج المسيرة الكبرى في الصباح. يقوم كل موكب من المواكب الرئيسية بمسيرة خاصة به، وتتكون المسيرة من مجموعتين كبيرتين، تمثل الأولى معسكر الإمام الحسين والأخرى معسكر بني أمية، وتقوم باستعراض شعبي فولكلوري، شبه عسكري، يرتدي المشاركون فيها أزياء عربية تقليدية ومتنوعة، وتتصدر كل موكب فرقة موسيقية شعبية تعزف لحنًا عسكريًا بسيطًا بآلات موسيقية هوائية، وتبدأ المسيرة بمن يمثل أهل البيت وأنصارهم يتقدمهم حاملو الرايات الكبيرة متعددة الألوان، تتبعهم مجموعة من الخيول العربية ذات السروج المزركشة يقودها عدد من الرجال في بزات عسكرية.

في هذا الإطار الواسع تبدأ الشخصيات الرئيسة في التقدم: يأتي العباس بن علي، حامل راية الحسين، وهو يمتطي فرسًا عربية ذات سرج ثمين، وقد لبس درعًا حديدية وحمل سيفه بيمينه، وهو في قميص أخضر وعقال أخضر كذلك، يتبعه فارسان شابان يمثلان علي الأكبر بن الحسين والقاسم بن الحسن، وسط مجموعة من الرجال والصبيان يظهر الإمام علي بن الحسين الملقب بالسَّجَّاد وهو مقعد تبدو عليه أمارات المرض، خلفه يسير فارس أسود هو «الحر الرياحي» الذي كان أحد قواد جيش الأمويين لكنه انحاز إلى جانب الحسين وقاتل واستشهد معه، يتوسط المجموعات «موكب العريس» أو «زفة القاسم» التي تتكون من مجموعة من الشباب والصبيان، يحملون على أكتافهم «قبة القاسم» وهي غرفة مثلثة الشكل مزينة بأقمشة حريرية ملونة وأضواء وشموع ومزهريات وأغصان شجر وورود، ثم عدد من الصبية يحملون صواني فيها شموع وحناء وأغصان الآس، ثم يظهر القاسم بن الحسن، يمثل دوره شاب وسيم في زي عربي على فرس مطهمة، تقول القصة الشعبية إنه كان مفروضًا أن يتزوج ابنة عمه الحسين، غير أنه ضحى بعرسه وشبابه وحارب إلى جوار عمه واستشهد معه. بعد «قبة القاسم» يأتي «مهد الرضيع»، وهو مهد صغير مغلف بأقمشة حريرية وردية اللون تحمله فتاة صغيرة، ويشير إلى عبد الله الرضيع ابن الحسين الذي قُتل، عطشان، بسهم نفذ في رقبته وأبوه يحمله بين ذراعيه، ثم مشهد «التوابيت»، وهي مجموعة من التوابيت الخشبية المكشوفة من أعلاها، وقد تمدد في كلٍّ منها رجل يبدو للناظر مقطوع الرأس، بعد أن غُطي الرأس بقطعة قماش، وترمز إلى جثث الشهداء، بينها يختفي جسد الحسين تحت كفن أبيض ملطخ بالدماء، وإلى جانبه تقف حمامتان بيضاوان مربوطتان بخيط رفيع إلى التابوت وقد تلطخت أجنحتهما بالدم، وحسب الرواية الشعبية فإن الحمام الزاجل كان قد نقل خبر مصرع الحسين إلى المدينة، وفي مؤخرة التابوت صبيتان صغيرتان منحنيتان على الجسد تمثلان «بنات الحسين». تتبع التوابيت مجموعات من الأطفال، واحدة تمثل أبناء مسلم بن عقيل رسول الحسين الذي قتل في الكوفة، وأخرى تضم مجموعة من الأطفال مقيدين بالسلاسل، يضربهم أحد الجنود بجريد النخل على رؤوسهم، وهم يمثلون أولاد الحسين وأهل بيته الذين أخذوا سبايا إلى دمشق. ثم يأتي «النصراني» الذي وقف إلى جانب الحسين وحارب معه واستشهد معه، ويعرض النصراني في لباس عسكري عصري.. «وفي الحقيقة، فإن تمثيل الفارس النصراني في هذه المسيرة إنما يشير للأهمية العالمية لثورة الحسين، ليس لدى المسلمين فحسب، وإنما لدى المسيحيين أيضًا..».

بعد انتهاء مسيرة معسكر الحسين، وأهل بيته وأنصاره يأتي معسكر بني أمية، يتصدره أربعة من ضباط الجيش يتقدمهم شمر بن ذي الجوشن الذي ضرب بسيفه نحر الحسين ثم حزَّ رأسه، يتبعه عدد من الفرسان في قمصان حمراء وسراويل صفراء، في حين ينفخ عدد من الصبيان في أبواق طويلة، يتبعهم فارس يمتطي جوادًا أبيض ذا سرج ثمين، يرتدي زيًا عربيًا مع كوفية وعقال ونظارات شمسية ملونة، يمثل عمر بن سعد قائد جيش بني أمية، يسير خلفه قائد روماني وإلى جانبه جنديان أسودان مدرعان يمثلان حراسه، ويتبع قائد الجيش مجموعة من الجنود يحملون الأقواس والنبال، ترافقهم فرقتان موسيقيتان.

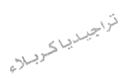
ويلاحظ وصَّاف هذا المشهد الثري، الدكتور إبراهيم الحيدري.. «أن منظمي المواكب يعلقون أهمية كبيرة على الألوان والأزياء الفولكلورية حتى لو فقدت بعض مصداقيتها التاريخية والواقعية، كما أنهم يعرضون المعسكرين بشكل متناقض تمامًا، فهم يعرضون معسكر الحسين في أزياء عربية، بينما معسكر بني أمية في أزياء «رومانية» أو «حديثة»، وفي الواقع فإن الممثلين يعكسون أدوارًا تكاد تكون منفصلة بعضها عن البعض الآخر، وأن كل دور من هذه الأدوار يرتبط بالشخصية التي يقومون بتمثيلها وأهميتها الدينية والتاريخية.. (..) ومن الملاحظ أن الممثلين الذي يؤدون أدوار أهل البيت وأنصارهم يُظهرون الطيبة والتقوى والبراءة، لذلك يكون تعاطف الجمهور المحتشد معهم قويًا وحارًا، يعبر عن حب واحترام كبيرين، وبخاصة من يقوم بدور العباس ابن علي والسجَّاد والقاسم وعلي الأكبر، ومن المعتاد أن يقوم بهذه الأدوار «ممثلون» من السادة المعروفين بانتسابهم إلى الرسول. وعكس ذلك يحاول «الممثلون» الذين يقومون بأداء أدوار قادة وجند بني أمية أن يظهروا وكأنهم غلاظ القلوب ذوو وجوه عابسة ومشية متغطرسة ويرمون الجمهور المحتشد بنظرات غاضبة، في محاولة لإثارة السخط على بني أمية. لهذا توجه إليهم اللعنات.. وبخاصة أولئك الأشخاص الذين يقومون بدوري شمر وعمر بن سعد اللذين يلقيان من الجمهور - أكثر من غيرهم - لعنةً وشتمًا وإهانات، وأحيانًا رميًا بحجارة صغيرة..».

وقبل أن نعرض للتشبيه. يحسن أن نذكر ملاحظة الدكتور الحيدري، بما هو أنثروبولوجي، حول النظر إلى هذه الأعمال من وجهة نظر «ناقد الفن». يقول: «علينا، إذن، ألا ننظر إلى العمل الفني التقليدي نظرة تحكم عليه من خلال قيمنا الفنية المعاصرة، لأن قيمة أي عمل لا تكمن في جاذبيته الجمالية فقط، بل من أهميته الاجتماعية والنفسية والأخلاقية والهدف الذي انبثق عنه. مثال ذلك الموسيقى الشعبية التي تستخدم في مواكب العزاء، والتي تعزف ألحانًا طقوسية ذات إيقاع سهل وبسيط ينسجم مع مسيرة الموكب واللطم على الصدور أو ضرب الظهور بالسلاسل الحديدية والرؤوس بالسيوف والقامات، هذه الموسيقى لا يمكن أن تكون جميلة بقدر ما تكون مرعبة ومثيرة للحماس، لذلك غالبًا ما تكون ذات إيقاع حر، سريع الاستيعاب والتجاوب..».



ومثال ذلك أيضًا مسرحية التشبيه: ظاهرة مسرحية قائمة بذاتها، تشكلت - تاريخيًا - وفق المعطيات والمؤثرات الدينية والاجتماعية - السياسية، دون تأثر - من أي نوع - بالمسرح الكلاسيكي أو الحديث في العالم. هو مسرح شعبي شعائري يختص بتمثيل مأساة كربلاء في مشاهد ذات طابع إخباري وتربوي، في حبكة مبسطة و«لغة سهلة الفهم والاستيعاب»، لهذا نستطيع القول بأن «مسرح عاشوراء» يمكن أن يشكل أول عمل مسرحي في العالم العربي الذي لم يعرف المسرح الملحمي والدرامي، كما هو معروف في المسرح الكلاسيكي في اليونان، وحسب النموذج الكلاسيكي الذي وضع أسسه أرسطو..».

البداية قدوم مسلم بن عقيل، رسول الحسين إلى الكوفة ومقتله وتمثل معركة «الطف» في كربلاء بجميع أحداثها وسط المسرحية التي تصل ذروتها حين يتقدم الحسين وأهل بيته للقتال واحدًا بعد الآخر، ثم يقع





الإمام الحسين صريعًا، أما النهاية فتكون عند هجوم جند بني أمية على مخيم أهل البيت وإحراقه وسَبي النساء والأطفال وأخذهم إلى الشام.

ما خصائص هذا المسرح؟ يحددها المؤلف على النحو التالي:

أولاً: إنه مسرح هواة لا مسرح محترفين، يصدر عن ذكاء وإمكانات فطرية ومهارات شعبية وفولكلورية، تطرح بشكل عفوي، وليس مكتسبًا أو عن طريق معرفة أكاديمية منظمة، إنما عن طريق إرث تقليدي ينتقل إلى العاملين فيه، لذا نجد أن جميع الممثلين والمنشدين والمنظمين وكل المشاركين في إنتاج وإخراج وتمثيل هذه المسرحية هم من غير المحترفين، ويقومون بهذه الأنشطة من أجل «خدمة» الإمام الحسين والتقرب منه ومواساته لا يرجون من ذلك سوى طلب الشفاعة.

وغالبًا ما يكون المنظِّم (لنقل: المخرج) رئيس الموكب أو شاعره أو خطيبه، هو الذي يوزع الأدوار ويدرب الممثلين ويحدد الأزياء والديكورات .. وقد يقوم بتقديم موجز لموقعة «الطف» قبل أداء الممثلين، وقد يقوم بإلقاء قصيدة أو مرثية حزينة تصاحب أداء الممثلين، ربما تكون بديلاً للموسيقى التصويرية في المسرحية الحديثة.. «إن هذه الطريقة التي يقدمها المسرح الشعبي في عاشوراء لا نجد لها مثيلاً في تاريخ المسرح الكلاسيكي، ولا في تاريخ المسرح الحديث، أما مكان المسرح فغالبًا ما يكون في صحن إحدى العتبات المقدسة كما في النجف أو الكاظمية، أو في «الخيمكة» وهو الموقع الذي جرت فيه واقعة الطف بكربلاء، أو في إحدى الساحات العامة أو في حسينية أو أي مكان آخر، أما الزمان فهو، في الحقيقة، تجريد لزمان آخر مضى، لكنه بقي في المخيال الشعبي حيًا ومتحركًا ومرتبطًا بشهر محرم من كل عام..».

ثانيًا: إنه مسرح شعائري، «درامي.. تراجيدي» إن صح التعبير، يعرض، بشكل ملحمي، وقائع وقصصًا وأساطير عن موقعة الطف، ويستمد مادته من كتب «المقاتل» التي وصفت أول تراجيديا دامية عرفها التاريخ الإسلامي، هذه الملحمة تعرض وقائع تاريخية ذات أبعاد دينية واجتماعية ـ سياسية، وغالبًا ما يصاحب العرض حوار وإنشاد أشعار ومَرَاثٍ وخطب، تعكس مفاهيم الإيمان والتضحية في سبيل المبدأ والعقيدة. مثلما تعكس مفاهيم القوة والشجاعة والقدرة على الصبر ومواجهة المصاعب.. «وهي بهذا تجسيد لمفهوم الخير الذي ينتصر دومًا على الشر، كفلسفة اجتماعية، هي الهدف الرئيسي لهذه المسرحية، وأبعد من ذلك، فإنه يجعل من هذا الهدف غاية أبعد هي توليد الصراع الاجتماعي في ربطه بين المبادئ والقيم العليا التي أعلنتها ثورة الإمام الحسين في كربلاء، وبين النظام الاجتماعي الاستبدادي والمرفوض الذي يتحكم في مصير الناس، ويتخطى حقوقهم في الواقع الاجتماعي المعيش.. (..) من هنا تبرز خاصية أساسية في مسرح عاشوراء هي إسقاط الأحداث التاريخية الماضية على الزمن الحاضر المعاش بحيث تصبح وكأنها انعكاس لأحداث تجري اليوم».

وقد لا يركز هذا المسرح على المصداقية التاريخية للوقائع قدر ما يركز على المخيال الشعبي لتلك الوقائع وتأثيرها العاطفي. إنه لا يعرض تسلسلاً تاريخيًا قدر ما يعرض أحداثًا معروفة ومتداولة بين الناس، ولعلها أيضًا محفوظة عن ظهر قلب، المهم أن يعرض تلك الأحداث على شكل مبادئ وقيم ورموز يجسدها تجسيدًا حسيًا، تجسيدًا لابد له من مشاركة وجدانية من جانب المشاهد، وهكذا يكون الممثل والمشاهد وحدة جدلية لا انفصام فيها.

ثالثًا: إنه مسرح حياة، أكثر منه مسرح لغة وتخاطب. الجمهور فيه يتعايش مع الحدث المأساوي ويشارك الممثلين فيه، وينفعل بهم ومعهم انفعالاً شديدًا، ويظهر هذا التجاوب في شكلين: الأول مشاركة الجمهور في العمل المسرحي مشاركة مباشرة أحيانًا وغير مباشرة أحيانًا أخرى، فالجمهور مُشاهد ومشارك. يستمع وينشد ويندمج مع الممثلين بولع شديد، دون معاناة أو ملل، بحيث يصبح جزءًا منهم، وهذا قلب العلاقة الجدلية الحية بين الممثل والمشاهد. الشكل الثاني يظهر في الانفعال الشديد الذي يشد المشاهد ـ المشارك إلى العمل المسرحي، ومن ثم يصبح مسرح عاشوراء عملاً جمعيًا، من نتاج المجموعة كلها.

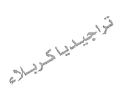
«إلى ذلك يعرض مسرح عاشوراء أشكالاً من السلوك الديني ـ الاجتماعي، مثلما يعكس طرائق التنظيمات الشعبية وأساليب التفكير والانفعال والشعور، وكذلك العلاقات الاجتماعية غير الرسمية. بالمفهوم السوسيولوجي، من جهة، والوقائع التاريخية السياسية ـ بحسب التصورات الشعبية التي يعبر عنها بالخطب والقصائد والمراثي والحكم والأمثال، التي تبين ماجرى لأهل البيت في كربلاء من ظلم واغتصاب لحقهم المشروع، من جهة أخرى، إضافة إلى أنه يفتح منفذًا للتعبير عن واقع مؤلم وحزين، وبابًا للإعلان والاتصال، وصمامًا للأمان والتنفيس عن بعض ما هو غير مُباح ومكبوت، ولتوطيد ما يعتقد به المرء من قيم ومبادئ، من جهة ثالثة..».

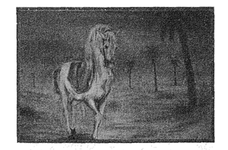
ذلك أوفى وأدق تحليل لهذا المسرح، ومن المعروف أن هذا المسرح لم يكن موضع اهتمام المسرحيين العرب، إنْ هي إلا دراسة يتيمة كتبها باحث تونسي هو محمد عزيزة (ترجمها الدكتور رفيق الصبان، ونشرت بعنوان «الإسلام والمسرح»، صدرت طبعتها الأولى في القاهرة في ١٩٧١، والطبعة التي اعتمدت هنا هي الثانية، منشورات «عيون»، الدار البيضاء، ١٩٨٨م)، ولعل أثمن ما في هذه الدراسة الوجيزة هو نص «آلام الحسين أو مأساة كربلاء»، يقول الأستاذ عزيزة في تقديمه إنه «إعداد حر عن عدد من النصوص الشيعية التي درسناها في كثير من المكتبات القومية في العالم.. خصوصًا في كربلاء حيث تُحفظ بعض المخطوطات بعناية وحرص شديدين..»، ثم يثبت قبل النص مباشرة إنه «إعداد مسرحي بتصرف عن الكتاب الفارسي «جونج ـ ي ـ شهادتي» فلا ندري هل نصدقه في الأولى أم في الثانية!



على أي حال، من الواضح أن ثمة اختلافات بين هذا النص، من ناحية، والعرض الذي يقدمه الدكتور الحيدري، من ناحية أخرى، ولعل أبرز نقاط هذا الاختلاف.. وما يشير إلى أن النص إيراني أو فارسي .. هو تزويج الحسين من «أميرة فارسية تدعى شهربانو، ابنة آخر الملوك الساسانيين يزد جرد الثالث..»، شهربانو هذه هي التي تظهر مع الحسين قبل استشهاده، وهي التي يتحدث إليها: «شهربانو.. يا رفيقة شبابي العذبة.. يا رفيقة انهياري.. اعلمي أني لا أفارقك إلا مرغمًا لأن قلبي لم يرغب أبدًا بأن يتحرر من تلقاء نفسه من القيود العذبة التي تربطنا معًا، إني أعهد إليك بأولادي.. إلخ». في الطبعة العراقية، لو صح الوصف، نجد السيدة ليلى، أم علي الأكبر، هي التي تصحب الحسين إلى كربلاء، وهي التي تنوح على ابنها بعد مصرعه، وتُروى عنها القصص في المجالس الحسينية (فلما قتل علي الأكبر توجهت ليلى إلى خيمتها ونثرت شعرها، بناءً على طلب الإمام الحسين، ولأنها نذرت أيضًا إذا ما استجاب الله دعاءها، وأرجع ابنها سالمًا من المعركة ثم أخذت تنشد: نَذْرٌ عليَّ لئن عادوا وإنْ رجعوا / لأزرعن طريق «الطف» ريحانًا..»، ويعلق الدكتور الحيدري: «والحقيقة فإن البيت هو للشاعر مجنون ليلى العامري الذي انتظر ليلاه، التي كانت تقيم في تلك المنطقة، والبيت هو كما يلي: «نذرٌ عليَّ لئن عادوا وإن رجعوا/ لأزرعن طريق «التفت» ريحانًا..» (ص ٤٦٤)، إضافة لاختلافات أخرى كثيرة حول الطفل العطشان الذي كان يحمله الحسين: سكينة (في الطبعة الإيرانية) أم عبدالله، وظهور الجِنّي جعفر للحسين يعرض عليه المساعدة.. إلخ. «تلك الاختلافات طبيعية ومألوفة في مثل تلك النصوص. لكننا نلاحظ ـ بوجه عام ـ أن معظم الدراسات التي كتبت عن التعزية كتبت عنها كما تقدم في إيران، لا في العراق (بين مراجع الدكتور الحيدري مرجع مهم يحوي عددًا كبيرًا من الدراسات حول مختلف جوانب الموضوع: Peter Chelkoski: zieh, Ritual and Drama in Iran,New York, 1979»، ومن ثم تكتسب دراسة الدكتور الحيدري أهمية إضافية من حيث إنها تضع الظاهرة في سياقها التاريخي والاجتماعي في العراق، صحيح إنه يتابع مظاهر التعزية في الدول الإسلامية: إيران وتركيا وباكستان (الهند)، ثم في الدول العربية: لبنان ومصر ودول الخليج، وسواها، إلا أن مادته الأساسية هي من العراق وعن العراق.

وقد لا تكتمل رؤيتنا لهذا المسرح دون أن نعرف وجهة نظر مسرحي غربي في هذه الطقوس. في كتابه الأخير «الباب المفتوح» ـ صدرت طبعته الأولى في ١٩٩٥ ـ يعرض المسرحي الإنجليزي بيتر بروك لهذه التجربة، ويتحدث عنها حديثًا





طويلا (راجع، من فضلك: بيتر بروك: الأعمال الكاملة، ترجمة كاتب هذه السطور، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٥١٠ وما بعدها). لم يكن بروك غريبًا عن الثقافة الفارسية فقد أخرج عمله الكبير «اجتماع الطير» عن الشاعر الفارسي فريد الدين العطار، وكان ما ميَّز بروك دائمًا في اقترابه من الثقافات الأخرى، أعني الثقافات خارج الإطار الغربي، هو أن يقترب منها بتواضع واحترام ورغبة في الفهم، حتى يستطيع أن يتبين منطقها الداخلي، والأدوار التي كانت - أو مازالت - تؤديها لجمهورها.



يروى بروك: «حين ذهبت إلى إيران للمرة الأولى في ١٩٧٠ شهدت شكلاً من المسرح بالغ القوة هو «التعزية»، قطعت جماعة أصدقائنا الصغيرة طريقًا طويلاً عبر إيران، بالطائرة حتى «مشهد» ثم في تاكسي يغوص بعيدًا في الريف المنفسح المفتوح، وخرجنا عن الطريق الرئيسي إلى درب موحل.. فجأة وجدنا أنفسنا خارج جدار بني اللون يحيط بالقرية، وهناك بالقرب من شجرة قائمة شكَّل مائتان من أهل القرية دائرة كاملة، واقفين أو قاعدين تحت الشمس اللاهبة..(..).

كان أهل القرية في حالة توقع تام لأنهم يعرفون ما سيحدث حتى التفاصيل الأخيرة، كل ما قيل لنا إن التعزية هي الشكل الإسلامي من مسرحيات «الأسرار المقدسة»، ورغم أن الشاه كان قد حظرها قبل عدة سنوات، إلا أنها استمرت تقدم في الخفاء في ثلاثمائة أو أربعمائة قرية..(..).

قرع الموسيقيُّ القاعد تحت الشجرة طبلته بإيقاع مُلِحٍّ، فخطا قروي إلى الحلقة، كان ينتعلُ حذاءً مطاطيًا طويلاً، وله مظهر محارب جميل، وعلى كتفيه ثوب من القماش الأخضر الزاهي، اللون المقدس، وبدأ في إنشاد مقطوعة طويلة منغمة مكونة من نغمات قليلة جدًا في نمط يتكرر ثم يتكرر، وفي كلمات كنا عاجزين عن متابعتها لكن معانيها تتضح على الفور عن طريق الصوت الصادر من أعماق المغني. لم تكن العاطفة عاطفته هو، لكن الأمر بدا لنا وكأننا نستمع إلى صوت أبيه، وأبي أبيه، وهكذا، رجوعًا إلى الوراء. كان يقف هناك، مباعدًا بين رجليه، ممتلئًا بالقوة، مقتنعًا تمام الاقتناع بعمله، كان تجسيدًا لهذا الشخص الذي يُعد في مسرحنا أكثر الشخوص مراوغة على الإطلاق: البطل.(..) حين كنت أقول هذه الأفكار لنفسي، كانت ثمة شخصية أخرى، تلفها ثياب حمر هذه المرة، تدخل الحلقة. وارتفع التوتر على الفور: لقد جاء الشرير. لم يكن يغني، فليس له الحق في التنغيم، اكتفى بأن خطب في الناس بصوت أجش. بعدها بدأت الدراما.

وأصبحت الحكاية واضحة: إن الإمام في أمن حتى الآن، لكنه لابد أن يرحل أبعد، ولكي يفعل فلابد أن يجتاز أرض أعدائه الذين أعدوا له كمينًا بالفعل، وحين كانوا يزمجرون ويصيحون بنواياهم الشريرة اجتاح الرعب والسخط جمهور المتفرجين.

وبطبيعة الحال. فإن كل واحد كان يعرف أنه لابد أن يقوم بهذه الرحلة، وكل واحد كان يعرف أنه سيُقتل، ولكن بدا في البداية أنه يمكن، هذه الليلة، تفادي هذا المصير. طلب منه أصحابه ألا يرحل، ودخل الحلقة ولدان صغيران يغنيان معًا، إنهما ولداه، وهما يطلبان منه، بعاطفة حارة، ألا يرحل. كان الشهيد يعرف المصير الذي ينتظره، فنظر إلى ولديه وغنَّى لهما أغنية وداع مؤثرة، وضمهما إلى صدره، ثم أفلتهما وانطلق، وأعانه حذاء الفلاح الضخم على أن يضع قدميه بثبات على الأرض، وقف الولدان ينظران نحوه وهو يرحل، وشفاههما ترتعش. وفجأة أصبح الأمر أكثر من احتمالهما فجريا وراءه ورميا بنفسيهما على قدميه فوق الأرض، مرة ثانية أعادا الأغنية المثيرة للأسى.. ومرة ثانية أجابهما بأغنية الوداع.. (..) كان المشهد ذاته يتكرر. في المرة السادسة انتبهت لهمهمة خفيفة حولي من كل ناحية، وسحبت عيني لحظة عن الحدث فرأيتُ شفاهًا ترتعش، والأيدي والمناديل تغطي الأفواه، والوجوه مرهقة ببرحاء الحزن، بعدها بدأ الرجال والنساء المُسنون. ثم الأطفال، وبعدهم الشباب المتكئون على دراجاتهم، راح الجميع ينشجون وينتحبون في حرية كاملة.. (..)



كانت ثمة ظاهرة حقيقية تحدث هي «التصوير المسرحي». إن حدثًا من الماضي البعيد هو في عملية «إعادة تصوير» أو «إعادة تمثيل» كي يصبح حاضرًا. إن الماضي كان يحدث هنا والآن، والبطل يتخذ قراره الآن. ولوعته وكربه يحدثان الآن، ودموع الجمهور تسيل الآن. لم يكن ما حدث هو وصف الماضي أو تصويره. فقد تم إلغاء الزمن. كانت القرية تشارك مباشرة وبأكملها، هنا والآن، في موت حقيقي لشخص حقيقي مات بالفعل قبلَ مئات السنين، لقد قُرئت عليهم القصة مرارًا، ووُصفت بالكلمات مرارًا، لكن الشكل المسرحي وحده هو الذي استطاع أن ينجز هذا العمل الفذ، أن يجعلها جزءًا من الخبرة الحيَّة..».

هكذا قدمت «التعزية» سرًا في قرية إيرانية بعيدة، وهكذا بدت لعيني مسرحي كبير هو بروك. ولكن كان من حظ بروك أن يرى شكلاً آخر للتعزية، ولعل المقارنة بين العرضين تكشف الكثير عن طبيعة التجربة. يتابع بروك: «بعدها بسنة، حين كان الشاه يحاول أن يقدم صورة بلاده للغرب باعتبارها «ليبرالية طيبة»، تقرر أن تقدم «التعزية» للعالم في «مهرجان شيراز الدولي للفنون» التالي. «طبيعي أن تكون هذه التعزية الدولية الأولى أفضل التعازي». وهكذا أُرسلت البعثات الاستكشافية إلى كل أرجاء البلاد لتلتقط أفضل العناصر، وأخيرًا اجتمع الممثلون والموسيقيون من القرى المتناثرة على نطاق واسع، اجتمعوا كلهم في طهران، حيث أخذ مصممو الثياب مقاساتهم وجهزوهم، يقودهم مخرج مسرحي محترف، ويدربهم معلم تدريب، حُملوا بعدها بالشاحنات كي يقدموا عرضهم في شيراز. هنا.. بحضور الملكة وخمسمائة ضيف عالمي، في ثياب السهرة الاحتفالية، المناقضة تمامًا للمضمون الديني، وُضع القرويون - للمرة الأولى في أعمارهم - على منصة أمامية، تتوهج فوقهم بقع الضوء فتُغشي عيونهم، وينظرون.. على نحو غائم.. نحو صف من المقاعد تشغلها شخصيات مرموقة في المجتمع، وطلب منهم أن يقدموا «بضاعتهم..» (..) ولم يتوقف أحد ليسأل عن هذه البضاعة التي يتوقع منهم أن يقدموها، ولماذا، وأمام من؟ «هذه الأسئلة لم تُطرح أبدًا، لأنه لا أحد مَعْني بإجاباتها، هكذا. نُفخ في الأبواق الطويلة وقُرعت الطبول، لكن هذا كله لم يكن يعني شيئًا على الإطلاق.

ابتهج المشاهدون الذين جاءوا ليشهدوا قطعة طريفة من الفولكلور، ولم يعرفوا أبدًا أنهم خُدعوا، وأن ما رأوه لم يكن أبدًا «التعزية»، كان شيئًا عاديًا، أقرب لأن يكون سخيفًا وغثًا مجردًا من كل ما يُثير الاهتمام، لم يقدم لهم شيئًا. لم يعرفوا هذا لأنه قدم لهم باعتباره «ثقافة»، وفي النهاية ابتسم المسئولون، وتبعهم الجمع السعيد إلى البوفيه.

كانت «برجزة» العرض تامة وشاملة!..



عود على بدء. في تقديم كتابه يضع الدكتور إبراهيم الحيدري يده على الأفكار الأساسية التي قدم بين يديها الأدلة والتفاصيل على طول صفحات دراسته. يكتب: «يرتبط البُعد الديني لعاشوراء بالبُعد الاجتماعي لها. الذي ينعكس، بشكل أو آخر في التمايز «الطائفي» ذي البُعد السياسي - المصلحي الذي دفع إليه الحكام والسلاطين، والذي أدى إلى حرمان الشيعة في العراق من كثير من حقوقهم، وبخاصة حين تكون السلطة في يد أقلية مذهبية تتسلط على الأغلبية(...) هذه الوضعية غير الطبيعية تجد صداها في العزاء الحسيني الذي كوَّن من الشيعة وحدة من المشاعر العاطفية الحزينة التي تظهر في الخطب والقصائد والمراثي، والتي تعبر بوضوح عن عزاء وشكوى واحتجاج خفي. (...)

إن ظاهرة العزاء الحسيني هي نتاج ظروف وشروط تاريخية وتناقضات اجتماعية - سياسية عميقة الجذور في المجتمع العراقي، ارتبطت بتراجيديا كربلاء من جهة، وبالهموم والآلام التي يعاني منها الفرد. من جهة أخرى. بحيث تحولت هذه المراسيم، وبالتدريج، إلى وسيلة من وسائل التنفيس يستطيع بموجبها أولئك الذين يرزحون تحت وطأة علاقات اجتماعية - سياسية مثقلة بالهم والأحزان. وأن يجدوا فيها أيضًا عزاء وسلوى، وهنا تكمن إحدى إمكانات التماثل والتعويض».

فمتى تتحقق «إمكانات التماثل والتعويض» على أرض الواقع الدامي؟ ■

صنع قواعدها الخليل بن أحمد

المعجمات العربية

العامة والخاصة

شوقي ضيف

المعجمات كتب تحمل مفردات لغوية إما لأمة، فتسمى معجمات عامة، وإما لفرع من فروع الأمة مثل الجغرافيين والمؤرخين والفلاسفة والأدباء، فينسب إليهم، فيقال معجم الأدباء مثلاً إلى غير ذلك من فروع المعجمات، فتسمى المعاجم حينئذ معجمات خاصة.

أ - المعجمات العامة

والمعجمات العامة لا تكتفي بتسجيل مفردات اللغة، بل تضيف إليها تسجيل هجائها ونطقها وتأصيلها ودلالتها أو معناها. وتعني كلمة معجم إزالة العجمة أو الغموض. وشركتها في وقت متأخر بنفس هذا المعنى كلمة قاموس التي سَمَّى بها الفيروز ابادى معجمه، وأصلها في اللغة (البحر العظيم) وسُمِّي بها كل معجم لغوي على التوسع.

وتشمل المعاجم تأصيل الكلمات أي تاريخها ومصطلحاتها وأصواتها التي جعلتها تسجَّل في ذاكرة الحاسوب بمنطوقها الدقيق، كما جعلتها تسجل على الأقراص المدمجة وعلى شبكات الإنترنت. وانفرد العالم العربي بالسبق في صنع المعجمات منذ وضع الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠هجرية معجمه الذي سماه معجم العين، اختارها اسمًا له دون الهمزة أول الحروف الهجائية، لأنه تلحقها تغيرات كثيرة بخلاف العين من الحروف الحلقية التي افتتح بها معجمه، والتي لا يمسها تغير في الأبنية الصرفية، وأنا أوجز منهجه في هذا المعجم العام لأن علماء العرب المعجميين تمسكوا بأكثر قواعده في معاجمهم العامة والخاصة.

وقد رتب الخليل مفردات معجمه على أساس مخارج الحروف، فبدأه بالحروف الحلقية، وأنهاه بحروف العلة والهمزة، واتَّخذ فيه القواعد التالية:

١ - ترتب مفردات المعجم على أساس حروفها الأصول في الكلمة، ولا أهمية للحروف الزوائد. وظلت هذه القاعدة الأساس في المعاجم العربية بعد الخليل حتى العصر الحديث.

٢ - ترتب الكلمات المجموعة في مادة لغوية ترتيبًا داخليًا على أساس الأبنية: الثنائي الثلاثي (الصحيح والمعتل واللفيف أي المجتمع فيه حرفا علة) الرباعي، والخماسي.

٣ - توضع الكلمة وتقاليبها في مادة واحدة. وأطلق الخليل على الصيغة الموجودة في المادة لفظ «مستعمل» والصيغة التي لا توجد لفظ «مهمل».

وتمسكت المعاجم بهذه القواعد - بعد الخليل - إلى العصر الحديث، فلابد أن تجمع مفرداتها باعتبار الحروف الأصول وحدها دون الزوائد، ولابد أن ترتب كلماتها على أساس الأبنية، ولابد أن توضع تقاليب الكلمة في مادة واحدة. وأُلِّفت بعض المعاجم مرتبة ترتيبًا صوتيًا على مخارج الحروف مثل معجم العين للخليل، ووصل إلينا منها اثنان: تهذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سيده الأندلسي. واختلفت المعاجم بعد ذلك فمنها ما أُلِّف حسب الحرف الأول في ترتيبه مثل معجم أساس البلاغة للزمخشري، ومنها ما أُلِّف حسب الحرف الأخير في الكلمات مثل الصِّحاح للجوهري وثلاثة من المعاجم العامة، هي لسان العرب لابن منظور التونسي المتوفى سنة ٧١١ للهجرة، والقاموس المحيط للفيروز ابادى المتوفى سنة ٨١٧ للهجرة، وتاج العروس للزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ للهجرة.

لسان العرب لابن منظور:

ولد ابن منظور في القاهرة، وقيل في طرابلس سنة ٦٣٠ للهجرة/ ١٢٣٢ للميلاد، وتوفي بالقاهرة سنة ٧١١ للهجرة/ ١٣١١ للميلاد، عمل في ديوان الإنشاء بالقاهرة ثم ولي القضاء في مدينة طرابلس. ومعجمه «لسان العرب» طبع مرارًا منذ سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م. ويقول ابن منظور في مقدمة معجمه إنه اعتمد فيه على خمسة معاجم هي:

١ - تهذيب اللغة للأزهري.

٢ - المحكم لابن سيده الأندلسي، وهما من أمهات كتب اللغة.

٣ - الصِّحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري.

٤ - حواشي ابن بري على الصِّحاح. يقول ابن منظور عنه: أتيح له الشيخ أبو محمد بن بري فتتبع ما فيه، وأملى عليه أماليه، مخرجًا لسقطاته، مؤرخًا لغلطاته.. ورتبه ترتيب الصِّحاح في الأبواب والفصول.

٥ - النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري، ويقول ابن منظور عن عمله في كتابه: إنه جمع فيه ما تفرق في تلك الكتب (الخمسة) المذكورة ونقل من كل أصل مضمونه ويقول لم أبدل منه شيئًا فيقال: (بدَّل) فإنما إثمهُ على الذين يبدلونه، بل أديت الأمانة في نقل الأصول بالنص، وما تصرفت فيه بكلام غير ما فيها من النص، فليعتد من ينقل عن كتابي هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة إذ نُقل عنها حرفيًا ابن منظور مادة كتابه، ولم يتصرف فيها أي تصرف، حتى بلغ بها عشرين مجلدًا ضخمًا، وراجعها عالم حجة من أعظم علماء مصر حينذاك هو الشيخ العلامة أبو محمد بن بري.

محيط الفيروزابادى

ولد الفيروزابادى محمد بن يعقوب الشيرازي سنة ٧٢٩ وانتقل مبكرًا إلى العراق وجال في الشام ومصر وأخذ عن علمائهما جميعًا ودخل الروم والهند، واستقر في زبيد باليمن وبالغ في إكرامه سلطانها الأشرف إسماعيل وتوفي بها قاضيًا سنة ٨١٧ وانتشر معجمه: «القاموس» انتشارًا واسعًا في البلدان العربية حتى صار اسمه علمًا على كل معجم عربي.

والقاموس مطبوع في أربعة مجلدات ضخام وميَّزه الفيروزابادى بسبع ميزات:

الأولى: أنه جعل الكلمة الأصلية فيه بين قوسين ويعلو الكلمات المزيدة على معجم الصِّحاح للجوهري خط ممتد إشارة إلى الفرق بينهما.

الميزة الثانية: تخليص الواوي من اليائي في المعتل، فتكتب صورة الواو، وتذكر مادتها اللغوية، وتصوَّر الياء وتتبعها مادتها اليائية مثل (أتا) فإن العرب استعملوا فيها مادة (الأتْوْ) وهو الاستقامة في السير ومادة الأتْي وهو الإتيان والمجيء فتكتب أولاً صورة الواو، وتذكر مادتها، فإذا فرغ من المادة الواوية كُتبت صورة الياء وأتبعت بمادتها اليائية، وإن أُهمل أحد الحرفين: الواو أو الياء تُرك وصُوِّر المستعمل فقط، وقد يصور الحرفان معًا مجموعين وتليهما مادتاهما وقد يحذفان وتذكر مادتاهما وقد تحذف إحداهما وتذكر مادتها مما يتطلب الإحاطة التامة بالصيغتين الواوية واليائية ومادتيهما المختلفتين.

والميزة الثالثة: أن جَمْعَ اسم الفاعل المعتل العين إذا جاءت صحيحة مثل جَوَلَة جمع جائل ذكرت فيقال: جَوَلة، إما إذا اعتلت فإنها تقلب ألفًا مثل بائع وباعة وقائد وقادة وسيد وسادة.

والميزة الرابعة: أن كلمة المؤنث لا تذكر مرة ثانية بعد ذكر المذكر إذ يقال: «وهي بهاء أي أن أنثى هذا المذكر بهاء» وتُرك هذا المصطلح مرارًا.

والميزة الخامسة: أنه إذا ذكر الماضي وحده أو المصدر وحده، فالمضارع مضموم العين مثل يكتب، أما إذا ذكر الماضي والمضارع معه فإن الفعل يكون من باب ضرب ما لم يمنع من ذلك مانع كأن يكون الفعل حَلْقي العين أو اللام مثل منع فإن الباب فيه الفتح، وربما جاء مضمومًا مثل: صرخ يصرُخ ونفخ ينفُخ أو مكسورًا مثل نزع ينزِع ورجع يرجِع، وربما جاء الضم والفتح مثل صلح يصلُح ويصلَح وفرغ يفرُغ ويفرَغ ورعدت السماء ترعُد وترعَد، وربما جاء الفتح والكسر مثل رضع يرضَع ويرضِع ومنَح يمنَح ويمنِح ونبح ينبَح وينبِح، وربما جاءت الحركات الثلاث مثل نحت ينحُت وينحَت وينحِت ونبع ينبُع وينبَع وينبِع.

والميزة السادسة: قال اللغوي أبو زيد: المشاهير المتداولة من الأفعال التي يجيء ماضيها الاصطلاحي على فعل بالفتح أنت بالخيار في المضارع فإن شئت قلت يفعُل بضم العين، وإن شئت قلت يفعل بكسرها، وإذا لم يقيَّد المضارع حينئذ بضم أو بكسر فهو الفتح.

والميزة السابعة: إن الفيروزابادى اتخذ فيه خمسة أحرف رموزًا لدلالات متعددة، فالميم لمعروف والعين لموضع والجيم

للجمع، والرمز بالجيمين لجمع الجمع والرمز بثلاث جيمات لجمع جمع الجمع، وبالهاء لقرية، وبالدال لبلد، وبقيت بالقاموس ضوابط واصطلاحات أخرى تعرف بالممارسة والاستقراء، منها أنه يقدم ذكر المقيس من المصادر والجموع على غيره، ومنها أنه اختار استعمال ـ لفظين ـ التحريك ومحركًا فى الكلمة المبدوءة حروفها بفتحتين مثل جَبَل وفَرَح، ويطلق الفتح أو الضم أو الكسر على المحرك بإحداها.

تـــاج الــعـــــروس.. من جواهر القاموس

مؤلفه السيد محمد مرتضى الحسينى الزبيدى وهذا المعجم أكبر المعاجم العربية، وهو ليس كتابًا مستقلاً، بل هو شرح على القاموس المحيط للفيروزابادى توسع فيه مؤلفه سعة كبيرة، حتى أصبح أكبر المعاجم العربية، وأوضح المؤلف فى مقدمته مصادره فيه، ومنها المعاجم والكتب اللغوية السابقة له مثل الصِّحاح للجوهرى وتهذيب اللغة للأزهرى والمحكم لابن سيده والجمهرة لابن دريد والمجمل لابن فارس والعباب والتكملة للصاغانى ومعاجم القرآن والحديث النبوى مثل مفردات القرآن للراغب الأصفهانى والأساس والفائق للزمخشرى والنهاية لابن الأثير وكتب القراءات وشروح الشعر مثل ديوان الهذليين لأبى سعيد السكرى وتاريخ دمشق لابن عساكر وأجزاء من تاريخ بغداد للخطيب البغدادى وطبقات المفسرين للداودى وطبقات الشافعية للسبكى والجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية للقرشى والبداية والنهاية لابن كثير والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى والتذكرة فى الطب للأنطاكى وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى وكتاب المعرب للجواليقى، وكأنه لم يترك كتابًا لهم فى المعاجم واللغة وشروح الشعر والدراسات اللغوية مثل الخصائص لابن جنى والمقصور والممدود للقالى، وأخذ مالا يكاد يحصى من كتب الطبقات والوافى بالوفيات للصفدى.

وكان الزبيدى ينقل فى كتابه التاج عن هذه المصادر وأمثالها نقولاً كثيرة دون أن يدخل عليها أى تبديل أو تغيير، فلم يبدل فيها أى شىء قائلاً: «وأنا مع ذلك لا أدعى فيه دعوى فأقول: شافهت أو سمعت أو رحلت، أو أخطأ فلان أو أصاب أو غلط القائل فى الخطاب.. ولعمرى لقد جمع فأوعى، وأتى بالمقاصد ووفى، وليس لى فى هذا الشرح فضيلة أمتُّ بها ولا وسيلة أتمسك بها سوى أننى جمعت فيه ما تفرق فى تلك الكتب من منطوق ومفهوم، وسميته تاج العروس من جواهر القاموس». وأتبع هذا الكلام بحديث عن عشرة مقاصد للكتاب من أهمها بيان سعة لغة العرب، والمتواتر فى الكتاب عن الرواة والآحاد والمطرد والشاذ والمعرَّب والمولد والأضداد. وكانت مصر البلد الذى اختاره الحسينى الزبيدى لتأليف معجم تاج العروس فيه، وبدأ بها جزءه الأول سنة ١١٧٤ للهجرة بعد قدومه إلى مصر بسبعة أعوام كان فيها يعدُّ لكتابته، واستغرق الجزء الأول منه ستة أعوام وبضعة أشهر وأتم الأجزاء التسعة الباقية فى سبعة أعوام وبضعة أشهر، إذ انتهى منه سنة ١١٨٨ للهجرة. وأكمل معارضته على كتاب التكملة للصاغانى فى جمادى سنة ١١٩٢.

وبتاج العروس انتهت المعاجم العامة القديمة، معاجم الأسلاف وانتقل إلى معاجم المجمع اللغوى العامة، وهى اثنان: معجم كبير ومعجم وسيط، والمواد فيهما مرتبة وَفْق الحروف الأصلية للكلمات دون الحروف المزيدة، وأعرض المنهج الذى وضعه المجمع لكل منهما فى إيجاز.

المعجم الكبير

توضع فى أول المواد النظائر السامية إن وجدت، وترتَّب المعانى الكلية متدرجة من الأصلى إلى الفرعى، ومن الحسى إلى المعنوى ومن الحقيقى إلى المجازى ومن المألوف إلى الغريب. وقدمت الأفعال على الأسماء والثلاثى منها على الرباعى والمجرد على المزيد واللازم على المتعدى والمبنى للمعلوم على المبنى للمجهول. وتضبط عين المضارع بوضع خط أفقى صغير عليها، وتوضع الضمة والفتحة فوق هذا الخط والكسرة تحته هكذا: ـُـَـــ . وإذا اختلف الفعل الثلاثى الأجوف بين واوى ويائى فُصل بينهما فى المعانى والأمثلة. ويَذكر ما نصت عليه المعاجم من مصادر الثلاثى ويقدم القياسى، ولا تذكر مصادر غير الثلاثى لأنها قياسية. ولا تذكر المشتقات لأنها قياسية أيضًا.

وتذكر الكلمات التى وقع الإبدال فى بعض حروفها مثل وشاح فقد أبدلت الواو همزة فتذكر إشاح، وتحال على مادتها وشاح، ولا يذكر من الجموع إلا جموع التكسير القياسية، أما غير القياسية فلا يذكر منها إلا ما نص عليه. وما تصرف من المعربات فى مادته الثلاثية مثل لجام يذكر فى مادته وما لم يتصرف فيه بالاشتقاق يذكر كاملاً فى مادته مثل أرخميدس فإنها تحال على أصلها: أرشميدس. وما عربه نصارى الشرق ينطق كما عربوه مثل بطرس فى (Peter) أو بقطر فى (Victor) وبولس فى (Poul) وتستكمل المواد اللغوية عند الحاجة، وبالمثل يتوسع فى الاشتقاق من الجامد. ويستشهد من القرآن الكريم ـ والحديث النبوى ـ والنصوص الأدبية والمثل والشعر.

الجانب الموسوعى

يذكر من مصطلحات العلوم العربية ما شاع استعماله بين العلماء مما له صلة بالحياة العامة وألفاظ الحضارة، كما تذكر أعلام الأماكن والبلدان وأسماء الدول والمدن الشهيرة وأسماء المشاهير من الرجال، وتذكر وفاة العلم بالتاريخين الهجرى والميلادى وتذكر أهم الحيوانات والنباتات العربية. ويشار إلى ما قاله علماء الحيوان والنبات من العرب ويستعان للتوضيح بصور الحيوانات ورسوم النباتات، وتعرَّف تعريفًا علميًا دقيقًا مع ذكر مقابلها الأجنبى.

المعجم الوسيط

وضع المجمع هذا المعجم ليحافظ على سلامة اللغة العربية ويجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون، ملائمة لحاجات الحياة المعاصرة، وبادر باتخاذ الوسائل التى تكفل له ذلك وما يطوى فيها من قرارات لغوية، منها:

١ ـ فتح باب الوضع للمحدثين عن طريق الاشتقاق والمجاز والارتجال.

٢ ـ إطلاق القياس ليشمل ما قيس من قبل وما لم يقس.

٣ ـ الأخذ بالسماع من طوائف المجتمع كالنجارين والحدادين وغيرهما من أصحاب الحرف والصناعات.

٤ ـ الاعتداد بالألفاظ المولَّدة والمعربة والدخيلة والمحدثة.

٥ ـ الاعتداد بالمصطلحات العلمية فى مختلف العلوم والفنون وبالتعريفات العلمية الدقيقة.

وأهملت فى هذا المعجم الألفاظ الجافية الحوشية: والمترادفات الناشئة عن اختلاف اللهجات مثل: اطمأن واطبأن.

وروعى أن تكون ألفاظ المعجم من السهل الناصع المأنوس من الكلمات والصيغ. وعُزِّز بالاستشهاد المحكم من القرآن والأحاديث والأمثال والأشعار وتراكيب الأدباء وصيغهم البلاغية. وقُدِّمت فيه الأفعال المجردة على المزيدة، والأفعال على





كانت مصر البلد الذى اختاره الحسينى الزبيدى لتأليف معجم تاج العروس فيه، وبدأ بها جزءه الأول سنة ١١٧٤ للهجرة بعد قدومه إلى مصر بسبعة أعوام كان فيها يعدُّ لكتابته





الأسماء والمعنى الحسى على المعنى العقلى والحقيقى على المجازى والفعل اللازم على المتعدى، وفُصل مضعف الرباعى من الثلاثى مثل زلازل وزلّ.

وأهمل من المؤنثات ما كان بالتاء زيادة على مذكره لوضوحه وشهرته، ما كان يؤنث بغير التاء اكتفى منه بما يخفى على كثيرين. ويراعى ذكر ما أقره المجمع مثل:

١ - قياس المطاوعة لفعَّل مضعف العين مثل تفعَّل.

٢ - قياس المطاوعة من فَعْلَلَ وما ألحق به مثل دحرجته فتدحرج.

٣ - قياس تعدية الفعل الثلاثى اللازم بالهمزة.

٤ - قياس صيغة استفعل لإفادة الطلب والصيرورة.

٥ - قياس صنع المصدر الصناعى بزيادة ياء مشددة على الكلمة.

٦ - قياس صوغ مصدر على فُعال من الفعل اللازم المفتوح العين للدلالة على المرض.

٧ - قياس صوغ مصدر على فَعالة من الثلاثى للدلالة على الحرفة أو ما يماثلها.

٨ - قياس صوغ اسم على وزن مِفْعل ومِفْعال ومفعلة وفعَّالة من الفعل الثلاثى للدلالة على الآلة مثل مبرد - مسمار - مكحلة - سماعة.

٩ - قياس صوغ مَفْعلة اسمًا للمكان الذى تكثر فيه بعض أسماء الأعيان مثل مأسدة، مبطخة.

١٠ - تكمل المادة اللغوية إذا ورد بعضها ولم يرد البعض الآخر.

١١ - تذكر الرموز التى وضعت للمعجم مثل (ج)، للجمع و(مو) للمولد و(مع ـــ) للمعرب و(د) للدخيل.

١٢ - يوضع فى المعجم ما يحتاج إليه من الصور والرسوم للحيوانات والنباتات للتوضيح.

ب - المعاجم الخاصة

بجانب المعاجم العامة الكثيرة التى وضعها العرب لألفاظ العربية محاولين تفسيرها معاجمُ خاصة وضعوها للألفاظ الغريبة فى كتاب الله. وبالمثل عُنوا بوضع كتب للحديث النبوى ومعاجمه أو للفقه والشريعة أو لأى علم من العلوم. وتسمى معاجم خاصة لأنها تخص القرآن الكريم أو الحديث النبوى أو علمًا من العلوم، واستهلها بالمعجم الذى وضعه المجمع اللغوى لألفاظ كتاب الله باسم:

معجم ألفاظ القرآن الكريم

تتعقب اللجنة التى عنيت بوضعه فى مقدمته كتب التاريخ والتراجم والدراسات القرآنية وما ألف من كتب فى تفسير غريب القرآن، وبلغت ثلاثة وثلاثين كتابًا أو معجمًا، ولم يكن بد لها من اتباع أحد منهجين فى التأليف:

المنهج الأول: التزام ترتيب السور القرآنية وآياتها على نحو ما نجد فى كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ للهجرة، وكلمة مجاز المسمى بها الكتاب لا تعنى المعنى البلاغى إنما تعنى المعنى اللغوى أى المسلك والطريق إلى تفسير ألفاظ القرآن الكريم وفهم أساليبه على ضوء طبيعة لغة العرب وأساليبهم فى الكلام.

والمنهج الثانى: الترتيب الهجائى أو المعجمى كما فى «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢ للهجرة وهو يتبع ذكر المواد اللغوية القرآنية، ويذكر فيها تفسير الكلمات القرآنية مستطردًا إلى تفسير ما يعنُّ له من حديث نبوى أو أثر أو أى أسلوب أو أى لفظ من ألفاظ المادة.

وقدمت ورقة عمل مقترحة فى معجم المجمع، وهى:

أولاً: فى عرض المادة

١ - تحرَّر معانى الألفاظ فى ضوء السياق اللغوى وضوء ما ورد فى القرآن من صور المادة فى دقة وإيجاز.

٢ - لا تُعْرَضُ الكلمة إلا فى موطن واحد، وإذا كان للكلمة أكثر من معنى يشار إلى المعانى خلال عرض الآيات.

٣ - تجرَّد المواد من ذكر الأرقام، وإن كان من المستحسن أن توضع علامة مميزة أمام بدء المادة أو أمام كل صورة من صورها.

٤ - مراعاة الترتيب الهجائى فى عرض المادة، وسيأتى تفصيل ذلك فى الأفعال والأسماء.

ثانيا: منهج العرض والتنسق

أ - فى الأفعال

١ - تذكر الأفعال بجميع صورها.

٢ - تستوفى صور الماضى ومعه الماضى المبنى للمجهول، ثم المضارع ومعه المبنى للمجهول منه ثم الأمر.

٣ - يذكر الفعل اللازم أولاً: ثم المتعدى بحرف - ثم المتعدى لمفعول به ثم المتعدى لمفعول وبحرف - ثم المتعدى لمفعولين وهكذا

٤ - يذكر من الأفعال المجرد بجميع صوره ثم المزيد.

٥ - يتبع الترتيب الهجائى فى كل ذلك، كما يتبع مع الضمائر واللواحق فمثلاً تذكر ضرب ثم ضربنا، ثم ضربت ثم ضربتما ثم ضربتم ثم ضربتن ثم ضربوا، ومع الفعل المزيد يذكر: أسلم قبل سالم وسالم قبل سلَّم.

ومع الفعل المضارع يتبع الترتيب الهجائى فى أوله ولواحقه كالتالى: أضرب / تَضْرب / نَضْرب / يضرب.

ومع تضرب يرتب الفعل هكذا: تضرب / تضربان / تضربون / تضربين.

ثالثا: فى الأسماء

١ - يتبع الترتيب الهجائى.

٢ - يذكر الاسم النكرة: مرفوعة ومجرورة ثم منصوبة، ثم المعرف بأل ثم المضاف للظاهر ويرتب هجائيًا بحسب ما أضيف إليه، ثم المضاف للضمير ويرتب هجائيًا بحسب ما أضيف إليه.

٣ - عندما تتعدد صور الاسم الواحد فى مبدأ حروفه يبدأ بالفتح ثم بالضم ثم بالكسر.

٤ - عند التعريف للأعلام يلتزم التعريف المفيد الموجز مع الانتفاع بسياق القرآن ومضامينه فى التعريف.

رابعًا: حروف المعانى

كحروف الجر والاستفهام والشرط والنداء: تذكر معانيها فى السياق القرآنى مع الاكتفاء بمثال قرآنى واحد.

الأعلام القرآنية تضاف مع تعريف موجز ومع الانتفاع بالسياق القرآنى فى التعريف ومضامينه.

وكان تفكير المجمع فى وضع هذا المعجم ثمرة سنوات طوال كان أعضاء المجمع فيها يتحاورون فى منهجه ويتناقشون طويلاً فى تأنٍّ شديد حتى استطاعوا إخراجه فى هذه الصورة الحية الخالدة.

غريب الحديث

أُلِّفت عشرات من الكتب فى غريب القرآن حتى لتجمع مقدمة معجمه فيها ثلاثة وثلاثين كتابًا، وتكثر بالمثل كتب غريب الحديث تقربًا إلى الله ورسوله وكان أول من بدأ التأليف فى غريب الحديث أبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ وتبعته جماعة كان منهم أبا عبيد القاسم ابن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ وكتابه: «غريب الحديث» من أروع الكتب التى ألفت فى الموضوع، ونشره المجمع لنفاسته وأهميته.

ضم أبو عبيد فى هذا الكتاب ما كتبه أسلافه فى غريب الحديث من مؤلفات حققها تحقيقًا علميًا دقيقًا ضابطًا لألفاظها ومفسرًا لمعانيها، ومرتبًا بدقة لمسانيده: مسانيد الصحابة وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون، ثم بعض أمهات المؤمنين وغيرهن، ثم مسانيد التابعين وغيرهم. وعُنى بتأليفه أزمنة طوالاً يعاود النظر فيه، حتى أصبح كما يقول الخطابى إمامًا لأهل الحديث به يتذاكرون وإليه يتحاكمون. وظل طوال أربعين عامًا يراجع فيه وينقح، ما وسعه التنقيح والمراجعة، وبحق لقب فى عصره سابق معاصريه فى علوم القرآن وإمامَهم فى علوم الحديث واللغة والفقه. وقد ذكرت الكتب الكثيرة التى ترجمت له عشرات العلماء الذين أخذ عنهم من مثل أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد والكسائى والشافعى وغيرهم من لغويى الأمة وفقهائها العظام. وفى كتابه: غريب الحديث يقول اللغوى الكبير ابن درستويه: جاء أبو عبيد فجمع عامة ما فى كتب غريب الحديث التى سبقته وفسرها وذكر أسانيدها، وصنف كتابه المسند على حدته وأحاديث كل رجل من الصحابة والتابعين

ألفت عشرات من الكتب فى غريب القرآن حتى لتجمع مقدمة معجمه فيها ثلاثة وثلاثين كتابا، وتكثر بالمثل كتب غريب الحديث تقربا إلى الله ورسوله وكان أول من بدأ التأليف فى غريب الحديث أبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠



على حدته وأجاد تصنيفه، ورغَّب فيه أهل الحديث والفقه واللغة، لاجتماع ما يحتاجون إليه فيه. ويقول أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ للهجرة فى كتاب غريب الحديث لأبى عبيد: كان أول من سبق إلى إتقان هذا التصنيف ودل مَنْ بعده عليه أبو عبيد القاسم بن سلام فإنه قد وعى تصنيفُه عامة ما يحتاج إلى تفسير من مشاهير كتب غريب الحديث، فصار كتابه إمامًا لأهل الحديث به يتذاكرون، وإليه يتحاكمون. ويتكاثر التأليف فى غريب الحديث منذ أواخر القرن الثانى للهجرة ويذكر الأستاذان طاهر الزاوى ومحمود الطناحى فى مقدمة تحقيقهما لكتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ للهجرة خمسة وأربعين كتابًا فى غريب الحديث ألفت حتى عصره، ومنها كتاب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة، وكتاب الدلائل لقاسم بن ثابت السرقسطى الأندلسى المتوفى سنة ٣٠٢ للهجرة وكتاب لأبى بكر الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة، وقيل عن مصنفه فى غريب الحديث إنه كان خمسة وأربعين ألف ورقة، ومنها كتاب الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨.

وقد بدأت هذه الجهود فى شرح غريب الحديث منذ أبى عبيدة معمر بن المثنى فى أواخر القرن الثانى الهجرى حتى انتهت إلى كتاب النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير.

المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير

لأحمد بن محمد بن على الفيومى، وهو منسوب إلى فيوم العراق لا إلى فيوم مصر. من علماء القرن الرابع عشر الهجرى إذ توفى سنة ٧٧٠ للهجرة ١٣٦٨ الميلادى. والمصباح المنير معجم لغوى خاص لشرح غريب كتاب الرافعى فى الفقه، وفى مقدمته أنه استمده من معاجم لغوية مثل تهذيب الأزهرى ومجمل ابن فارس وديوان الأدب للفارابى والصحاح للجوهرى وأساس البلاغة للزمخشرى، ومن معاجم فرعية خاصة مثل إصلاح المنطق لابن السكيت وفصيح ثعلب. ورتب ألفاظه وفقًا لحروفها الأصول مبتدئًا من حرف الألف فى الحروف الهجائية إلى حرف الياء غير أنه وضع الألفاظ الرباعية والخماسية مع الألفاظ الثلاثية، فوضع برقع الرباعية من برق الثلاثية.

وأكثر من الاستشهاد بالأحاديث النبوية، وعُنى بإبراز المعانى الفقهية إلى جانب المعانى اللغوية، وتوسع فى المشتقات والتزم بالإشارة إلى أبواب الأفعال فيقول مثلاً: دَفَّ من باب فعل وأكثر من ذكر جموع الأسماء والصفات، ومن التفصيل فى المسائل اللغوية والصرفية والنحوية. وضبط المادة بالعبارة كأن يقول: الطُّنْب بضم الأول وسكون الثانى. وذيل المؤلف المعجم بخاتمة نحوية وصرفية فى منتهى الدقة. وحاول تخليص الواوى من اليائى. وكتب الباب والفصل ورأس كل مادة باللون الأحمر. وعُنى بالضبط فيه وذكرِه أبوابَ الفعل عناية كبيرة.

المعجم الوجيز

هذا هو المعجم الثالث لمجمع اللغة العربية، فقد عنى المجمع بمعجم كبير ومعجم وسيط تحدثنا عنهما، وبقى هذا المعجم الوجيز الذى جعله المجمع وافيًا بحاجة التلاميذ فى التعليم الثانوى بلغة فصيحة ليس فيها ألفاظ حوشية غريبة مع إدخال ما دعت إليه الضرورة من الألفاظ المولَّدة والمحدثة والمعربة والدخيلة. وقد وعى المعجم من مادة اللغة نحو خمسة آلاف مادة وأضاف فيها الصور والرسوم التى يُحتاج إليها فى معرفة الحيوانات والنباتات وبعض الآلات، واختير له من الجموع والمصادر أشهرُها وأكثرُها استعمالاً.

وقُدِّمت فى المعجم الأفعال على الأسماء والمجرَّد من الأفعال على المزيد ووضعت لهما فى المقدمة جداول تضبط ترتيبهما، وقُدِّم الفعل اللازم على المتعدى والمعنى الحسِّى على المعنى العقلى.

وما ألحق بالرباعى مثل كوثر وضع فى باب: كثر، ووضع المضعف الرباعى مثل زلزل فى بابه الرباعى لا فى زل الثلاثى.

والكلمات التى أبدل أولها الواوى تاء مثل تجه وتؤده وتقى وضعت مع أصلها فى باب الواو، وذكرت الكلمات حسب نطقها لا حسب تصريفها.

وذكرت طائفة من المصطلحات العلمية الشائعة التى يستخدمها التلاميذ فى دروسهم وأحاديثهم، وضبطت التعريفات بلغة سهلة واضحة.

ورتبت الكلمات فى المعجم وَفْقَ الحرف الأول فالثانى فالثالث من حروف الهجاء وتوضع نجمة فى أول المادة. والرموز (ج) للجمع و ـــُـَـ (جج) لجمع الجمع وتوضع الحركات: الضمة والفتحة فوق خط والكسرة تحته هكذا ـــُـَ ـــِ.

ومثل أذَّن وتأذَّن واستأذن تطلب فى أصلها الثلاثى: «أذن». وتوضع تعلَّم وعلَّم وتعالم واستعلم فى أصلها «علم». ويطلب فى المعجم: الأديب ومأدبة فى أدب. وإن كان المعرب غير مشتق فإن حروفه كلها تعد أصولاً مثل: إبريق، جلسرين. ■

كتاب الزاوية

ميثاق الأمم المتحدة (١٩٤٥)

يمتنع أعضاء الهيئة جميعاً فى علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأية دولة أو على أى وجه آخر لا يتفق ومقاصد «الأمم المتحدة». (مادة ٢)

إذا أمعن عضو من أعضاء «الأمم المتحدة» فى انتهاك مبادئ الميثاق جاز للجمعية العامة أن تفصله من الهيئة بناءً على توصية مجلس الأمن. (مادة ٦)

يتعهد أعضاء «الأمم المتحدة» بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها وفق هذا الميثاق. (مادة ٢٥)

إذا أخفقت الدول التى يقوم بينها نزاع من النوع المشار إليه فى المادة ٣٣ فى حله بالوسائل المبينة فى تلك المادة وجب عليها أن تعرضه على مجلس الأمن. (مادة ٣٧)

يقرر مجلس الأمن ما إذا كان قد وقع تهديد للسلم أو إخلال به أو كان ما وقع عملاً من أعمال العدوان، ويقدم فى ذلك توصياته أو يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير طبقاً لأحكام المادتين ٤١ و٤٢ لحفظ السلم والأمن الدوليين أو إعادته إلى نصابه. (مادة ٣٩)

إذا رأى مجلس الأمن أن التدابير المنصوص عليها فى المادة ٤١ لا تفى بالغرض أو ثبت أنها لم تف به، جاز له أن يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدوليين أو لإعادته إلى نصابه. ويجوز أن تتناول هذه الأعمال المظاهرات والحصر والعمليات الأخرى بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لأعضاء «الأمم المتحدة». (مادة ٤٩)





فى الذكرى العاشرة لوفاته:

جمال حمدان

وعبقرية المكان

عُبادة كُحيلة



جمال حمدان مفكر كبير، عاش فى صمت، ورحل عن دنيانا فى صمت، وبين صمت وصمت ملأ الدنيا وشغل الناس.

بدأت معرفتى به قبل سنوات بعيدة فى زمان الصبا، حيث كنت أطلب العلم بالجامعة، ثم تأكدت هذه المعرفة بعد الجامعة، صرت أختلف إليه، فأمضى معه ساعات وساعات، لا أحس خلالها بزمن، وهو يجتاب معى آفاقًا رحبة وعوالم خصبة، بحيث كنت أنسى.. ربما أنسى إلى أى تخصص ينتمى.

تقطعت الجلسات ثم انقطعت، حين علا السياج بين حمدان وبين من هم خارج حمدان.

نشر حمدان نحوًا من عشرين كتابًا، وعشرات من المقالات فى مختلف المجلات، كان يصدر فيها جميعها عن حبه لمصر، وكل ما ينتمى إلى تراث مصر.

فى هذه الكتب وغيرها جعل حمدان الجغرافيا تنفتح على غيرها من الإنسانيات، بل إنه يجعلها «علمًا بمادتها، فنًا بمعالجتها، فلسفةً بنظرتها».. لقد حوَّل حمدان الجغرافيا من حقائق إلى أفكار، وصعد بها إلى أعلى مراحلها.. شخصية المكان، وهى جماع ما ينبئ عنه المكان، وصاغ هذه الأفكار بأسلوب راق ومتميز، يصعب معه أن تحذف كلمة من عبارة ولا عبارة من سياق.

«شخصية مصر» هو عمل حياته، صدرت طبعته الأولى ١٩٦٧، حين كان هناك أمل، وصدرت طبعته الثانية ١٩٧٠، حين ذوى الأمل، وصدرت طبعته الثالثة والأخيرة ١٩٨٠ - ١٩٨٤ حين صارت خشية من ضياع الأمل.

والكتاب ملحمة شجية فى حب مصر، فوسط أجواء الركاكة التى رانت على حياتنا فى العهد الأخير، يبزغ هذا الكتاب شهابًا، لكنه لا يحترق، يظل مضيئًا، بعد انقضاء الكتاب وقضاء الكاتب.

يتفرد جمال حمدان عن غيره.. العقاد، غربال، حسين فوزى وحسين مؤنس بأنه كتب عن «شخصية مصر» وكتبوا هم عن «شخصية المصريين» وكتابه محاولة لتفسير شخصية مصر فى إطار بُعدين أساسيين، هما الموضع والموقع، أو أن شخصية مصر هى محصلة هذين البُعدين والعلاقة بينهما.. ولندعه يشرح هذه النظرية لأن على أساسها يقوم الكتاب كله.

يقول حمدان: «والنظرية العامة التى نقدم فى تفسير هذه الشخصية الفلتة، هى التفاعل ائتلافًا أو اختلافًا بين بُعدين أساسيين فى كيانها، هما الموضع Site والموقع Situation، فالموضع نقصد به البيئة بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها، أى البيئة النهرية الفيضية بطبيعتها الخاصة، وجسم الوادى بشكله وتركيبه إلخ.. أما الموقع فهو صفة نسبية تتحدد بالنسبة إلى توزيعات الأرض والناس والإنتاج حول إقليمنا، وتضبطه العلائق المكانية التى تربطه بها. الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة».

فى إطار هذه النظرية تتحدد ملامح الشخصية المصرية أولاً: فى التجانس، والتجانس هنا طبيعى، مادى، عمرانى، حضارى وبشرى.. أما عن التجانس الطبيعى فمصر نموذج البيئة الفيضية المطلق، حيث يتدرج الوادى على نحو بطىء بين الشلال والبحر، بحيث لا يصير ثم تباين إلا بين قاصية الشمال فى برارى الدلتا، وقاصية الجنوب فى النوبة السفلى، كما يمتد التجانس إلى المناخ، فمناخ مصر صحراوى لا يعرف سوى فصلين اثنين طوال العام، بحيث يصعب الحديث عن أقاليم مناخية بها.

ويرتبط التجانس الطبيعى بالتجانس المادى، فقد أفضت طبيعة التربة والرى والحرارة إلى أن تصير مصر المعمورة بيئة زراعية، أو أنها حقل واحد متصل من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، تتم زراعته بكثافة، ولا تدرج بين الوادى والصحراء، بل انقطاع مفاجئ وحاد.



نتج عن التجانس الطبيعى والتجانس المادى تجانس عمرانى، فالنيل هو العامل الأهم فى تشكيل العمران، ومدننا وقرانا فى معظمها تقع على النيل أو بين أحضانه، وهو الذى يربط بينها ويحدد عدد سكانها.

أما عن التجانس الحضارى فالسمة العامة للقرية المصرية، أنها امتداد للأرض السوداء أى الحقول، وفيما عدا العاصمتين لا تختلف المدينة عن القرية إلا بكونها قرية كبيرة.

ننتقل أخيرًا إلى التجانس البشرى وهو يعود إلى بداية العصر التاريخى، فالمصريون المحدثون كأسلافهم القدماء عنصر واحد، لم يعرفوا هجرات ذات شأن سوى الهجرة العربية، وهى هجرة أقرباء، يشتركون مع المصريين فى انتمائهم جميعهم إلى عرق واحد.. لذا لم تعرف مصر الحاجز اللونى، ولا التمييز العنصرى.

مصر إذن وطن متجانس، أى وطن أحادى النغمة، وهو ما أفضى بدوره إلى ملمح آخر فى شخصيتها هو وحدتها، فموقعًا تحددت مصر شمالاً وعلى نحو قاطع بالبحر، وما عداه صحراوات شاسعة، تعد تخومًا للوادى، وتنحدر فى اتجاهه، مما يجعلها جزءًا متممًا له، وكفلت له الصحراء الحماية، وموضعًا كانت ضآلة المعمور مساحيًا داعية إلى

شخصية مصر
جمال حمدان
القاهرة: عالم الكتب،
الطبعة الثالثة ١٩٨٠

التوحيد، يشقه شارع طويل هو النيل، بحيث لا توجد رقعة واحدة من المعمور، تبتعد عن النيل أو فروعه، وليس بغريب إذن أن مصر لم تعرف الطرق الرومانية رغمًا عن طول عهدها بالرومان.

هذه الوحدة الطبيعية عاش فى جنباتها شعب واحد حياة اقتصادية مشتركة، هى أهم عنصر فى نشوء الأمة، فصارت مصر أول أمة فى التاريخ وأول دولة.. دولة غير قابلة للانقسام، فلا يمكن الحياة لدولتين تخطط كل واحدة منهما للرى منفصلة عن الأخرى، وبالتالى تتصارعان على مشكلة المياه، ثم تتصارعان على مشكلة الخروج إلى البحر، مما يؤدى فى النهاية إلى الوحدة.

أسفرت الوحدة الطبيعية عن وحدة وطنية، فمن ناحية اللغة لا توجد سوى جيوب لغوية لا وزن لها (النوبة - سيوة - حلايب)، بل إن هذه الجيوب فى حقيقتها مزدوجة اللغة، أى تجمع بين العربية ولغاتها الخاصة، أما من ناحية الدين فنسبة الأقباط ثابتة تقريبًا، بل ربما تتناقص، بسبب التحول الدينى والهجرة إلى الخارج ومستوى المواليد.

هذا التمايز اللغوى أو الدينى إذا صح أنه كذلك يدنى من وقعه أن تكوين مصر الجنسى سابق لتكوينها اللغوى وتكوينها الدينى، ومما يؤكد الوحدة أن المسلمين والأقباط يتداخلون جميعًا فى مصر كلها، ولا يشكل الأقباط أغلبية فى إقليم بذاته.

المظهر الأخير للوحدة الوطنية هو الوحدة السيكولوجية، ومصدرها النيل الذى جعل المجتمع المصرى مجتمع حضر، يكاد يخلو من البداوة، بل إنه يتداخل فى طقوسها الدينية - فرعونية ومسيحية وإسلامية - ويدنى من ثنائيتها الدينية، فهو دين المصلحة المشتركة والخطر المشترك والحياة المشتركة، وبذا قل أن نجد شعبًا متماثلاً فى ملامحه الجسمية والنفسية كالشعب المصرى.

إلى هنا ينتهى الحسم الجغرافى كما يدعوه حمدان، لكن هذا الحسم الذى أدى إلى دولة أحادية فى أبعادها هو نفسه الحسم الذى أدى إلى أن تكون حكومتها قوية ومركزية فى آن.. وهو الملمح الثالث فى شخصيتها.

كيف كان ذلك؟

يعاود حمدان التأكيد على أن البيئة الفيضية، دفعت إلى ضبط النهر، وضبط النهر دفع إلى ضبط البشر، بمعنى أنه لابد من سلطة عامة قوية، تصير وسيطًا بين الفلاح والنهر، وزاد من قوة هذه السلطة، ما نيط بها من حماية البيئة الفيضية من خارجها، أى من البدو الذين كانت هجماتهم على الوادى ظاهرة عامة على مدى التاريخ المصرى.

أما عن المجتمع فلابد أن يكون مجتمعًا تعاونيًا، لا يعرف الفردية، وهو ما نلاحظه فى القرية المصرية، حيث يتعاون الجميع فى شق الترع والمصارف، وفى درء أخطار الفيضان، ووصل هذا التعاون إلى حد العمل الطوعى غير المأجور، وإن تحول أحيانًا إلى سخرة، دعاها الفلاح بالعونة.

الحكومة المركزية القوية والمجتمع التعاونى بالذات هما ظاهرتان حاكمتان فى كيان مصر، وهما اللتان أدتا إلى أن عرفت مصر الحضارة والنظام والقانون.

ننتقل الآن إلى الملمح الرابع فى شخصية مصر، هو أنها أو أنها والعراق أصل الحضارة، فهى وإن كانت منفصلة عن غيرها بالموضع، فهى متصلة بغيرها بالموقع، وأتاح لها الموضع كواحة صحراوية حماية لها وحضارتها فى مراحل تاريخها الأولى، ولدى اشتداد عودها لعب الموقع دوره كإقليم عبور أو مرور وجعلها فى قلب الدنيا من ناحية وحميمة الصلة بحضارات أخرى حولها من ناحية أخرى، تأخذ منها وتعطيها.

وقد مرت مصر عبر العصور بمراحل أربع، مرحلة صناعة الحضارة، مرحلة تصدير الحضارة، مرحلة الاكتفاء الذاتى، وأخيرًا مرحلة استيراد الحضارة، لكنها فى هذه المرحلة الأخيرة لم تقف عند حد الاستيراد، إنما قامت على صهر هذه الحضارة الوافدة فى بوتقتها.



الملمح الخامس هو أن قوة مصر السياسية تتناسب تناسبًا عكسيًا مع درجة عزلتها وانغلاقها داخل حدودها، وطرديًا مع مدى انطلاقها خارج حدودها، وحدودها الشرقية على نحو خاص.

ربما كان من الممكن أن تعيش مصر فى عزلة نسبية عن المنطقة حولها، عندما كان الصراع صراعًا بين رمل وطين، لكنها لم يعد فى إمكانها أن تعيش هذه العزلة، عندما صار الصراع صراعًا بين بر وبحر.

والعزلة هنا أو الانطلاق يعنيان بالدرجة الأولى العزلة عن العالم العربى أو الانطلاق فيه.. صحيح أنه تهيأ لمصر عمق استراتيجى ناشئ عن صحراء تحيط بها وبحر وبيئة رى تشكل عائقًا أمام الغزاة، فضلاً عن كونها شبه مغلقة فى قاصية الجنوب بجنادل أسوان، وفى الغرب بهضبة الرويسات، إلا أنها مفتوحة من جهة الشمال الشرقى، وهو ما أدى إلى أن ترتبط مصر فى استراتيجيتها ببلاد الشام، حيث دارت معظم معاركها فيها أو بسببها.

على أنه من الملاحظ أن مصر حين كونت إمبراطورية فى بعض عصورها، كانت هذه الإمبراطورية إمبراطورية دفاعية، وليست إمبراطورية هجومية «فقد أغناها عنها غناها»، وهى بهذه الإمبراطورية كفلت الأمن لنفسها والمنطقة حولها.

يترتب على هذا الملمح ملمح آخر، هو أن مصر هى قلب العالم، فالنيل يفتح لها الطريق إلى قلب أفريقيا، والشام يفتح لها الطريق إلى قلب آسيا، ولديها يلتقى بحران هما أهم بحار العالم القديم، يفضى كل منهما إلى محيط، هما أهم محيطات العالم القديم والعالم الحديث فى آن.. إذن ليس بغريب أن تكون مصر هى عاصمة العالم.



المصريون المحدثون كأسلافهم القدماء عنصر واحد، لم يعرفوا هجرات ذات شأن سوى الهجرة العربية، وهى هجرة أقرباء، يشتركون مع المصريين فى انتمائهم جميعهم إلى عرق واحد.. لذا لم تعرف مصر الحاجز اللونى، ولا التمييز العنصرى



الملمح التالى ملمح اقتصادى، فتاريخيًا كانت مصر أحادية فى اقتصادها، وتتمثل هذه الأحادية فى الزراعة، والزراعة هنا وفى الأساس غذاء وكساء، كفلا لشعبها الأمان فى عصور مضطربة، وفيما عدا ذلك كانت محدودة الموارد فى المعادن وفى المراعى الطبيعية، مما أدى بصناعتها إلى أن تكون حرفة تكميلية، أما التجارة فقد كان دورنا فيها أشبه بدور الوسيط منه بدور التاجر.

هل من الممكن تثوير هذا الواقع؟

يرى حمدان أن التثوير هنا يأتى من الموضع والموقع معًا، فمادامت الزراعة عندنا كثافة قبل أن تكون مساحة، فعلينا بالبديل، وهو التوسع الرأسى أى إثراء التربة، وجعل الطين للزراعة والرمل للعمران. لكن التثوير الحقيقى يأتى من الموقع، فتستطيع مصر أن تصبح «يابان أفريقيا»، عندما تستورد الخامات وتصنعها فى الداخل، وهذا ليس بعيدًا عليها، فقد سبق لها أن أقدمت على ثورة صناعية «محمد على»، لكن الاستعمار لم يلبث أن سرق هذه الثورة.

يأتى بعد ذلك ملمح مهم هو أن لمصر أربعة أبعاد حضارية وسياسية، آسيوى وأفريقى على مستوى القارات ونيلى ومتوسطى على مستوى الأقاليم وتتداخل هذه الأبعاد فيما بينها، كما أن الكل يتداخل مع الإطار العربى الكبير، لكن البعد الآسيوى هو أهم هذه الأبعاد، فالنيل لا يجرى فى منتصف الصحراء، لكنه ينحاز إلى الشرق، والدلتا مفتوحة على سيناء، الأمر الذى يجعل مصر جزءًا من الحلقة السعيدة، وتشمل حواف الجزيرة العربية والعراق والشام، ورغمًا عن كون مصر فى إفريقيا موقعًا، فقد كانت وأبدًا فى آسيا وقعًا، هى فى أفريقيا بالجغرافيا، لكنها فى آسيا بالتاريخ.

الملمح التالى هو التوسط والاعتدال، والمقصود بالتوسط هنا ليس الجمع بين متناقضات على نسق، إنما يعنى أن مصر تكونت تاريخيًا وسطًا فى حدود متجانسة، فهى طبيعيًا تكاد تتوسط كتلة اليابس القديم وكتلة المعمور، وهى متوسطة الحجم بالمقياس العالمى مساحةً وسكانًا وثروة، الغطاء الزراعى يجمع بين المعتدلات والموسميات، تكاد لا تعرف غير فصلين اثنين فى العام، وهى بشريًا جمعت تركيبًا من عدة بيئات، وتجاورت لديها حضارة الشرق وحضارة الغرب، وتمازجت داخلها الصفات الجنسية للأجناس الثلاثة الرئيسية فى العالم القديم بكل نسب القهوة واللبن، تاريخيًا شهدت عصر الإمبراطورية، كما شهدت عصر الاستعمار، غيرها شهد أحدهما فقط.. أخيرًا هى دولة نامية وليست دولة متخلفة.. هذا كله أدى إلى أن تتوازن فى شخصيتها، ولا يتطوح اتجاهها نحو عنصرية أو طائفية، لا ترفض الجديد، إنما تأخذ منه ما يناسبها، أى أن لديها ملكة الحد الأوسط والوسط الذهبى.

الملمح العاشر هو تعاقب الاستمرارية والانقطاع فى تاريخ مصر وشخصيتها، الاستمرارية موجودة وبالدرجة الأولى فى الخصائص المادية لحضارتها المرتبطة بالنيل، والانقطاع موجود وبالدرجة الأولى فى الخصائص اللامادية لتلك الحضارة، وثمة مراحل حضارية أربع مرت بها مصر، هى وبالترتيب اكتشاف الزراعة وبدء الحضارة، الإسلام والتعريب، تحول طريق التجارة إلى الرأس، الحضارة الغربية الحديثة، على أن الانتقال بين مرحلة ومرحلة أخرى جرى بطريق التطور، وأعان عليه ترامى «الوراء التاريخى» مما جعل هذه التطورات غير متعارضة.

المرحلة الأولى لا يقاس عليها لأنها بداية، أما تحول



جمال حمدان

طريق التجارة، فهو أقلها تأثيرًا، على أن التعريب والإسلام كانا أهم هذه التطورات وأخطرها، ويبدو أثرهما بوضوح في الجوانب اللامادية، وهما اللذان جعلا مصر جزءًا من العالم العربي وأحد أقاليمه السياسية.

ظلت الحال كذلك حتى بداية دخول الحضارة الغربية الحديثة، وهي أول حضارة عالمية في التاريخ، وقد ترتب على دخولها انقطاع في الجوانب المادية، لكن الجوانب اللامادية ظلت كما هي من ثقافة تتمثل في العربية والعروبة والتراث العربي، فضلاً عن الدين والعقيدة.

تتصل هذه الملامح أو أنها تؤدي بالضرورة إلى ملمح مهم وأخير في شخصية مصر هو العروبة، ويختصها المؤلف بالباب الحادي عشر والأخير من رائعته، وكان في تقديره أن يضم ثلاثة فصول في هذه الطبعة الأخيرة، لكن الظروف العامة المصاحبة لصدورها، وهي ظروف محزنة، خلاصتها ما جرى من انقلاب في توجهات مصر العربية، حالت بين المؤلف وبين أن ينجز ما تطلع إليه، فاكتفى بإعادة نشر ما كتبه في عام ١٩٦٧، وأضاف إليه في عام ١٩٧٠.

يقرر الكاتب أن مصر جزء من منطقة عربية واحدة، أحدث بها الجفاف ابتعادات جزئية، لا تمنع من أن تكون البلاد العربية جميعها بيئة متوسطية، وأن تصبح مصر والعراق والمغرب «نظائر جغرافية»، كما أن الوحدة السياسية لا تأتي بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية، وهي متوافرة عند العرب.

دينيًا وتاريخيًا العرب أولاد العراق (إبراهيم) ومصر (هاجر)، ثم هناك التأثيرات السامية في اللغة المصرية القديمة، وهناك أيضًا الهجرة العربية التي جعلت العرب هم الأب الاجتماعي لمصر في الدرجة الأولى والأب البيولوجي في الدرجة الثانية.

إن أعظم أمجاد مصر تحققت في إطار العروبة.. معارك صلاح الدين وقطز وبيبرس أعظم من معارك تحتمس ورمسيس، والتوسع الفرعوني في مساحته، لم يصل إلى توسع القرن التاسع عشر.

وإذا كانت مصر عربية، فهي زعيمة العرب، أهلّها لذلك ضخامة حجمها وتجانسها، واستيعابها لعينات من كل قطر عربي، سبقها إلى الحضارة الحديثة، موقعها بين آسيا العربية وأفريقيا العربية، لا حدود لها مع غير العرب، تصديها للصليبيين والمغول.. ثم إسرائيل.

مصر بين العرب أولوية بين أكفاء.. العرب بغير مصر هملت بغير الأمير.



ننتقل الآن إلى قضية القضايا.. قلنا إن الحكومة القوية المركزية والمجتمع التعاوني بالذات هما الظاهرتان الحتميتان في كيان مصر، وهما اللتان أدتا إلى أن عرفت مصر الحضارة والنظام والقانون.

إذا كان الأمر كذلك، وإنه لكذلك فمن أين أتى الطغيان؟

يذهب حمدان إلى أن الطغيان في مصر حادث بالتاريخ، وليس أصيلاً بالجغرافيا، ويستعين في هذا بنظرية نمط الإنتاج الشرقي أو الآسيوي.

يفصل حمدان ذلك فيقول.. إنه سادت مصر في البداية مرحلة من المشاعية البدائية، حيث الملكية على المشاع والإنتاج بدائي، لا يترك فائضًا، ولم يكن ثم تمايز طبقي، بل إن رئيس الجماعة كان يختار لسنه أو حكمته، ووظيفته حماية الجماعة من أعدائها، لكنه مع الزراعة والاستقرار، أضيفت إلى هذا الرئيس مهام أخرى: هي إزالة المستنقعات واستصلاح الأراضي وإقامة قرى وحمايتها من الفيضان، وضبط المياه وتوزيعها، وبدأ تمايز طبقي، تحول معه الرئيس إلى حاكم بالمعنى الدقيق، وبعدما تحقق له من انتصارات على جماعة معادية، صار يؤله محليًا، ثم اندمجت الكيانات الصغيرة في كيانات كبيرة، عبر مرحلة تاريخية طويلة، إلى أن ظهرت أول دولة في العالم.

كان قيام الدولة يعني أن نمط الإنتاج الآسيوي قد اكتملت أركانه، فقد قامت سلطة مركزية قوية، أفادت بظروف البيئة الفيضية في أن تدعم نفوذها وتبرر وجودها، فصارت تشرف على ضبط المياه وتوزيعها على الفلاحين، عبر جهاز ضخم من الموظفين، وصارت تلك الأرض كلها ملكية عامة كحق رقبة، وتوزعها على الفلاحين وكبار الموظفين كحق انتفاع، وكان على الفلاحين وحدهم أن يعملوا مقابل ما يكفي أودهم، ويعود فائض العمل إلى الحاكم.

هذا النظام وإن وضع أساسه في حقبة سحيقة، إلا أنه صاحب تاريخ مصر حتى القرن التاسع عشر، وبطبيعة الحال فقد خضع لبعض التعديلات في بعض العصور، فاقترب في أحيان من النظام العبودي، واقترب في أحيان أخرى من النظام الإقطاعي.

يصل نمط الإنتاج الآسيوي إلى مداه في عصر محمد علي، فهو بنظام الري الدائم الذي أقامه على السخرة صار المالك الوحيد للأرض، أي أنه ألغى الإقطاع بصورته القائمة، ثم فرض الاحتكار على الإنتاج، وبذا أقام نظام رأسمالية الدولة الاحتكارية. لكن هذا النمط وفي العصر ذاته بدأ انحساره، فمع استصلاح الأراضي البور بدأ الإقطاع الحديث، وبدأت تظهر معه بالتدريج ملكية فردية، تقلصت بالتدريج كذلك لصالح الإقطاع، بحيث صار لدينا عشية يوليو ما عرف بطبقة النصف في المائة التي كانت تستحوذ على نصف الدخل القومي.

هذا النمط الآسيوي للإنتاج كان الأب الشرعي لنمط آخر من الاستبداد أو الطغيان الشرقي الذي كانت مصر صورته المثلى، وزاد منه أن الفلاح المصري لم يكن يجد منه فكاكًا، حيث لا يعطيه المعمور الضيق فرصة لأن يبتعد كثيرًا عن يدي الحاكم، كما كان من شأن السكنى بالقرى أنه يلغي الفردية، ويفرض تنميطًا جمعيًا، تخفت معه روح المبادرة التي تعين على المقاومة، ثم إن أحادية الاقتصاد المصري حدّت كثيرًا من وجود طبقة من التجار والحرفيين، كان من شأنها أن تحدث قدرًا من الحراك الاجتماعي، من شأنه أن يكسر طوق هذه الحلقة الرهيبة.

على أن أكبر مضاعف لهذا الطغيان هو الاستعمار الأجنبي، ابتداءً بالبطالمة وانتهاءً بالإنجليز، وكان الطغيان الأجنبي يتخذ من الطغيان المحلي عميلاً له وأداة.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن.. أين شعب مصر من هذا الطغيان.



ينوه حمدان إلى نقطتين مهمتين، أولاهما أن المصري عادةً ما كان يقف سلبيًا إزاء هذا الطغيان، فينصرف عن حياته الحاضرة (الدنيا) إلى حياة أخرى (الدين) أو حياة جديدة (الإنجاب)، وفي أحيان يلجأ إلى النكتة السياسية أو السخرية، وفي أحيان يلجأ إلى خلاصه الفردي.

بيد أنه وللإنصاف كان يقوم بهبات أو انتفاضات، يرغم الحاكم خلالها على تقديم تنازلات، ربما كانت مهمة.. في إحداها نجح في عزل حاكم (خورشيد) وتولية حاكم آخر (محمد علي) وفي أخرى (١٩٧٧) نجح في وقف قرارات جائرة أصدرتها حكومته. وأحيانًا تتحول الهبة أو الانتفاضة إلى ثورة عارمة، شهد تاريخنا القديم واحدة منها، هي ثورة إيبوير في عهد الأسرة الخامسة، وفي تاريخنا الحديث ثورتان، كادت إحداهما تصل إلى إعلان الجمهورية (عرابي) والأخرى حققت بعض أهدافها (١٩١٩). وفي منتصف القرن كانت هناك إرهاصة بثورة شعبية أكبر من سابقاتها، سلم الجميع بحتميتها «لولا أن سبق يوليو فقطع عليها الطريق»، وإن كان يوليو بذاته ثورة «هي آخر الثورات تاريخًا، وأولها نجاحًا على نحو أو آخر».

النقطة الأخرى المهمة هي أن ظاهرة الطغيان لم تكن قصرًا على مصر وحدها، إنما هي شملت العالم كله، وعليه يقرر حمدان أن الطغيان في مصر كان روح العصر، ولم يكن روح المكان، وإذا كان قد طال في مصر، فالسبب هو طول تاريخها من ناحية، وما جرى من استعمار أجنبي من ناحية أخرى، أي أنه ليس حتمًا جغرافيًا.

على أن نمط الإنتاج الآسيوي، وإن انتهى زمانه، فإن ما صاحبه من طغيان لم ينته زمانه. وقد خلف هذا الطغيان رواسب في شخصية المصريين (لا شخصية مصر) وشوائب، ليس أولها النفاق، وليس آخرها الخنوع، وعلينا أن نعترف بهذه الرواسب والشوائب، ونمضي في التعامل معها وعلاجها، لا أن نطري أنفسنا ولا نسمع إلا ما يرضينا، ولا يعني هذا بالضرورة أن شخصية المصريين منحرفة بطبيعتها، إنما هي محرفة بطبيعة حكمها، وعلى الشعب أن يتحمل مسئوليته في هذا الشأن، فهو الذي يصنع الطاغية، وهو الذي يجني في الوقت نفسه تبعات طغيانه، أي هو الجاني والمجني عليه معًا.

واضح إذن أن المفتاح لحل مشكلات مصر.. كل مشكلات مصر، يكمن في الديمقراطية، ولا شيء غير الديمقراطية.. فالمشكلة عند حمدان «ليست ضبط النيل ولا ضبط الناس، وإنما ضبط الحاكم». ■



وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
مصر للطيران للخطوط الجوية



و لخدمة الجاليات العربية و حركة السياحة



رحلات مباشرة بدون توقف

بين القاهرة و مونتريال

مع مصر للطيران

الثلاثاء و الجمعة

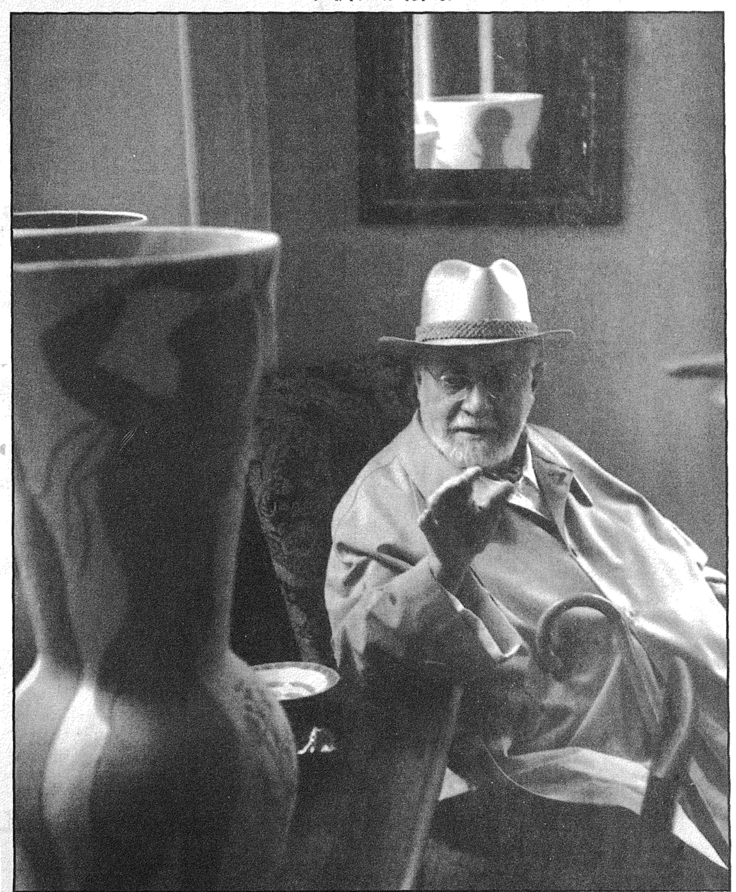
بأحدث طرازات الطائرات

اعتبارا من ١٠ يونية

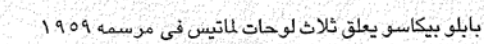
www.egyptair.com.eg

ماتيس وبيكاسو.. الصديقان

هنرى ماتيس يتأمل إناء خزفيا لبيكاسو ١٩٥١



الغريمـــان فى معـــرض واحـــد!



بابلو بيكاسو يعلق ثلاث لوحات لماتيس فى مرسمه ١٩٥٩

ماتيس وبيكاسو

نيويورك من
أحمد مرسى

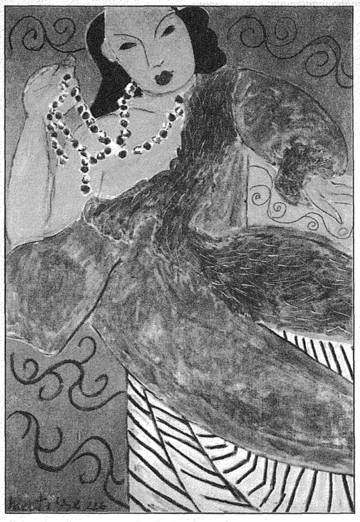
في كتابها «ماتيس وبيكاسو: صداقة في الفن» الصادر عام ١٩٩٠ (دوبلداي)، صوّرت فرانسواز جيلو، التي عاشت في كنف بابلو بيكاسو زهاء ثماني سنوات، وأنجبت منه كلود وبالوما، علاقة الفنانين العملاقين على نحو يوحي إن لم يكن يعكس، تركيبة تجمع بين عنصرين متضاربين: إعجاب أحدهما بعمل الآخر والغيرة منه في نفس الوقت، أو الخوف المتأصل من احتمال تفوق أحدهما على الآخر. ولكن هذه الغيرة المهنية، في ضوء تاريخ تلك الصداقة الحميمة، إن كان في الإمكان وجود مثل هذه الصداقة بين قطبين متنافرين، تُعلن عن نفسها بشكل صريح في حالة بيكاسو بالذات. ويمكن تفسير ذلك، لأسباب مختلفة، في مقدمتها فارق السن، ١٢ سنة، والذي أتاح لماتيس سبقًا في النضج وفي التجديد بالمثل.

ولكن جيلو تحدثت عن علاقة الرجلين خلال السنوات التي عاشتها مع بيكاسو، من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٤ فقط، ولم يكونا بطبيعة الحال يفتقران إلى الإحساس بالأمن، وخاصة بالنسبة لبيكاسو الذي كان عمره آنئذ ٦٥ عامًا عندما تعرّف على جيلو، وكان في أوج شهرته كأعظم فنان غربي عرفه العالم، بينما كان ماتيس يناهز ٧٧ عامًا، وقد تحول بدوره إلى أيقونة في باريس، التي كانت لاتزال حتى ذلك الوقت منارة الفن الحديث العالمية.

ولذلك، لا أحسب أن الغيرة في هذه السن، وأقصد الغيرة المهنية، حتى لو كانت لها جذورها القديمة، على الأقل في بدايات تجربة بيكاسو في باريس، يمكن أن تكون نفس الغيرة التي توغر صدر فنان شاب يتوسم في نفسه القدرة، أو حتى الرغبة، في شق طريق غير مسبوق للتعبير عن العالم، بأشيائه وإنسانه، من منظور جديد، في مواجهة فنان آخر يرى أنه قد وضع قدميه بالفعل على طريقه غير المطروق.



تحكي فرانسواز جيلو، بدون خوض في التفاصيل، أن معرفتها بأعمال ماتيس والإعجاب بها بدأت في سن مبكرة. وكما تعرفت على بيكاسو بمحض الصدفة التي



ماتيس - آسيا ١٩٤٦ زيت على قماش ١١٦× ٨١سم

جمعت بينها مع بعض الصديقات وبيكاسو مع رفيقته في ذلك الوقت، دورا مارا، في كافيه دي فلور، حيث طلب إلى صديقة لها، كان على معرفة بها، ألاّ تكون أنانية فتعرّفه على صديقاتها الجميلات. وكانت تلك هي البداية التي أدّت إلى دعوتها لزيارة مرسمه.

وقبل أن تصعد لرؤية الفنان في الطابق الثاني، لفتت نظرها لوحة «طبيعة صامتة» لماتيس معلقة في المرسم وسط أعماله. وقد بلغت بها الشجاعة حد أن تعبر عن إعجابها باللوحة على مسمع من الحواريين الذين كانوا يحيطون بيكاسو. وقد سُرّ بيكاسو لهذه الجسارة، وزاد سروره عندما أضافت بلباقة «لا يملك فنان القدرة على أن يضع مثل هذه التحفة بين أعماله، في وسط مرسمه، إلاّ إذا كان بقامته».

وفيما بعد، في نفس السنة، ١٩٤٥، أثناء مشاهدة معرض عن أهم اتجاهات الفن الحديث بمتحف الفن الحديث، في صحبة بيكاسو، كانت أعمال ماتيس التي شغلت الحائط الرئيسي بإحدى القاعات تضم لوحة «فتاة تقرأ» تحمل تاريخ ١٩٤٤، فيها شبه كبير بفرانسواز جيلو نفسها. وقد أُخذ بيكاسو. وقال ضاحكًا «هل يمكن أن يتمتع صديقي القديم بهذه الرؤية القوية التي تمكنه من رسم وجه لا وجود له إلا في أحلامي حتى الآن؟ إنه يملك بالفعل الإجابة بينما لا أزال أتامل فيما يمكن عمله بملامحك».

وقد أسعفها ذكاؤها في هذه المرة أيضًا فقالت إن محفوراته الشهيرة، المتوالية المؤلفة من ١٠٣ لوحات حفر التي نشرها فولارد في الثلاثينيات، بها فتيات رسمها من الخيال تحمل هواجس بها. وقد أنتج هذه اللوحات ليس في وقت لم يكن قد قابلها بيكاسو فيه، ولكنها كانت لاتزال طفلة. وأضافت «نحن نعرف أيضًا أن الطبيعة تتبع الفن وليس العكس». ولم يستطع بيكاسو إلاّ أن يبتسم قائلاً: «يا لك من دبلوماسية بارعة».

ثم بدآ يناقشان لوحة ماتيس «طبيعة صامتة» مع نبات الماجنوليا، وكان رأى بيكاسو أنها مغرقة في الزخرفية. فضلاً عن أن التكوين المفتوح، مع نصف المرجل خارج الصورة، بينما تكاد الأشياء يلمس أحدها الآخر، وليست معزولة أو متداخلة بوضوح، كل هذه الأشياء بدت بغيضة لأستاذ التكعيبية.

وقد لاحظ بيكاسو استغراقها في عمل ماتيس، فعلق أثناء خروجهما من المتحف «إذن أنت تعتقدين أن ترتيب الأشياء هذا بدون علاقة سببية عمل ناجح؟ إن ماتيس ساحر، واستخدامه للون خارق للطبيعة. وهذا يجعلني أشعر بالجوع فجأة. فلنذهب إلى مارتان، بميدان آلما، لنشرب بعض الشاي مع بقسماط».

وفي الجنوب، حيث كانا يقضيان نصف وقتهما سنويًا. كان بيكاسو عندما لا يكون راضيًا عن اللوحة التي يعمل بها، من بين عدة أعمال في طور العمل، يبحث عن كبش فداء ليصب عليه جام غضبه. فيبدأ بالأهداف السهلة، السائق السكير، أو ابنه الأكبر بول الكسول، ثم يتحول غضبه إلى أهداف حساسة، طفلهما كلود الذي يتهمه بأنه مدلل ويتلف لعبه، وفي نهاية المطاف يتحول للهجوم على فرانسواز نفسها وهنري ماتيس في آن واحد!

فهو يلومها لأنها تنظر إلى ماتيس نظرتها إلى قديس لا يقع في الخطأ، وأنها تقضي وقتها في حرق البخور تحت قدميه. «دعيني أقل لك أنه ليس مثار إعجاب إلى هذا الحد».

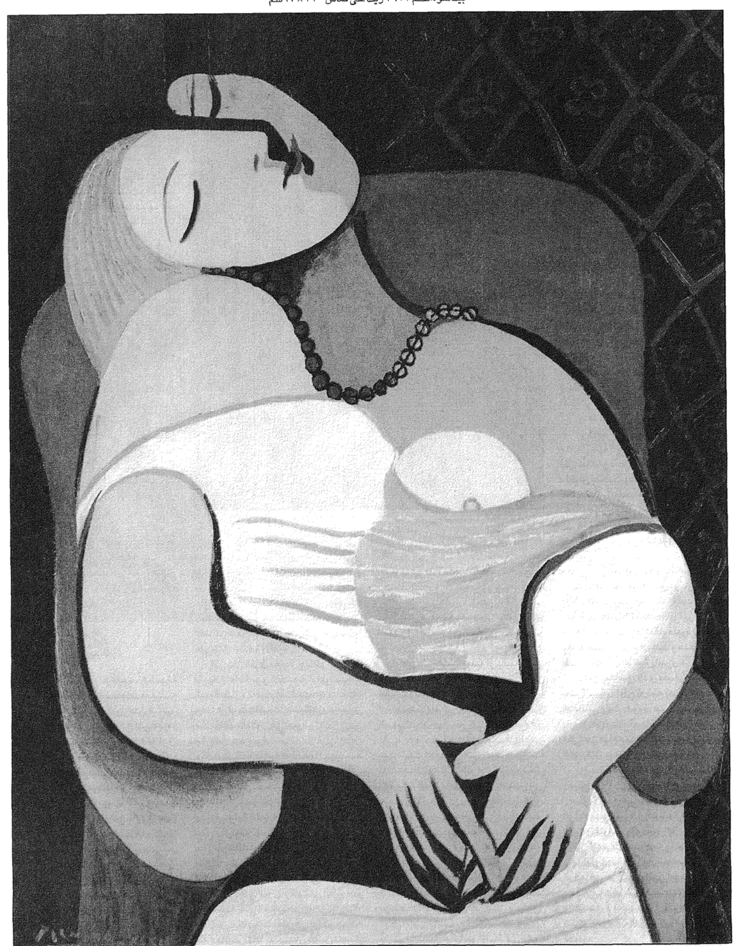
«سوف نرى ما سيحدث في المستقبل، لكن لنتفق على أنني لست الوحيدة التي تحرق البخور تحت قدميه».

ويرد بيكاسو: «إذن تتذاكين، دعيني أقل لك شيئًا أو شيئين عن المقاعد ذات المسندين.

لقد أفحمتك بذلك! أعتقد أنك رأيتها أيتها الراديكالية، لم تسمعي ببيان ماتيس الذي يبدو لي برجوازيًا. فقد كتب أنه يحلم بفن توازن وتطهر وسكينة.. فن يمكن أن يكون لكل الذين يؤدون عملاً ذهنيًا، سواء كان رجل أعمال

matisse-Picasso exhibition
معرض ماتيس - بيكاسو
New York : museum of Modern art, Feb 13 - may 19, 2003

بيكاسو - الحلم ١٩٣٢ زيت على قماش ١٢٠×٩٧سم



أو كاتبًا، بمثابة تأثير مهدئ، شيء مثل مقعد ذى مسندين جيد يمكن أن يرتاح فيه المرء من الإرهاق الجسدى». وخلص بيكاسو إلى استنتاج أن ماتيس يرمى إلى إرضاء المشاهد. ومن ثم، فإن عمله يدخل فى خانة الفن الزخرفى.. إلخ.

ولكن هذا التحامل، أو إن شئت الغيرة غير العقلانية، من ثم غير المفهومة، لم تقتصر على ماتيس كفنان، ولكنها فى بعض الحالات، كانت تتخذ شكلاً صبيانيًا لا يمكن توقعه من رجل يخطو نحو السبعين. وعلى سبيل المثال، غضب بيكاسو مرة وهو يتفقد البريد عندما اكتشف رسالة موجهة إلى فرانسواز بخط ماتيس الذى لا تخطئه العين.. لم يحاول بيكاسو أن يخفى غيرته - العمياء - عندما تبين أن ماتيس يهنئ فرانسواز بعيد قديسة تحمل اسمها جريًا على تقليد فرنسى. وتساءل: ولماذا لم يرسل تهنئة باسمى؟

ويبدو أن ماتيس لم تغب عنه هذه الحقيقة. ففى إحدى زيارات بيكاسو وفرانسواز لماتيس فى أواخر حياته، كان الفنان منهمكًا وهو راقد فى فراشه بقص أفرخ الورق الملون مخلقًا أشكالاً تجريدية ليبنى بها لوحاته. وإذا به يفاجئ فرانسواز ببورتريه تجريدى أثار إعجابها وغمرها بالسعادة. ولكن ماتيس تدارك الأمر قبل وقوع الطامة فأنجز فى الحال بورتريهًا لبيكاسو هو الآخر!

وبطبيعة الحال، اقتصرت شهادة فرانسواز جيلو على صداقة الفنانين الخاصة على سنوات حياتها مع بيكاسو من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٤، فماذا عن السنوات السابقة التى تعود إلى ١٩٠٦؟



تحكى فيرناند أوليفييه، عشيقة بيكاسو الأخرى فى سنوات حياته الحاسمة فى العقد الأول من القرن العشرين أنه تعرّف فى ١٩٠٦ على هنرى ماتيس فى بيت أسرة جيرترود ستاين، الشاعرة الطليعية ومقتنية بعض أهم الأعمال الفنية لفنانى مدرسة باريس البارزين الرواد، هى وشقيقها ليوستاين. وتقول أوليفييه فى يومياتها التى صدرت باسم «عشق بيكاسو» فى ٢٠٠١، بعد وفاتها، أن الجميع كانوا يتوقعون من ماتيس وبيكاسو أكثر من أى من معاصريهما، وكانا صديقين حقيقيين، برغم أنهما كانا يختلفان اختلافًا كبيرًا فى وجهة نظرهما: «يفصلهما بون شاسع، كما كان ماتيس يقول عندما يتحدث عن كليهما وقد فقد ماتيس رباطة جأشه المعتادة عندما ظهرت أول الأعمال التكعيبية،



بيكاسو - بورتريه جرترود ستاين ١٩٠٥ زيت على قماش ١٠٠ × ٨١ سم

واستشاط غضبًا. وتحدث عن تدمير بيكاسو وجعله يتوسل للرحمة، برغم أنه عندما كان تطور بيكاسو الجديد يكتسب القبول، كان على استعداد لكى يدعى أن التكعيبية كانت لها علاقة بأفكاره. «إن الفنانين العظام يحتاجون إلى أن يبنوا على عمل أحدهم الآخر».

إذن كان هنرى ماتيس وبابلو بيكاسو، بشهادة عاشقتين لأحدهما، أى شهادة شهود عيان، ناهيك عما تشهد به أعمالهما وهذا هو بيت القصيد، صديقين وغريمين منذ لقائهما الأول فى حوالى ١٩٠٦ فى باريس حتى وفاة ماتيس فى ١٩٥٤. وكانت شخصيتاهما كما تقول فرناند أوليفييه مختلفتين، اختلاف الليل والنهار، إذ كان ماتيس متحفظًا، وحتى مجاملاً، بينما كان بيكاسو مشبوب العاطفة وبوهيميًا بالسليقة. وقد دأب المؤرخون على عقد المقارنة بين عملهما، وتقديم ماتيس كصانع صور متناسقة ملونة تلوينًا باذخًا، وبيكاسو بصفته الرسام الأكثر مفاهيمية، والذى أكد على الفورم أكثر من تأكيده على اللون، وأكد على القلق أكثر من تأكيده على السكينة.

لكن بيكاسو قد أعلن فى أواخر حياته أنه وماتيس كانا ينتهجان نفس المسار طوال الوقت. والحقيقة هى أنهما منذ التقيا انخرطا فى منافسة صريحة، وكان يراقب أحدهما تحركات الآخر بريبة بينما يتنافسان على الشهرة والثروة فى عالم الفن. ولكن برغم معارضاتهما الكثيرة، كانا كما يقول ماتيس «متفقين على نحو غريب».

ولكن على عكس رواية أوليفييه التى كانت تعيش مع بيكاسو، يقول مؤرخ الفن جون جولدينج - فى مقدمة الكتاب القيم الضخم الذى أصدره متحف نيويورك للفن الحديث بالتعاون مع الجراند باليه فى باريس ومتحف تيت الحديث فى لندن بمناسبة المعرض الذى استضافته المتاحف الثلاثة. أن أفراد أسرة ستاين الأمريكية الثلاثة اصطحبوا ماتيس إلى مرسم بيكاسو ليرى بورتريه جيرترود ستاين الذى كان يرسمه. وعلى عكس تأكيد جيرترود، فيما بعد، أن ماتيس حتى ذلك الوقت لم يكن قد عرف بيكاسو، كما كان بيكاسو لم يلتق به من قبل، كان الاثنان على بينة بعمل أحدهما الآخر، وربما حتى كانا قد التقيا. فقد كانت أعمال كليهما يمكن مشاهدتها فى جاليرى بيرث ڤيل وجاليرى ڤولار الأعلى مكانة. ولكن اللقاء الذى لا يُنسى بالنسبة لبيكاسو ارتبط فى ذهنه بزيارته لصالون المستقلين فى عام ١٩٠٦، والذى استمر حتى ٢٠ مارس. فقد مُثّل ماتيس هناك بعمل مفرد «رغد الحياة». وقد أقام جاليرى درويه معرضًا شخصيًا كبيرًا لماتيس فى نفس الوقت. فقد كان فى ذلك الوقت رائد الحركة الحوشية المؤكد والتى مثلت أكثر أعمال التصوير الفرنسى اليافع تقدمًا وجسارة. وقد ظلت هذه اللوحة، يقول جولدينج، تتردد فى خيال بيكاسو طوال حياته.

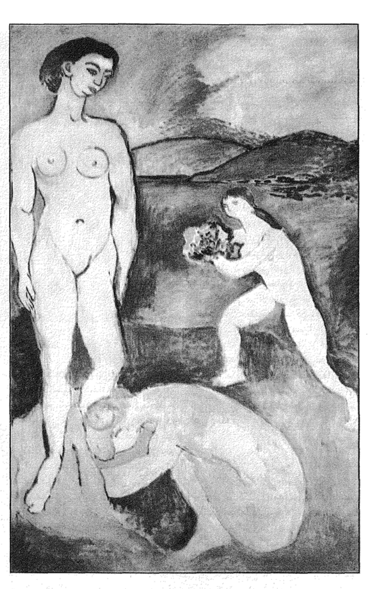
وفى محاولة، ربما غير مقصودة لتفسير ذلك الحوار الفنى بين الاثنين، يقول بيكاسو «لا أحد على الإطلاق تطلع إلى لوحات ماتيس بتمعن أكثر منى، ولا أحد على الإطلاق تطلع إلى لوحاتى بتمعن أكثر منه». ويقدم المعرض المقام حاليًا بمتحف الفن الحديث - موما - ثمرة هذه العلاقة البصرية بين أعمالهما. ولا أشك أن اختيار الأعمال ووضع أحدها فى مقابلة مع الآخر، حسب الترتيب الزمنى لمراحل تطورهما وتفاعل كل منهما بعمل الآخر، إنجاز أكاديمى فى حد ذاته.

وبعد لقائهما الأول بقليل فى ١٩٠٦، تقابلا بالصدفة فى أحد المعارض. وقد تذكر ماتيس أنهما اشتركا فى مناقشة مقبولة، لكن بيكاسو تحدث عن اللقاء بإحباط: ماتيس يتحدث ويتحدث. ولا أستطيع أن أتكلم، لذلك اكتفيت بقول نعم نعم نعم.. لكن ذلك هراء».

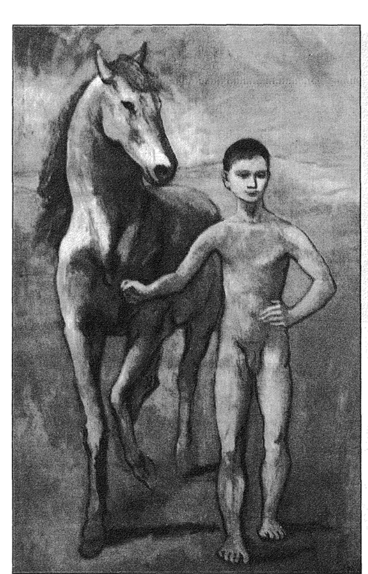
وتشير القصة إلى وضعيهما فى مشهد الفن فى باريس فى ذلك الوقت فقد كان ماتيس ناضجًا، فى أواخر ثلاثينياته ومتزوجًا وله أطفال. وكان يتناقش فى الفن والنظريات بثقة فى النفس، وكان يرتدى دائمًا حلّة ورباط عنق لا تشوبهما شائبة. ومع ذلك، كانت اللوحات التى عرضها فى ١٩٠٥ أعمالاً اعتبرها النقاد مثيرة للصدمة، وقد حققت له ذيوع الصيت وخلعت عليه لقب Fauve، «الوحش البرى».

وكان بيكاسو، الذى يصغره بإثنتى عشرة سنة، يكافح لوضع بصمته. فلم يكن قد مضى وقت طويل على وصوله إلى باريس من وطنه أسبانيا. لكن «الكاريزما» التى كان يتمتع بها جذبت حوله شلة من الأصدقاء، واعترف النقاد بموهبته.

ويبدأ الحوار البصرى بلوحتين: «البذخ» (١٩٠٧) لماتيس، وهى منبثقة عن الأسلوب الحوشى الذى أصبح فى ذلك الوقت سيئ السمعة. فقد تخلى ماتيس عن التظليل المرهف والرصين الذى يلجأ إليه الفنان لإكساب شخوصه وأشيائه بعدًا ثالثًا، أو إحساسًا بالتجسيم، بينما استعاض عن ذلك باللون المفعم بالحياة، وضربات فرشاة نشطة ومعبرة، والصورة تنسيق زخرفى مسطح للشكل ودرجات اللون. لكن الشخوص بلا تعبير.



ماتيس - رغد الحياة ١٩٠٧ زيت على قماش ٢١٠× ١٣٨سم



بيكاسو - صبى يقود حصان ١٩٠٦ زيت على قماش ٢٢٠× ١٣١سم

وفى المقابل لوحة بيكاسو «صبى يقود حصانًا» - ١٩٠٦، وعلى عكس لوحة ماتيس، يعطى الموضوع شعورًا بالشجن بينما يستخدم الفنان لونًا متقشفًا، وضربات فرشاة ناعمة، والأشكال مجسمة ونحتية.

ولكن كلا العملين مختزلان ومبسطان إلى درجة تجعلهما يبدوان منهجيين. إذ كان فنانو «الأفانجارد فى ذلك الوقت يشعرون بدافع للاستغناء عن التفاصيل وعن الاهتمام بصقل العمل النهائى جريًا على تقاليد أكاديميات الفن الفرنسية، وقد فعلا ذلك بتبنى تشكيلة من الأساليب «البدائية»: لقد استكشف ماتيس غرائبية الشرق وعفوية فن الأطفال، بينما انجذب بيكاسو إلى الأساليب الأيبرية العتيقة وسحر النحت القبائلى الأفريقى. ويعتقد جولدينج أن المقارنة بين هذين العملين، تبين أن الألوان غير الطبيعية والشخوص ذات النسب غير المتسقة فى لوحة «البذخ» تشهد بأن ماتيس أكثر راديكالية فى النهج. وأستطيع أن أضيف ملاحظة - نقلاً عن دراسة كتبتها فى السبعينيات عن لوحة «فتيات أفينيون» - أن ماتيس هو الذى اكتشف فى محل الأب سوفاج الكائن فى شارع «دو رين» تمثالاً من ساحل العاج، وقد أطلع صديقه عليه. لكن بيكاسو أكد أكثر من مرة أنه لم يتأثر بالفن الأفريقى قبل ١٩١٠. لذلك يشعر المرء بالبلبلة عندما يلاحظ الجانب الأيمن من «فتيات أفينيون» التى يرى فيها عدد كبير من النقاد إرهاصات التكعيبية، وكذلك جميع الدراسات التى أنجزها الفنان خلال هذه الحقبة، وبصفة خاصة لوحة «الرأس» التى تشبه إلى حد كبير القناع الأفريقى. وكل هذه الأعمال تكشف عن علاقة ما تربطها بقطع النحت التى جلبها المستعمرون من أفريقيا. وقد أكد هذه العلاقة معرض آخر أقامه متحف نيويورك للفن الحديث أيضًا عن بيكاسو / براك واقتصر على نفس الحوار البصرى وتبادل المفردات و«الباليتة» نفسها خلال حقبتيهما التكعيبيتين المتزامنة.

وقد تبادلا المواقع، من حيث التناول الراديكالى، فى عام ١٩٠٧ بإنجاز بيكاسو التاريخى «فتيات أفينيون»، (وقد أطلق أحد أصدقاء بيكاسو هذا الاسم على اللوحة فيما بعد فى إشارة ساخرة إلى ماخور سيئ السمعة فى شارع أفينيو فى برشلونة). وحتى رسم بيكاسو هذه اللوحة «لم يخرج إنتاج الفنان على النظرة المألوفة للفن، ولم يكن يختلف كثيرًا عن إنتاج غيره من فنانى مدرسة باريس. بل إنه برغم نبوغه المبكر، لم يسلم فى بداية حياته من التاثر بفنانى عصره الكبار مثل تولوز لوتريك وفان جوخ وفوييار. كما لم تخرج موضوعات لوحاته عن الموضوعات التقليدية الشائعة بين معاصريه، مثل مشاهد الملاهى الليلية، وسباقات الخيل والمناظر الطبيعية وصور الزهور.

وقد اعتبر المترددون على مرسم الفنان أن شخوص اللوحة - فتيات أفينيون - حادة الأطراف، مكونة من سطوح مجزأة ورؤوس مثل

الأقنعة، فظة بشكل صادم، وغير متماسكة، وحتى تبعث على السخرية.

وكان ماتيس من بين أولئك الذى وجدوا اللوحة مهينة فى وحشيتها، وأعلن أنها عمل زائف. ولكن هل بلغ به الغضب، أو الشعور بالإساءة أمام اللوحة حد التهديد بتدميره؟

وردًا على تبنى بيكاسو الأقنعة والمنحوتات القبائلية، سعى ماتيس إلى الإمعان فى تأكيد انتمائه إلى تقاليد الفن الأوروبى. وتشير أجساد مستحماته فى «مستحمات وسلحفاة» إلى نموذج بدائى مختلف، نموذج رسامى عصر النهضة المبكرين مثل جيوتو.

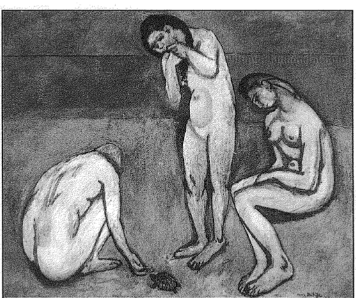
وقد تحدى كلا الفنانين القاعدة، التى سادت لسنوات كثيرة، وهى أن مثل هذه الصور كانت تحتاج إلى قصة أو حكاية، بينما لم تحك أية لوحة من اللوحتين قصة واضحة. فقد غير ماتيس وبيكاسو طبيعة تجربة المشاهد: استعيض عن فعل فك شفرة قصته بفعل النظر والإدراك - حركة العين وهى تتنقل من شكل إلى شكل باحثة عن معنى.

وتنتقل حلبة المنافسة، كما يصورها منظمو المعرض، من المنافسة فى رسم الشخوص إلى ما أطلق عليه «الحوار التكعيبى». وقد اختيرت لوحتان، فيهما من جوانب الاختلاف فى الرؤية والتناول والأسلوب نفسه ما يطغى على أى تشابه يدفع إلى عقد مقارنة.




وقد قسَم معدّو المعرض، وكل منهم خبير فى مجاله، (إليزابيث كولينج، محاضرة فى الفن بجامعة إدنبره، وجون جولدينج، فنان ومؤرخ فن، وآن بالداسارى، أمينة بمتحف بيكاسو بباريس وإيزابيل فونتين، نائبة مدير المتحف الوطنى للفن الحديث بباريس، وجون إدرفيلد الذى عُين أثناء كتابة هذا المقال أمينًا لإدارة الفن الحديث بـ «موما»، خلفًا لكيرك فارنيدو الذى شارك بدوره فى تنظيم المعرض والبروفسور بجامعة برينستون. قسموا تيمة الحوار التكعيبى، على طريقة مباريات الملاكمة، إلى جولتين مرقمتين، وتمثلت الجولة الأولى فى لوحتين، لوحة بيكاسو «امرأة فى رداء أصفر» (١٩٠٧) ولوحة ماتيس «بروتريه مدام ماتيس»َ (١٩١٣).

لا شك أن النقاد الأفانجارد انقلبوا على ماتيس لصالح بيكاسو مع مولد التكعيبية التى يقال أن ماتيس كان أول من وصف لوحاتها بأنها مؤلفة من «مكعبات صغيرة». وقد سيطرت هذه الحركة على



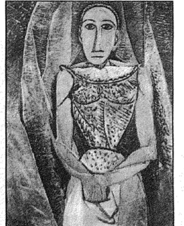
ماتيس - مستحمات وسلحفاة ١٩٠٨ - زيت على قماش ١٧٩× ٢٢٠سم

الحوار بين الفنانين من ١٩٠٩ إلى نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد كان ماتيس يتذوق أعمال بيكاسو فى الحال قبل المرحلة التكعيبية مثل لوحة «امرأة فى رداء أصفر»، إلا أن هذه اللوحة قد بشرت بسطوحها المجزأة وخلفيتها ذات الأشكال المزوية، بالرغم من أن شكل المرأة نفسه يبدو كاملاً، بالأسلوب التكعيبى. ويعتقد منظمو المعرض أن ماتيس قد تعلَم شيئًا من هذه الطريقة، ويظهر ذلك فى «بورتريه مدام ماتيس» حيث بنى صورة زوجته حول خطوط عنيفة مجردة. ومع ذلك، لم يستخدم التهشيرات الوحشية التى انتزعت الإنسانية تقريبًا من المرأة موضوع لوحة بيكاسو. وتبين اللوحتان، إلى جانب ذلك، الاختلاف بين مزاجى الرجلين. فبيكاسو يتبنى فى الغالب العدوان، بينما يقيم ماتيس السكينة. وقد واصل ماتيس الاعتماد على لون واحد: وهى الأخضرات والأزرقات الباردة المنشطة بالتماعات من البرتقالى الساطع. وكلتا اللوحتين تكشف عن اهتمام مشترك: وبالرغم من أنه مستوحى من الشخصين المصورين الحقيقيين، وهو أن الوجهين عوملا كقناعين. فقد شكك كثير من الفنانين فى مطلع القرن العشرين فيما إذا كان تصوير «شخصية» شخص ما من خلال التمثيل الواقعى، أو ما إذا كان التمثيل الواقعى يمكن أن يكون حقيقيًا. ولذلك، استخدم ماتيس وبيكاسو القناع ليمثل

ماتيس - بورتريه مدام ماتيس ١٩١٣ - زيت على قماش ١٤٦× ٩٧سم



بيكاسو - امرأة فى رداء أصفر ١٩٠٧ - زيت على قماش ١٣٠× ٩٧سم



السيكلوجية، والعواطف، والشخصية بطرق جديدة.

ذلك كان تحليل مؤرخى الفن ومسئولى متاحف الموما والتيت وبيكاسو، وهو فى اعتقادى، ومع تقديرى للجهد الأكاديمى الكبير الذى بذلوه فى تجميع لوحات المعرض من بين آلاف الأعمال، والدراسات القيمة التى تضمنها الكتالوج - الكتاب الضخم (٤٠٠ صفحة من القطع الكبير)، لا يملك المرء أمام بعض المقابلات أو المقارنات بين عملين معينين إلا أن يشعر بفرض رؤية أوجه شبه أو آثار تأثر بهذا أو ذاك من الفنانين لا وجود لها وأن اختيار النموذج الذى يراد منه تأكيد وجهة نظر معينة لم يكن موفقًا. وينطبق ذلك، فيما أعتقد على نموذجى الجولة «١» من الحوار التكعيبى، فلوحة بيكاسو «امرأة فى رداء أصفر» تنتمى فى الأسلوب والحقبة الزمنية إلى «فتيات أفينيون»، أما «بروتريه مدام ماتيس» فليس فيه من إرهاصات التكعيبية ما يلفت النظر. وهو إن كان يمكن أن يذكّر بعمل فنان آخر، فهو فى نظرى بول سيزان. أما بالنسبة لاستخدام القناع، فمن المعروف أن ماتيس كان يُعجب بأعمال الحفر اليابانى التقليدى قبل أن يكتشف الفن الزنجى، أو الأفريقى.



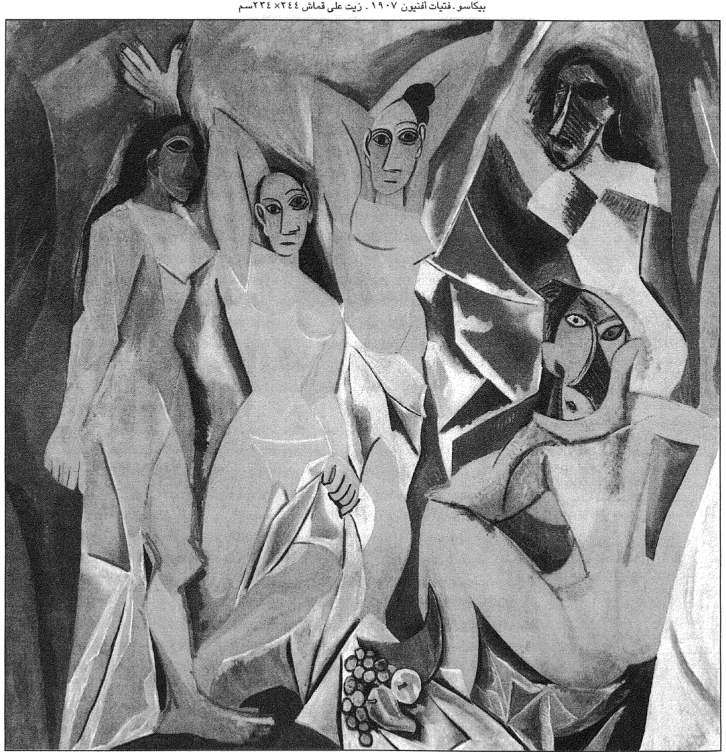
وبرغم انبهارى أمام أعمال العملاقين المنتقاة كعلامات طريق فى مسيرتيهما الحرفية، ولا غرو فى ذلك فهذه الأعمال قبل كل شىء آخر هى بالفعل علامات طريق فى تاريخ الفن الحديث، كنت من وقت إلى آخر أعجز عن الوقوع على شبهة تأثر أو حتى المشاركة فى رؤية أسلوبية بين العملين المتزاوجين.

وقد شعرت حقيقة بالارتياح لأن الناقد المخضرم هيلتون كرامر قد شاركنى فى هذه الملاحظة بالنسبة لأمثلة أخرى. فهو يؤكد حقيقة لا ينكرها ناقد أو أى متابع جاد للفن الحديث، أن المعرض حفل بأروع أعمال ماتيس وبيكاسو و«كان تتويجًا لجميع معارض الفنانين التى شهدناها».

(ولا شك أن كرامر يشير إلى المعرضين الاسترجاعيين أو الشاملين اللذين أقامهما متحف «موما»، بيكاسو فى ١٩٨٠، وماتيس فى ١٩٩٣). «فهو يتناول دراسات «التأثر» الذى يعير نفسه بسهولة لأكثر أشكال الحذلقة فتكًا، ويرفعها إلى مستوى الاستيطيقا المقارنة التى قلما تُحاول فى المعارض واسعة النطاق.

ومن النتائج المباشرة للترتيب أو التجهيز المقارن للمعرض أنه يُلزمنا بأن نرى حتى فى أكثر الأعمال الفذة ألفة -

بيكاسو - فتيات أفنيون ١٩٠٧ - زيت على قماش ٢٤٤× ٢٣٤سم



بورتريه جيرترود ستاين لبيكاسو (١٩٠٥)، على سبيل المثال، ولوحة ماتيس «مشهد نوتردام» (١٩١٤) - أشياء معينة ربما لم نولها اهتمامًا كافيًا فى لقاءات سابقة. أن يرى المرء بيكاسو من خلال عينى ماتيس، وماتيس من خلال عينى بيكاسو يمكن أن تكون تجربة مسكرة تمامًا، وهى متوفرة فى هذا المعرض فى كل منعطف».

وبعد هذا التقييم المستحق يتساءل كرامر.. «هل بعض النماذج المتزاوجة لماتيس وبيكاسو مُقحمة بعض الشىء، ربما؟ حسنًا، نعم. فى معظم الأحيان، لا تكاد تهم المقارنات الفاشلة، لكنها تهم فى أحيان أخرى. فاللوحة الأكثر ملاءمة من أعمال ماتيس التى تُعلق جنبًا إلى جنب «فتيات أفينيون» بيكاسو، كانت هى «رغد العيش» (١٩٠٥)، الموجودة فى مجموعة مؤسسة بارنيس، ولكن، للأسف لا تعيرُ المؤسسة مقتنياتها. والعمل الذى اختير لذلك الموضع، «مستحمات مع سلحفاة» (١٩٠٨)، عمل رائع، لكنه لا يقول لنا أى شىء عن صدمة بيكاسو أمام «رغد العيش» - تلك الصدمة التى حفزت إبداع «فتيات أفينيون».

«ولابد من القول أيضًا أن الحائط النهائى فى المعرض يختتم ماتيس / بيكاسو بمذكرة

متجهمة. فلوحة بيكاسو «الظل» (١٩٥٣) هي من أضعف أعمال الفنان. ولوحة ماتيس «عازف الكمان أمام النافذة» (١٩١٨) ليست هي الأخرى عملاً فذًا، برغم أنها أفضل بكثير من لوحة بيكاسو. والشيء المشترك الوحيد فيهما هو الشعور بالكآبة الذي يثيرانه - وهذه طريقة غريبة لإنهاء مثل هذا المعرض المبتهج بالنصر».

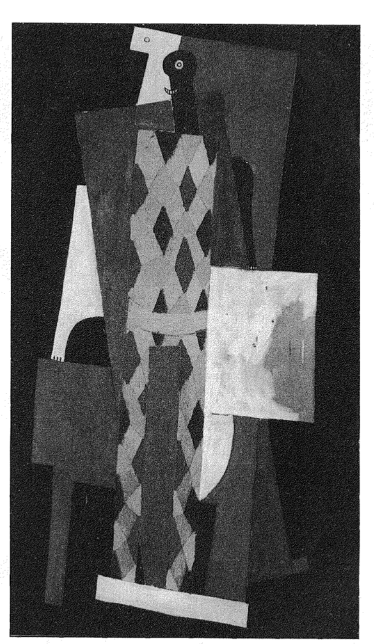
ولابد من التنويه بفضل ماتيس وبيكاسو نفسيهما في لفت الانتباه إلى تأثر أحدهما بعمل الآخر. وإن كان مثل هذا الرأى يمكن ألا يكون موضوعيًا في بعض الأحيان، برغم أن ماتيس بالذات كان يتمتع بحاسة نقدية مرهفة، وقد ارتقت بعض ملاحظاته عن تجربته الخاصة مع الفن إلى مستوى التنظير.

يقول جاك فلام، مؤرخ ماتيس المتخصص، أنه عندما بدأ العمل في كتابه عن كتابات وأقوال ماتيس في الفن في الستينيات، كان معظم الفنانين والنقاد في أمريكا يعتبرونه فنانًا جذابًا ولكنه بالأحرى سطحي. وكان الإحساس العام أنه ليس لديه شيء يذكر ليقوله عن الفن لا للفنانين أو الأكاديميين. وكان لا يبدو أن لديه برنامجًا نظريًا أو سياسيًا معينًا، أو تكنيكًا محددًا ليدعو له - لا هدف شخصيًا له.

ولكن عندما نُشر الكتاب، أسعده أن يسمع من كثير من الفنانين إلى أى مدى كانت كتابات ماتيس تعني لهم. كما أفادت كتابات ماتيس الدارسين والدراسات الأكاديمية عن ماتيس بصفة عامة.

لذلك، عندما يعلق ماتيس على عمل لبيكاسو يمكن أن تكون له علاقة بلوحة معينة من أعماله، ينبغي على الأقل أن يؤخذ هذا التعليق مأخذ الجد.





بيكاسو - المهرج ١٩١٥ - زيت على قماش ١٨٣ × ١٠٥ سم

وفي خريف ١٩١٥، زار ماتيس جاليرى ليون روزنبرج وشاهد لوحة «المهرج» لبيكاسو. وكتب روزنبرج لبيكاسو يقول «بعد أن شاهد لوحتك مرة بعد الأخرى، اعترف بأمانة أنها تتفوق على أى شيء فعلته». ثم أضاف «إنه يعرب عن شعور بأن لوحته «السمكة الذهبية» قد قادتك إلى «المهرج».

ويؤكد كتالوج المعرض أن «السمكة الذهبية والباليتات» (١٩١٤) قد أثرت على «المهرج» ولكن ليس قبل أن تتأثر هي نفسها ببيكاسو. فقد بدأ بيكاسو في ١٩١٢ في استعمال الكولاج، مضيفًا مزقًا من قصاصات الصحف المسطحة، والأوراق الملونة ومواد أخرى إلى تكويناته التكعيبية. وفي السنة التالية بدأ برسم لوحات تكعيبية ملونة تشبه عناصر من الكولاج. وقد كان ماتيس دائمًا ملونًا وصانع أشكال محددة، وأخيرًا رأى في هذه الكولاجات واللوحات التكعيبية أسلوبًا يمكن أن يرتبط به - وحتى محاولة ليتجاوزه.

وتتوالى بعد ذلك المزاوجات أو الثنائيات التي اختيرت بعناية لتشهد بصحة مفهوم، أو إن شئت رسالة المعرض، وهي أن الفنانين العملاقين قد أثر أحدهما في الآخر، أو تأثر أحدهما بالآخر. وقد استمرت عملية الأخذ والعطاء هذى حتى وفاة ماتيس في ١٩٥٤. ولكن بيكاسو، فيما يبدو، آثر عن طيب خاطر أن يكون هذا الحوار الخلاق موصولاً حتى بعد غياب «غريمه» إن صح هذا التشبيه، وصديق العمر.

ولكن تحديد هذا التأثر، كما يلاحظ الناقد مايكل كيملمان، بين عبقريتين تبادلا الإعجاب مثل ماتيس وبيكاسو، وأعلنا افتتانهما وتنافسهما أحدهما مع الآخر، خادع بشكل خطير. فهو أحيانًا محصلة العقل الباطن لأكثر من قوة متشابكة. فآنجر، وسيزان، وبراك هم مثل أفيال عابرة في هذه الغرف، ظاهرون بواسطة غياب الاعتراف، فيما عدا عندما يعترف بيكاسو بطرف ثالث بشكل صريح، في أعمال مثل «جزائريات، نقلاً عن ديلاكروا»، وهي تحية للغائب ماتيس عن طريق سلف يجله كلاهما.

وقد أعلن بيكاسو مقولته الذائعة «لقد ورّثني ماتيس جواريه». ثم أعاد بيكاسو هذه الجوارى إلى مصدرها الأصلي؛ ديلاكروا.

ومع أن المرء يسلم بسخف المفاضلة بين عبقريتين مختلفتين لا في الأسلوب فقط، بل وفي رؤية الأشياء وأسلوب الحياة والتعامل مع العالم الخارجي، إلا أن فكرة المعرض نفسها التي اختيرت المعروضات لتعزيزها، وبالأحرى والتي فرضت على أصحابها اختيار أعمال بنفسها على أساس معيار واحد، وهو خدمة نفس الفكرة بغض النظر عن القيم الاستيطيقية المجردة من أى غرض عملي آخر. فضلاً عن أن نجاح المنظمين، برغم هذا الاعتبار أو أية اعتبارات أخرى، في تنسيق العرض بطريقة توحي، ولو بطريقة غير مباشرة، بالتنافس والأخذ والعطاء معًا، يجد المشاهد نفسه، بدون أن يشعر، يحصي النقاط لكل من الفنانين كأنه يتابع مباراة ملاكمة ليسأل نفسه في النهاية.. من المنتصر؟ وفي الحقيقة، قبل أن أجيب بصوت مرتفع، لأني لم أكن في حاجة إلى عملية حسابية، سألت ابنتي التي كانت ترافقني فأجابت بلا تردد: ماتيس طبعًا.

يقول جاك فلام، مؤلف المجلد الضخم الذي أصدره متحف نيويورك للفن الحديث بمناسبة معرض ماتيس الشامل، في كتاب صدر حديثًا حول فكرة المعرض «بيكاسو / ماتيس».. «يَثْبت في النهاية أن بيكاسو لم يكن إلى حد كبير فنان المستقبل كما كان رجل المستقبل - وكان ماتيس في كثير من الأحوال رجل الماضي لكن فنان المستقبل» فقد كان بيكاسو أول فنان نجم حديث، بينما كان ماتيس في حُلله الرصينة، وهيئة الطبيب، والرجل المتحفظ الذي يحمي حياة حبه المضطربة من الجمهور، كان يبدو من سلالة الأسلاف. بيكاسو البوهيمي المجدد، ماتيس بطربوش الكوت دازور، الذي يرسم الحريم ويقص الورق الملون وهو يرتدى البيجامة، يقول مايكل كيملمان: بدون الانتقاص من بيكاسو على وجه الدقة، إن مفاجأة المعرض هي أنه يجعل فن ماتيس يبدو على الأقل راديكاليًا وملائمًا بنفس درجة بيكاسو. بينما لم يتورع نقاد آخرون عن ترجيح كفة ماتيس. ■

ماتيس. سمكة ذهبية وباليتة رسم ١٩١٤. زيت على قماش ١٤٦×١١٢سم



السبى البابلى.. دراسة تاريخية

من يقرأ خطبة مبعوث الملك الآشورى سنحاريب (٧٠١ق.م) إلى شعب أورشليم المحاصر والتى يدعوهم فيها إلى الاستسلام ويحرضهم ضد حاكمهم ويعرض عليهم المكافأة بدلاً من توقيع العقوبة، لن يجدها تختلف كثيرًا عن الرسائل التى أسقطتها طائرات الغزو الأنجلو أمريكية على مدن العراق، قبل استسلامها، وتحت نيران القصف الجوى العنيف: «حققوا السلام معى، استسلموا لى، وسيأكل كل فرد منكم عنبًا من كرمه وتينًا من بستانه، وسيشرب كل واحد ماءً من بئره»



ليلى إبراهيم أبو المجد

أعاد الاحتلال الأنجلو أمريكي للعراق إلى الأذهان سجل تاريخ الاستعمار والإمبراطوريات في منطقة الشرق الأدنى القديم، وكأنه قد كُتب على الأجيال العربية التى ولدت بعد مرحلة الاستقلال أن تتجرع مرارة الاحتلال عقابًا لها على عدم الاستفادة من دروس التاريخ، فمن لم يقرأ التاريخ كُتب عليه أن يعيده، ومن لم يكن فاعلاً يصبح مفعولاً به. وقد ظلت هذه المنطقة هدفًا استراتيجيًا لكل الإمبراطوريات والدول الاستعمارية التى ظهرت منذ القدم، وسنتناول هنا الإمبراطورية الآشورية والبابلية ثم الفارسية ٥٣٨ق.م، والاستعمار الأنجلو أمريكي (٢٠٠٣م).

وسنحاول فى السطور التالية أن نقارن المخططات الاستعمارية التى تبنتها تلك الإمبراطوريات القديمة[1] والمخطط الأنجلو أمريكي في غزو واحتلال العراق. كما سنقارن بين دور بنى إسرائيل فى مخططات الإمبراطوريات القديمة، ودور اليهود فى المخطط الأنجلو أمريكي. فنظرًا لأهمية موقع أرض كنعان (فلسطين) الاستراتيجي بالنسبة للإمبراطوريات القديمة وللاستعمار الحديث، فهى تشكل مع مصر أوسط نقطة فى العالم. فإذا شبهنا مصر بثمرة فإن فلسطين بمثابة عنق الثمرة، لذلك ما أن تفرض إمبراطورية ما سيطرتها على بلاد فارس والعراق والهلال الخصيب حتى تقوم بتأمين طريق الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط وإلى مصر. ولا تكتفى باحتلال تلك المنطقة، بل تقوم بتهجير سكان فلسطين، وتوطينهم فى مناطق أخرى وجلب سكان آخرين تابعين للإمبراطورية أو المستعمر وتوطينهم فى أرض كنعان، وهو ما يُعرف بخلخلة التركيبة السكانية، وقد تكرر هذا كثيرًا فى التاريخ القديم والحديث على يد الإمبراطورية الآشورية، فالسبى الآشورى على يد «شلما نصر» سنة ٧٢٢ق.م ما هو إلا تهجير لسكان السامرة من بنى إسرائيل فى شمال فلسطين إلى آشور وميديا وشمال سوريا، وتوطين مجموعات سكانية من شمال سوريا وبابل وعيلام مكانهم.



ثم تكرر أيضًا على يد الإمبراطورية البابلية، فالسبى البابلى الذى قام به «نبوخذ نصر» ٥٨٦ق.م هو تهجير لبنى إسرائيل سكان أورشليم وإقليم يهوذا إلى بابل، أما الإمبراطورية الفارسية فقامت بالتهجير العكسى، أى هجَّرت السكان من كافة أنحاء الإمبراطورية (سفر عزرا ١/١) إلى أرض كنعان تحت اسم (العودة من السبى) وذلك من أجل خلخلة التركيبة السكانية التى كانت موجودة والتى قاومت هذا «الغازى المعتدى» الذى وصف نفسه بأنه «عائد» فالإصحاح ٤-٦ من سفر عزرا يعكس الصعوبات الإدارية التى تواجه سياسة إدخال عناصر سكانية جديدة وديانات مركزية فى منطقة ما، حيث يوجد سكان مستقرون ذوو علاقات وسلطات ذاتية منذ أمد بعيد. ويعكس التوتر والصراع رد الفعل البغيض الذى قوبل به هؤلاء «الغازون - العائدون».

وقد كان آخر مخططات التهجير فى منطقة فلسطين هو ما قام به الاستعمار البريطانى أثناء الانتداب وهو يشبه المخطط الفارسى الذى قام به «قورش». فلقد تعاون الاستعمار البريطانى مع الصهيونية عن طريق وعد بلفور (١٩١٧م) وقام بتوطين سكان تابعين للإمبريالية من كافة أنحاء العالم، فى فلسطين تحت اسم «العودة إلى أرض الآباء» وقام هؤلاء «العائدون» بترويع سكان فلسطين الآمنين وإرهابهم وإجبارهم على مغادرة فلسطين.

ومفهوم «العودة» مفهوم أيديولوجى أساسى فى سياسة التهجير وإعادة التوطين منذ عصر الإمبراطوريات القديمة، وهو محاولة إيجاد صلة دينية قديمة تربط هؤلاء المهجَّرين بتلك الأرض الغريبة. وسنناقشه بتفصيل أكثر فى موضع آخر ونبدأ بأول المخططات الاستعمارية وهو:

١- التهجير والتوطين:

تذكر النصوص والآثار أن الخطط الاستعمارية للسيطرة على السكان اعتمدت سياسة التهجير والتوطين وكانت مظهرًا شائعًا فى كل حروب مصر القديمة وبابل والعالم الحثى منذ بدايات الألف الثانية قبل الميلاد، وقد قام بها جيش آشور فى القرن السابع ق.م واعتبرت قاعدة للسياسة الاستعمارية البابلية والفارسية بعد انهيار آشور بوقت طويل. وهناك عدة أسباب جعلت الآشوريين يعمدون إلى هذا التغيير فى البنية السكانية فى الإمبراطورية وهى:

أ- تدمير التركيب الاجتماعى فى المناطق المفتوحة، وخلق كيانات مفككة وتابعة ومخلصة للإمبراطورية الآشورية (وهو ما تنويه أمريكا وبدأت تنفيذه بقوة السلاح لرسم خريطة جديدة للشرق الأوسط عبارة عن كيانات مفككة، متناحرة مخلصة فقط لأمريكا).

ب- استخدم الآشوريون التهجير كعقاب للمواطنين على المقاومة أو الثورة، كما استخدم للقضاء على المنافسين المحتملين أو على إمكانيات المقاومة والعصيان (وهو ما تخطط إسرائيل للقيام به مع الفلسطينيين وسنعرضه لاحقًا).

ج- استخدم الآشوريون التهجير وإعادة التوطين كمكافأة للسكان ضد حكامهم، فالتهجير كما عرضه (سفر الملوك الثانى ١٨/ ٢٨-٣٣) عُرض ليس كعقاب بل كمكافأة على عدم مقاومة السلطة الآشورية. وبالفعل فقد ذهبت بعض النصوص إلى حد وصف الآشوريين بأنهم يتصرفون نيابة عن الشعب، ويرعون مصالحه ويحمونه وينقذونه من طغيان حكامه.

فلم يُوعَد المهجَّرون بالأرض والرخاء عندما يُعيد الآشوريون توطينهم فحسب، بل وُعدوا أيضًا بالدعم ضد السكان المحليين، الذين نظروا إليهم بالطبع على أنهم متطفلون ومغتصبون. (وهذا لا يختلف كثيرًا مع ما فعلته أمريكا مع أكراد العراق عندما سمحت لهم بدخول كركوك، وسمحت لهم بطرد سكانها العرب واحتلال مساكنهم، كمكافأة للأكراد على موقفهم من صدام حسين وتسهيل مهمة أمريكا فى احتلال العراق، ولا يختلف موقف الشعب العراقى من الأكراد ومن شخوص المعارضة العراقية التى تحاول أمريكا فرضها على الشعب العراقى وتوليتها زمام الأمور، لا يختلف كثيرًا عن موقف السكان المحليين فى الإمبراطورية الآشورية).

د- استهدفت سياسة التوطين إيجاد جماعات تعتمد على السلطة الآشورية ضمن الشعوب المحكومة، وبذلك تضمن أن تظل مخلصة لها، لذلك انحصرت فى مجموعة من العسكريين والزعماء السياسيين والنخبة... (وهو ما فعلته أمريكا منذ حرب الخليج الأولى فقد احتضنت المعارضة العراقية وراعت عند اختيارها أن تضم عسكريين وسياسيين (متطلعين إلى الحكم) ونخبة ممن يمكن الاعتماد عليهم فى إدارة البلاد فى عراق ما بعد الحرب).

هـ- كان الهدف من إقامة بعض المستوطنات الجديدة هدفًا استراتيجيًا وشملت عددًا كبيرًا من المستوطنات الحدودية شبه العسكرية (وهو ما خططت

فى استراتيجيات الغزو



لوحة جدارية تصور أحد ملوك إسرائيل وهو يبدى فروض الطاعة للبابليين

أمريكا له بعد حرب الخليج الأولى فى منطقة الحدود الشمالية، فقد سمحت للأكراد بالتجمع فيها وأمدتهم بالسلاح ومنحتهم حكمًا ذاتيًا وفرضت على حكومة صدام حظرًا جويًا على تلك المناطق فجعلتها بمثابة مستوطنة حدودية شبه عسكرية، وحاولت أمريكا تنفيذ نفس المخطط على حدود العراق الجنوبية مع الشيعة، ولكنها فشلت لأسباب ترجع للسكان أنفسهم وهو ما أظهرته حرب الاحتلال الحالية التى تخوضها أمريكا وبريطانيا فقد أظهرت تلك الحرب بسالة وشجاعة أهل الجنوب فى مقاومة القوات الغازية).

و- كانت لسياسات إعادة التوطين أهمية اقتصادية ومدنية بالنسبة للمدن الآشورية، وخاصة توطين الحرفيين والعمال المهرة وعمال السخرة ودورهم فى بناء العاصمة الآشورية الجديدة كما يظهر فى نصوص آشور بانيبال الثانى (٦٦٨ - ٦٢٦ق.م). (وهو لا يختلف كثيرًا عما تقوم به أمريكا بإصرار من تهجير علماء العراق إلى أراضيها تحت حجج ومبررات مختلفة). كما أن تركيز أمريكا على تغيير البنية السكانية فى جنوب العراق وشماله يرجع إلى وجود مناطق إنتاج النفط العراقى، وتوطين سكان موالين للمحتل وللقوات الغازية فى مناطق إنتاج النفط هدف اقتصادى، فالنفط مصدر الطاقة الأول ولا قيام لحضارة ولا لمدنية بدونه، فضلاً عن كونه هدفًا استراتيجيًا كما سبق وذكرنا.

ولم يتوقف هذا المخطط الاستعمارى المتمثل فى تهجير وتوطين السكان عند انهيار الإمبراطورية الآشورية فى الربع الأخير من القرن السابع ق.م، فقد استمر هذا المخطط فى الحملات العسكرية البابلية ثم الفارسية بعد ذلك ولكن لم يصلنا إلا نصوص قليلة عنهما، وتختلف فى خطابها عن النصوص الآشورية، فمعظمها موجه إلى الشعوب المحتلَّة، وكُتبت لهدف صريح هو تشجيع هذه الشعوب على قبول التغير الجذرى الذى أدى إليه تغير الإمبراطورية إلى إدارة بابلية أولاً ثم إلى إدارة فارسية بعد ذلك، لذلك أخذت النصوص البابلية والفارسية المتعلقة بالتهجير سمة دعائية ذات طابع أكثر إقناعًا، واعتمدت على مفهوم «العودة» أو «الإعادة» وهو ينسحب على «إعادة الحكام» أو «إعادة الشعوب» أو «إعادة الآلهة»، فقد وُصف الملك فى كل النصوص البابلية المتعلقة بالتهجير بأنه «معيد» الآلهة والسكان إلى موطنهم كما فى النصب التذكارى الذى يُنسب لـ«نابونيد»، ويعيد سرد قصة بناء نابونيد للمعبد فى حاران، ليعيد بناء ماضى حاران العظيم، فقد سمح نابونيد للآلهة «بالعودة من المنفى».

هذا المفهوم الأيديولوجى استخدمه الفرس بإتقان فسفر «عزرا» الإصحاح الأول، يصور قورش كبان للهيكل وكمعيد لما أخذه الآشوريون. كما استغل الاستعمار البريطانى والصهيونى هذا المفهوم الدينى «العودة إلى أرض الآباء» فى الترويج لمشروعهم الاستعمارى فى فلسطين.

٢- الحملة الدعائية:

اعتمدت الإمبراطوريات القديمة على الحملات الدعائية، ومن يقرأ خطبة مبعوث الملك الآشورى سنحاريب ٧٠١ق.م إلى شعب أورشليم المحاصر والتى يدعوهم فيها إلى الاستسلام ويحرضهم ضد حاكمهم ويعرض عليهم المكافأة بدلاً من توقيع العقوبة، لن يجدها تختلف كثيرًا عن الرسائل التى أسقطتها طائرات الغزو الأنجلو أمريكية على مدن العراق، قبل استسلامها، وتحت نيران القصف الجوى العنيف: «حققوا السلام معى، استسلموا لى، وسيأكل كل فرد منكم عنبًا من كرمه وتينًا من بستانه، وسيشرب كل واحد ماءً من بئره حين آتى وأهجِّركم إلى أرض مثل أرضكم.. وستحيون ولن تموتوا ولا تسمعوا كلام حزقيا (ملك أورشليم) لأنه يغرّكم..» (سفر الملوك الثانى ١٨/ ٣١ - ٣٢).

أما الحملة الدعائية فى الإمبراطورية البابلية والفارسية بعد ذلك فقد تركزت على إيجاد الولاء والتعاون مع الشعوب التى احتلوها، لذلك فقد ظهر ملك بابل - نابونيد - فى دور دينى فهو معيد الآلهة من المنفى، وحامى سكان الإمبراطورية التى كانت آشورية ثم أصبحت الآن بابلية. ويلقى باللوم عن الأفعال البربرية على حلفاء تلك الإمبراطورية السابقة، أما هو وإمبراطوريته فهم الذين أعادوا بناء المدن والمعابد القديمة التى وضعها مردوك - الإله القومى - بين يديه.

وقد أتقن الفرس الدافع الأيديولوجى فى سياسة التهجير وفى حملتهم الدعائية فـ«أسطوانة قورش» وهى نص دعائى تزعم أن الملك البابلى السابق قد دمر وحدة الدين، وبدَّل الآلهة الروحية السماوية الحقيقية فعُبدت نسخ - مجرد تماثيل من الطين - فى كل أرجاء الأرض. لقد استعبد الملك البابلى شعبه، والمدن أصبحت خرائب، وهُجرت الحقول، وغضبت الآلهة لأنها أُبعدت قسرًا من موطنها فى بابل، فتخلت عن المدينة. حتى الصلوات والقرابين كلها خاطئة. لكن «مردوك» كان رحيمًا فدعا قورش لإقامة العدل بين كل الشعوب التى جعل مردوك قورش يأتى بها إلى بابل، وقورش بالطبع، لم يكن بحاجة إلى السلاح فى هذا الغزو، فالنص يذكر أن الشعوب استقبلت حاكمها الجديد قورش بأذرع مفتوحة وبدموع الفرح والأغانى، وبدل القتل والنهب، اجتهد قورش فى «إعادة» الشعوب والآلهة إلى مواطنها، وهذه هى المهمة الأولى للإمبراطورية والتى ركزت النصوص الضوء عليها، فقورش وجيشه فى بابل فى مهمة سلمية!! وكل العالم رحب بتولى قورش السلطة. (هذا النص الدعائى من الممكن أن نستبدل اسم بوش بقورش ولن نجده اختلف كثيرًا عما رددته أبواق الدعاية الأمريكية قبل غزو العراق، فلقد زعم بوش أن مهمة جنوده فى العراق مهمة سلمية هى تخليص هذا الشعب من عبودية صدام، وتحقيق الرفاهية لهذا الشعب، لذلك فقد توقعوا أن يقابلوا بالأحضان والترحيب).

٣- التستر وراء الدين:

لعب الدين دورًا بارزًا فى حضارة الشرق الأدنى القديم، وكان هو العامل المسيطر على كل مظاهر الحياة، وكان خلاصة القيم الإنسانية، لذلك فقد احترم الغزاة القدامى دين الشعوب المحتلة ولم يكن غريبًا أن يقبل الغزاة المنتصرون دين الشعوب المهزومة مع إدخال بعض التعديل، وهى ظاهرة تكررت كثيرًا خلال التاريخ، فقد امتزجت الآلهة البابلية والآشورية، وهاهو مردوك إله البابليين القومى يصبح بعد ذلك إلهًا للفرس ويتصرف قورش بأمره. وليس غريبًا كذلك أن يصرح كل ملك من الملوك أن ما يقوم به من أعمال هو تنفيذ لأوامر الآلهة. فهاهو «حمورابى» الملك البابلى، يبدأ قانونه بمقدمة يمجد فيها المهمة التى ألقتها الآلهة على عاتقه وهى



نشر العدل فى الأرض.. وهاهو «نابونيد» الملك البابلى يصف نفسه بأنه خادم مطيع للإله «سين» وأنه يتصرف بناء على تعليمات مباشرة منه.. فقد هجّر السكان من موطنهم إلى حاران ليقرب موعد عودة الإله سين إلى المدينة ويعيد بناء مجدها القديم. وكما ذكرنا فالإله «مردوك» هو الذى اختار «قورش» وأمره بالزحف على بابل. خلاصة القول أن المستعمر القديم غلّف أهدافه التوسعية بستار الدين وتنفيذ الأوامر الإلهية وهو ما يفعله المستعمر الأنجلو أمريكى، وما عبرت عنه زلة اللسان التى وقع فيها بوش واعتذر عنها، فقد وصف حربه ضد الإرهاب بأنها «حرب صليبية».



التعبير الثانى الذى استخدمه بوش بكثرة، ولم يفطن أحد إلى أنه تعبير دينى صهيونى هو: «محور الشر» فقد وصف العراق وإيران وكوريا الشمالية بأنهم محور الشر أو معسكر الشر، وقد علقت مارجريت تاتشر على هذا التعبير، بأن بوش قد أخطأ بضم كوريا الشمالية إلى «محور الشر»، لكنها أيدته فى وصف العراق وإيران بأنهما «محور الشر». فما المقصود بمحور الشر فى المسيحية الصهيونية؟

«معسكر الشر» أو «محور الشر» تعبير مسيحى صهيونى استمده بوش من التفسير الصهيونى لرؤيا يوحنا اللاهوتى وهو السفر الأخير من الكتاب المقدس، وقد وضعه يوحنا اللاهوتى قرب نهاية القرن الأول الميلادى، ويضم مجموعة من الرؤى بعضها ملغز وغامض، وبتأثير من اليهودية فسره البروتستانت والأدفنتست وشهود يهوه تفسيرًا حرفيًا، بأن تلك الرؤى تشير إلى قدوم السيد المسيح فى نهاية الزمان مرة أخرى ليحكم على الأرض، فتكون الأرض بمثابة جنة ويكون مركزها القدس، ويجلس على عرش مملكة داود، ويحكم لمدة ألف عام وهو ما يُعرف بـ«المُلك الألفى» إلى أن تكون هناك دينونة أخرى(٢). والفكرة منشأها سياسى وليس لاهوتيًا، وقد ظهرت فى الأدبيات اليهودية فى القرن الثانى ق.م لعلاج حالة اليأس والاكتئاب التى انتابت اليهود تحت الحكم الرومانى وفى ظل ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية بالغة السوء والتردى فجاءت «الرؤى» فى الأدبيات اليهودية تمثل الأمل والعلاج لهذا اليأس.

ووفق التفسير الصهيونى لرؤى يوحنا أن نزول السيد المسيح سوف تسبقه معركة حاسمة «قتال يوم الرب» ١٦/١٤، وستدور تلك المعركة فى جبل مجدو ١٦/١٦ (هرمجدون بالعبرية) فى شمال فلسطين، وهذه المعركة الحاسمة هى التى ستأتى بالخلاص، وستكون بين معسكر الخير ومعسكر الشر أو أبناء النور والظلام.

والاعتقاد بحتمية الحرب بين الخير والشر أو النور والظلام لكى يأتى الخلاص أخذها اليهود عن الزرادشتية(٣) فهى تقول: إن وجود العالم سببه امتزاج «النور» و«الظلام» أو «الخير» و«الشر» فلولا امتزاجهما لما كان وجود العالم، وهما أى الخير والشر، أو النور والظلام يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب «النور» «الظلام» و«الخير» «الشر» وهذا هو «سبب الخلاص».

ففسرت اليهودية «قتال يوم الرب» فى سفر يوحنا اللاهوتى بأنه حرب الخير والشر أو النور والظلام. وهنا قد يتبادر سؤال: ما هى العلاقة بين العراق وإيران و«جبل مجدو» التى ستدور عليها رحى الحرب بين الخير والشر؟

العلاقة تكمن فى التفسير اليهودى الصهيونى لسفر الرؤيا. فقد تردد اسم نهر الفرات ومدينة بابل فى رؤى يوحنا وارتبط ذكرهما بالحوادث والكوارث التى ستحدث على الأرض تمهيدًا «ليوم الرب» ١٦/١٢، ١٦/١٩. فتوصف مدينة بابل فى ١٧/٢-٣ بأنها «الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التى زنى معها ملوك الأرض».. وفى ١٧/٥: «بابل العظيمة أم الزوانى ورجاسات الأرض». وفى ١٧/١٥-١٦: «ثم قال الملاك لى المياه التى رأيت حيث تجلس الزانية هى شعوب وجموع وأمم وألسنة. وأما القرون العشرة التى على الوحش فهؤلاء سيبغضون الزانية وسيجعلونها خَربة وعريانة ويأكلون لحمها ويحرقونها بالنار. لأن الله وضع فى قلوبهم أن يصنعوا رأيه.. والمرأة التى رأيت هى المدينة العظيمة..»..



وفى الإصحاح الثامن عشر تدور رؤيا يوحنا حول سقوط بابل (١٨/٢) وسبب سقوطها (١٨/٣) ثم يستكمل فى (١٨/٥-٧): لأن خطاياها بلغت السماء وتذكر الله آثامها. جازوها كما هى أيضًا جازتكم وضاعفوا لها ضعفًا نظير أعمالها. فى الكاس التى مزجت فيها امزجوا لها ضعفًا. بقدر ما عظمت نفسها وتنعمت بقدر ذلك أعطوها عذابًا وحزنًا». ثم يستكمل السفر وصف الموت والحزن والجوع والحرائق التى ستنزل ببابل.

لقد استغل الصهاينة الأمر الذى ورد فى ٦/١٨: «جازوها - أى بابل - كما جازتكم» بأنه دَمْج للمسيحيين باليهود، فبابل لم ترتكب آثامًا فى حق المسيحيين، ولكن وفقًا لوجهة النظر التوراتية، تلك الآثام ارتكبت ضد اليهود، فهم الذين تم سبيهم إلى بابل على يد نبوخذ نصر ٥٨٦ق.م كما ذكرنا. وهذا الأمر الوارد فى (٦/١٨)، كأنه استجابة لما ورد فى سفر المزامير (مزمور ١٣٧/٨، ٩): يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا. طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة. فالمزمور (١٣٧) يعرض السبى الذى تعرض له اليهود على يد نبوخذ نصر على أنه عقاب وبلاء ومحنة. وجاءت رؤيا يوحنا لتفسر وتفصل الجزاء المتوقع الذى تستحقه بابل وهو الدمار والخراب والذل وأكل لحمها.

وعلى النقيض من المزمور (١٣٧)، يصف «سفر عزرا» حال اليهود المسبيين فى بابل فيخيل لنا أنه يتحدث عن يهود أمريكا الآن وليس عن يهود بابل: فقد سمح قورش الملك الفارسى لليهود بالعودة إلى أورشليم، ولكن هناك يهودا فضلوا أن يظلوا فى بابل فطلب منهم أن يتبرعوا بفضة وذهب وأمتعة وبهائم وتبرعات لبناء بيت الرب فى أورشليم (عزرا ١/٤). فالسبى يبدو وكأنه مكافأة لليهود.

وعلى النقيض أيضًا من المزمور (١٣٧) يصف «سفر دانيال» نبوخذ نصر بأنه تقى ويمجد إله بنى إسرائيل ويعامل اليهود بلين ورفق (دانيال ٢/٤٧، ٣/٢٨، ٢٩).

وسواء كان السبى البابلى عقابًا أم مكافأة لليهود، فما يعنينا هنا هو توظيف «اليمين المسيحى الصهيونى» للسبى البابلى فى الحرب الأنجلو أمريكية من أجل تحقيق أهداف دينية لتلك الحرب:

١ - فما أنزلته الحرب بالعراق من خراب ودمار وحريق وإذلال وعذاب وحزن، هو جزاء بابل على ما ارتكبت من آثام فى حق اليهود عند السبى البابلى. وهو التنفيذ الصهيونى لرؤيا يوحنا اللاهوتى.

٢ - تُمثل بابل فى هذه الحرب «محور الشر» إذًا. فهذه حرب «الخير والشر» أو «النور والظلام» وعند انتصار «الخير» أو «النور» سيكون «الخلاص». فالهدف الدينى من هذه الحرب استعجال «الخلاص» أى نزول المسيح والمُلك الألفى، فإن لم يأت «الخلاص الدينى» ففى البترول العراقى «الخلاص الدنيوى» من الكساد والركود فى الاقتصاد الأمريكى والإسرائيلى.

بهذا يتضح دور اليهود فى هذه الحرب الأنجلو أمريكية وهو دور «فاعل»، فاليهود حاليًا، تحت ستار الدين، وتعجيل الخلاص، يمعنون القتل فى الفلسطينيين ويمارسون حرب إبادة شرسة لا رحمة فيها ولا هوادة، لأنها وفق تفسيرهم لرؤيا يوحنا «حرب يوم الرب» وهى حرب «الخير والشر» التى ستكون على جبل مجدو (هرمجدون) وهذا يفسر الدعم اللانهائى الذى يدعمه اليمين الأمريكى لإسرائيل وحروبها.

وهنا فى هذا الصدد يجب أن ألفت الانتباه إلى:

أ - إنه بعد انتصار معسكر الخير!! الأمريكان واليهود فى هذه الحرب سوف تُستغل أجزاء من أرض العراق لتنفيذ مخطط «التهجير» كعقاب للفلسطينيين على ثورتهم وتمردهم على جيش الاحتلال الإسرائيلى.

ب - وكمنتصر فى الحرب ستعرض أمريكا تنفيذ خطة أو «خريطة الطريق» وخطة «التسوية النهائية» وستملى شروطها، التى هى شروط إسرائيل، ومنها أن تتنازل السلطة الفلسطينية عن حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، وستعرض العراق كبديل عن فلسطين لمن يرغب فى العودة من اللاجئين، ففى المخططات الاستعمارية لا اختيار للشعوب فهم «مفعول بهم» دائمًا كما يذكر لنا التاريخ، إلا إذا أرادوا الحياة وقاوموا واستبسلوا فلا بد أن يستجيب القدر ولابد لليل أن ينجلى ولابد للقيد أن ينكسر. ولنا فى تعاقب الليل والنهار آية، فكلما اشتد سواد الليل كان ذلك بشيرًا بقرب بزوغ الفجر. ■

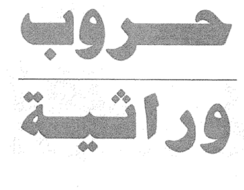
الهوامش:

(١) اعتمدت فى مخطط التهجير والتوطين ومفهوم «العودة»، والحملة الدعائية على كتاب: توماس.ل. طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلى، ترجمة صالح على سوداح، بيان، بيروت ١٩٩٥م. ص٢٣٢-٢٤٠ و٢٨٤، ٢٩١.

(٢) ترفض الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التفسير الحرفى لسفر الرؤيا، ويدرك رجالها الأهداف السياسية اليهودية التى تقف وراء تسريب الفكرة - الملك الألفى - إلى الأدبيات المسيحية. ويعتقد اللاهوت المسيحى الأرثوذكسى أن ملكوت الله ليس ماديًا أرضيًا ولكنه سماوى، وأن بناء الهيكل معارضة صارخة لسر الفداء الذى تؤمن به المسيحية.

(٣) ضمَّه الشهر ستانى تحت من له شبهة كتاب، ويصف زرادشت بأنه حكيم، ولكن هناك من يصفه بأنه نبى الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهر ستانى المتوفى ١١٥٣م. تخريج محمد بن فتح الله بدران، الطبعة الأولى، مطبعة الأزهر ١٩٥١م، الجزء الثالث.

سَقطَت اليوجينيا.. ولم يسقط اليوجينيون!



حروب وراثية

أحمد مستجير

■■ معظم الناس لم يسمعوا عن «اليوجينيا»، ومعظم من سمعوا عنها يعتقدون أنها قد انتهت مع هزيمة هتلر عام ١٩٤٥. كان السير فرانسيس جالتون هو من صاغ المصطلح عام ١٨٨٣، رأى أن التطور الصحيح للجنس البشرى قد انحرف، فقد قادت نزعةُ الخير لدى الأثرياء وإنسانيتُهم إلى تشجيع «غير الصالحين» على الإنجاب، الأمر الذى أفسد آلية الانتخاب الطبيعى، ومن ثم أصبح جنس البشر فى حاجة إلى نوع من الانتخاب الاصطناعى، أطلق عليه اسم «اليوجينيا». كان بها يعنى «علم تحسين الإنسان عن طريق منح السلالات الأكثر صلاحية فرصةً أفضلَ للتكاثر السريع، مقارنة بالسلالات الأقل صلاحية»، أما موضوع بحث اليوجينيا فهو «دراسة العوامل الواقعة تحت التحكم الاجتماعى التى قد تُحَسِّن أو تُفسد الخصائص الطبيعية الموروثة للأجيال فى المستقبل، جسدياً أو ذهنياً». قيل إن اليوجينيا رغبةٌ طبيعية فى الإنسان الفرد، وفى الجماعة. لم يكن ثمة مانع لدى الوالدين فى فجر التاريخ من قتل طفل لتوفير فرصة أفضل لبقاء أخيه، بدلاً من موت الاثنين. وكانت محاولاتُ الإبادة الجماعية للأعداء وسيلةً معروفةً لتحسين فرصة بقاء العشيرة.

ربما كان أفلاطون هو أول اليوجينيين. فعلى رأس «جمهوريته» كان فلاسفةٌ يتمتعون بالصحة الطيبة والقدرة العالية على التفكير، أما محدودو الذكاء فكانوا يشغلون المواقع الدنيا من الهيراركية. كانت الجمهورية ترتكز على الاسترقاق، ولم تتحدث كثيراً عن النساء - كانت مرتبتُهُن على العموم متدنيةً فى المجتمع الإغريقى. كان أفلاطون يعتقد أن «المزاج» يُوَرَّث، وكان على حكام الجمهورية أن يدبروا أمر تزاوج «المرغوبين»، وأن يتيحوا لكل مَنْ يُبلى بلاءً حسناً فى الحروب فُرَصاً للإنجاب أكبر. كانت أفكار أفلاطون فى الواقع تعادل ما نسميه اليوم «اليوجينيا الإيجابية».



إن جوهرَ التطور هو الانتخاب الطبيعى، وجوهرَ اليوجينيا هو أن «نستبدل بالانتخاب الطبيعى انتخاباً اصطناعياً واعياً، بهدف الإسراع من تطوير الصفات المرغوبة والتخلص من الصفات غير المرغوبة»: أن نحسن الأجيال القادمة، على حساب الأجيال المعاصرة. الفرض المستتر إذن هو أن هناك من البشر مَنْ هم أفضل من غيرهم، مَنْ يستحقون أن ينجبوا أكثر من الآخرين، وأن يُمَثَّلوا فى الجيل التالى بنسبة تَفُوق نسبتهم فى الجيل الحالى، ولقد يتم ذلك بزيادة نسل مَنْ «يستحقون» (اليوجينيا الإيجابية) أو بتقليل نسل مَنْ «لا يستحقون» (اليوجينيا السلبية). التحوير المتعمَّدُ لجنس البشر لأهداف اجتماعية هو ما تطمح إليه اليوجينيا، و«عندما يتغلب الإنسان على تطوره البيولوجى، فسيكون قد وضع الأساسَ للتغلب على كل شىء آخر... سيصبح الكونُ أخيراً طوعَ بنانه»، كما قال يوجينيٌ عتيد.



سيحدد اليوجينيون إذن للتطور مساراً جديداً، أهدافاً جديدة يقررونها هم حسب أهوائهم. هم يرون أننا لابد أن نُسَلِّمَ زمام التطور والانتخاب فى المرحلة الراهنة إلى «النُّخبة»، الأرستقراطية الآرية، وألا نترك الأمر للصدفة، لأن الصدفة قاسيةٌ غليظةُ القلب، وهى متقلبة، وعادة ما تكون أكثر تكلفة، ثم إن علينا أن نغير الوسيلة التى يتخذها الانتخاب الطبيعى والصدفة للقضاء على العشائر «التى لا جدوى منها» (يقصدون التخلص منها بالموت)، وأن نستبدل بها وسائل أكثر تحضراً ونبلاً وإنسانية: تحديد النسل. اليوجينيا ترى أن هناك عشائر بشرية « لا جدوى منها».

ذاعت حركة اليوجينيا فى أوائل القرن العشرين فى أوروبا وأمريكا عندما كان علم الوراثة لا يزال طفلا يحبو، وانضم إليها وتعاطف معها الكثيرون من كبار المفكرين والعلماء والساسة والفلاسفة ورجال المال: برتراند راسل، ج.د. برنال، جوليان هكسلى، رونالد فيشر، برنارد شو، هافلوك إليس، د.هـ لورانس، ألدوز هكسلى، هـ. ج. ويلز، روزفلت، تشرشل، جون روكفيلر. خَلَقَت تياراً عارماً يبررها، يحرسها، يدافع عنها، يُشَرِّع لها. اجتاحت أوروبا وأمريكا. أصبحت ديناً. كرست نفسها لتأكيد أن الناس لم يُخلقوا سواسية. كانت أوروبا فى القرن الثامن عشر قد سيطرت - بالأسلحة وبالمفاوضات، بالقوة وبالخداع - على أفريقيا، ثم آسيا، ثم أمريكا. وبقيت مسيطرةً طويلاً طويلاً، حتى اعتبرت نفسَها سيدة العالم، وأن بقية البشر إنما خُلقوا من أجلها، من أجل الرجل الأبيض. «إن الكلاب تكف عن النباح إذا ما استنشقت هواءنا». الشعوب، كما الأفراد، لم تُخلق سواسية. وهذا كارل بريجهام يؤكد سنة ١٩٢٣ أن السود فى أمريكا يشكلون نسبةً من «ضعاف العقول» تزيد على نسبتهم فى المجتمع.

فى عام ١٧٩٨ كان القس الإنجليزى توماس روبرت مالتوس قد نشر كتابه «مقال عن السكان». كانت الفكرة المحورية للكتاب هى أن العشيرة تتزايد فى العدد

كان المنظرون الاجتماعيون بالقرن التاسع عشر، وعلى رأسهم هربرت سبنسر قد أكدوا أن الفقراء بطبيعتهم لا يستحقون، وأن الواجب ألا نشجع بقاءهم أو بقاء نسلهم



الأقوى كما يقول هتلر لابد أن يسود على الأضعف، لا يمتزج معه حتى لا يضحى بعظمته و«لن يجد فى هذا قسوة إلا الضعاف»

أُسِّيًا، وستنتهى بالضرورة إلى أعداد لا يكفيها المُتاح من الموارد الغذائية. فإذا عجز الآباء عن تحديد حجم عائلاتهم، فإن الحروب والمجاعات ستقضى على الأعداد الزائدة. فالجزيرة البريطانية مثلاً لا يمكن أن تحمل أكثر من ٢٠ مليون شخص (وبعد مائة وخمسين عاماً كانت تحمل ثلاثة أضعاف هذا العدد). مع زيادة أعداد البشر سيندلع صراع من أجل لقمة العيش ينتصر فيه مَنْ يحمل ميزات معينةً، ينقلها إلى نسله، ليسود هذا بدوره أكثر وأكثر. قال اليوجينيون إن هذا كان وراء حدوث التطور، وأنه كان وراء وجود النبلاء وأساتذة الجامعات والطبقة الأرستقراطية. أما عن الميزات الوراثية فقد رأوا أن أولها وأهمَّها هو «الذكاء». «إن المحور الأساسى للسلوك الإنسانى» كما يقول هنرى جودارد عام ١٩١٩ «هو العملية الذهنية المتكاملة التى نسميها الذكاء... وعلى هذا فإن أية محاولة للتعديل الاجتماعى لا تضع فى اعتبارها أن صفة الذكاء صفة جبرية وأن درجة ذكاء الفرد لا تتغير، هى محاولة غير منطقية، وغير كفء».

ابتكروا للذكاء المقاييس، وراحوا يجرون أبحاثهم ليؤكدوا أنه صفة عالية التوريث - وإنْ كانوا «يعرفون» مقدماً أن «القدرة الذهنية تُوَرَّث... أن البراهين على هذا براهين حاسمة». فقد قالها اليوجينى سيريل بيرت عام ١٩١١، ثم إنهم درسوا معامل الذكاء وعلاقته بالجريمة والعنف، ليتأكد لهم «أن العالم يحتاج إلى سيادة الجنس الأبيض»!



وكان المنظَّرون الاجتماعيون بالقرن التاسع عشر، وعلى رأسهم هربرت سبنسر قد أكدوا أن الفقراء بطبيعتهم لا يستحقون، وأن الواجب ألَّا نشجع بقاءهم أو بقاء نسلهم. وعلى عكس داروين الذى يقول إن «الأصلح» هو الذى يترك نسلاً أكثر، سنجد اليوجينيين يرون أن الأصلح هو المتميز فى الذكاء والصحة والأخلاق الحميدة، وهو - بالطبع - مَنْ يشبه اليوجينى الذى يضع معايير الصلاحية!

ثمة كاتب فرنسى أرستقراطى اسمه آرثر كونت ده جوبينو، نشر فى منتصف خمسينيات القرن التاسع عشر كتاباً عنوانه «مقال عن التفاوت بين سلالات البشر»، قال فيه إن الأرستقراط الآريين الشُقر كانوا دائماً «زهرة أوروبا»، ولكنهم فقدوا قوتهم بالزواج بالسلالات الأدنى. أهمل الفرنسيون الكتاب، لكن الألمان أحبوه. أعيدت الحياة مرة أخرى إلى الكتاب، وأنشأ عشاقُه «جمعية جوبينو» عام ١٨٩٤، وفى عام ١٨٩٩، نشر انجليزى يحمل الجنسية الألمانية، اسمه هوستون سيتوارت شامبرلين، كتاباً عنوانه «قواعد القرن التاسع عشر»، استلهم فيه جوبينو وقال إن الألمان هم أنقى الآريين، وهاجم فيه السود واليهود. وعندما كتب هتلر كتابه «كفاحى» يشيد فيه بالألمان ويزكى اليوجينيا، كان فى واقع الأمر يكرر ما قاله شامبرلين إنما بصورة فصيحة مؤثرة!

على مطلع القرن العشرين إذن كان المناخ الفكرى قد تهيأ لكى تتحول يوجينيا جالتون إلى سياسة. كان قانونا مندل للوراثة قد أعيد اكتشافهما، وانهمك العلماء فى حمية يجربون، لتتكشف نتائج وآفاق فى علم الوراثة جديدة، بينما الفلاسفة يعضدون ويُنَظِّرون، ورجال المال يمولون. ربما كان لنا أن نقول إنه مع بداية القرن العشرين بدأت «الحرب» اليوجينية حقاً فى الولايات المتحدة وألمانيا وإنجلترا والسويد والدانيمرك وفنلندة. ولابد لقيام حرب من وجودٍ: عدو، وسلاح، وهدف، ومثال أعلى. العدوُّ هو المتخلفون وراثياً، الفقراء (فالفقر عند اليوجينيين صفة وراثية)، المعتوهون والمجانين، مرضى الصرع والدرن الرئوى، المقعدون، المنحلّون، الشواذ، المومسات المحترفات، المجرمون بالفطرة، السكيرون، ثم الملونون والمهاجرون من السلالات الأدنى - كلُّ مَنْ يلوثون المستودع الوراثى للسلالة. السلاح هو: التعقيم القسرى، والحد من زواج المتخلفين أو منعه، ومنع الحمل، والإجهاض، بل والقتل إذا لزم الأمر. الهدف هو: توفير الحياة الرغدة الكريمة للرجل الأبيض الذكى فلا يزاحمه فيها مَنْ لا يستحق. المثال الأعلى: السلالة النقية الذكية الأقوى، فالأقوى كما يقول هتلر لابد أن يسود على الأضعف، لا يمتزج معه حتى لا يضحى بعظمته و«لن يجد فى هذا قسوةً إلا الضعاف».

الحرب ضرورية «للتخلص» من البشر المتخلفين، كما يقول اليوجينى الكبير كارل بيرسون: «إن اعتماد التقدم على البقاء للسلالة الأفضل، رغم ما قد يبدو به من شر فظيع، إنما يعطى الصراع من أجل البقاء ملامحه المبتغاة. إذا توقفت الحروب، فلن يتقدم جنس البشر: لن يكون هناك ما يكبح جماح خصب السلالات المتخلفة». أصبح القتل والوحشية سلاحاً. والقسوة أيضاً: «الإحسان لأطفالٍ غير الأكفاء نقمة قومية، لا نعمة. إن تدابيرَ مثل الحد الأدنى للأجور، وتحديد ساعات العمل، والطب المجانى، وانخفاض وفيات الأطفال، إنما تشجع البطالة والمتخلفين وضعاف البنية والعقل». فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم فى سبيل الهدف اليوجينى الأسمى!

أفكار اليوجينيا تقوم على الفرض بأن الناس ليسوا بطبيعتهم متساوين، أما الديموقراطية الغربية فترتكز على الفرض بأن كلَّ الناس متساوون. «من الصعب إذن أن تُنَفَّذ اليوجينيا فى مجتمع ديموقراطى» كما يقول برتراند راسل «فالديموقراطية تعترض الطريق»، والترويج لليوجينيا إنما يتضمن تقويض الديموقراطية وصناعة «نخبة» عارفة تُخَطِّط وتنفذ. ومثل هذا الهدف لا يمكن إذن أن يتحقق فى مجتمع ديموقراطى إلا عن طريق الخداع والقهر وأموال أثرياء يرفضون الديموقراطية، «فطالما كان هناك من الأثرياء مَنْ يُدَعِّم مشاريع اليوجينيا، فستبقى اليوجينيا».



مضت اليوجينيا إذن فى طريقها بسياستها غليظة القلب، بالخداع وبالقهر. الفرد لا يهم السلالة هى الأهم. السلالة المتخلفة لا تُهم، سلالتنا هى الأهم. انتشرت تعاليمها، آمن بها الكثيرون، سُنَّت القوانين تدعمها، دخلتْ إلى مناهج التدريس بالجامعات، صدرت لها المجلات العلمية، أُنشئت لها الكراسى بالجامعات، عُقدت لها المؤتمرات الدولية والمحاضرات العامة، وعُقِّم باسمها مئات الألوف بطرق اتسمت بالوحشية والبربرية: أكثر من ١٦٠ ألفاً بأمريكا، وأكثر من ربع مليون بألمانيا النازية التى بدأت التعقيم بعد أمريكا بسبعة وعشرين عاماً. قُتل عشرات الألوف. رُبطت بالنازية. فلما أنِ انتهى عهد هتلر، اختفتْ اليوجينيا بعد كل ما جَرَّتْه على البشرية من دمار، بعد أن أهدرت كرامة الإنسان.

جُرحت اليوجينيا، لم تَمُتْ!

سقطت اليوجينيا، ولم يسقط اليوجينيون!

كانوا أساتذة جامعات وأطباء وعلماء اجتماع واقتصاديين وكُتَّابًا. لا أحد يعرفهم. تُركوا وشأنهم ليستمروا فى صياغة المجتمع. كانوا قبل نهاية الحرب يعملون فى العَلَن، أما بعدها فقد رأوا ضرورة أن يعملوا فى الظلام. بدأوا على الفور يمارسون «اليوجينيا المستورة» الخفية، ويوزعون الأدوار فيما بينهم لإعادة بناء اليوجينيا: فجماعة تؤكد على أيديولوجيا تَفَوُّقِ الجنس الآرى الأبيض، وأخرى تعمل كى يصبح الإجهاض قانونيا فى العالم بأسره، وثالثة تطور وسائل منع الحمل، ورابعة تُعيد تسمية السيطرة على موارد العالم فتطلق عليها اسم «الحفاظ على الموارد»، كمقدمة لاستعادة السيطرة عليها عندما يحين الأوان، وخامسة تعمل فى توجيه تدريس علوم البيولوجيا - لتُجْمع فى النهاية كل هذه الأجزاء المتناثرة وتُصاغ فى صورة سياسة اجتماعية. لم يحدث أى تغير حقيقى فى فكر اليوجينيين، هم يسعون إلى تحقيق نفس الأهداف القديمة، وبحيث لا يُشنقون فى نورمبرج لجرائمهم ضد الإنسانية أو لارتكابهم الإبادة الجماعية (على الرغم من أن اليوجينيين النازيين الذى قاموا بالتعقيم القسرى لم يُدانوا فى محاكمات نورمبرج، لأن التعقيم كان يُمارَسُ بالفعل بالولايات المتحدة).

العنصرية دَيْدَنُهم، والديموقراطية عدوهم، لكنهم يعرضون بضاعتهم ويروجون لها تحت أسماء مشفَّرة. غدت السريةُ والمراوغة القانونية والدعاية سلاحَهم. يعملون من خلال منظمات أخرى لا يحمل عنوانها كلمة «يوجينيا». يسعون بالمزيج الشرير من العرقية والداروينية إلى الإجهاض ووأد الأطفال، إلى القتل الرحيم للمرضى المسنين، إلى موت المرضى، إلى التعقيم، إلى تدريس الجنس بصورة فجة تؤدى إلى حمل المراهقات والإجهاض وحبوب منع الحمل. وليس غير الحديث «العقلانى» بوسائل الإعلام سبيلاً إلى قلوب الناس وعقولهم. يقولون «لابد أن يُترك الخيار للمرأة»: تعبير تقدمى جميل بقيته «فى اختيار وسيلة تحديد نسلها». يستبدلون بكلمة «الانتخاب» التى كان يستخدمها يوسف مينجله فى أوشفيتز كلمة «الاختيار»، «القدرة المعرفية» تحل محل «معامل الذكاء»، اسم «الجمعية الأمريكية لليوجينيا» يصبح «جمعية دراسات البيولوجيا الاجتماعية». وهم أبداً لا يستعملون كلمة «سلالة». يستغلون الغموض والثغرات بالقوانين ليمكِّنوا الأطباء اليوجينيين من موالاة النشاط اليوجينى على أنه إجراءات طبية طبيعية تتم بناءً على رغبة المريض. غدا هدفهم النهائى هو تخفيض أعداد سلالات بذاتها وتحويلها إلى شظايا عقيمة.

اليوجينيون، أتباع مالتوس - الذى كان يرى فى الوليد فماً جديداً، ولا يراه يَدَيْن تعملان وتُنتجان - يعتقدون أن هناك الكثير من المرضى، الكثير من المتخلفين، الكثير من الصينيين، الكثير من الهنود، الكثير من العرب، الكثير الكثير من الناس، يزاحمون الإنسان اليوجينى الأسمى ويربضون فوق أراض وفيرة

الثروة لا يستحقونها. اليوجينيون لا زالوا يحلمون بأن يأخذوا بزمام التطور فى أياديهم البيضاء الحنون! هم لا يصدقون فى قدسية الحياة، ولا فى الديموقراطية. لم يتعلموا شيئاً من سلسلة الكوارث الاجتماعية التى سببتها سياساتهم فى القرن العشرين. لا. تعلموا درساً واحداً: الحذر من أن يُضبَطوا متلبسين.



والواقع أنهم لم يصمتوا طويلاً. هل رأيت عُمْرَكَ فأراً يمشى؟ إنه دائماً يجرى. فعندما أنشئت منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ أصر الأمريكان والإنجليز على أن ينص ميثاقها على أن تكون دراسات السكان من بين مهامها الرسمية. اعترضت بعض الدول. لكنهما نجحتا فى إنشاء «وكالة السكان» كجزء من المنظمة. وعندما أنشئت «اليونسكو» وُضع على رأسها اليوجينى جوليان هكسلى، الذى دعا مباشرة إلى أن يُمنح حقُّ الإجهاض للمرأة فى كل دول العالم. والواقع أن حركة كبح النمو السكانى قد شكلت جزءاً كبيراً من أنشطة الحركة اليوجينية منذ عام ١٩٥٢، ولقد مضت هذه الحركة بنفس التمويل، بنفس القادة، بنفس التوجهات. أصبح لليوجينيا السلبية (أى وقف التكاثر الزائد «لغير الصالحين») اليد العليا فى النشاط اليوجينى، فاتسع انتشار وسائل منع الحمل والإجهاض والتعقيم.

وفى عام ١٩٥٢ أنشأ جون د. روكيفلر الثالث «مجلس السكان» الأمريكى فى حملته مع جون فوستر دالاس ضد تكاثر العشائر غير البيضاء. لا يزال هذا المجلس موجوداً ولا يزال يعمل على وقف تزايد السكان بالولايات المتحدة، وبغيرها. ثم إنه قد تبنى مالتوسية نادى روما، النادى الذى أسسه الماسونى أوريليو بيتشى عام ١٩٦٨ بهدف الترويج لليوجينيا ونشر البروباجندة حول الأزمة البيئية لتبرير قمع التنمية الصناعية فى دول العالم الثالث. فى يناير ١٩٦٦ كتب فريدريك أوسبورن، اليوجينى العتيد، لصديق له حول عمل مجلس السكان فى تطوير وسائل جديدة لتحديد النسل، قال «لقد رأينا أنه من الممكن أن يتم ذلك بشكل أكثر فعالية باسم «مجلس السكان» لا باسم «اليوجينيا»، وأنا أعتقد أن هذه (الوسائل) هى أهم ما اتُّخذ من إجراءات يوجينية عملية».

غدا كبح جماح النمو السكانى أهم مهام اليوجينيا، شجعتْه نخبة تستخدم قوة المال فى دفع الدول الفقيرة إلى أن «تطلب» إبادة جزء من شعبها. هذه النخبة لا تدافع عن اليوجينيا لأنها قرأت كتاب «أصل الأنواع»، لا سمح الله، لابد أن هناك حافزاً مادياً. إن موارد العالم الثالث تشكل هذا الحافز.

كبح النمو السكانى هو خادم السياسة الاقتصادية وقد تَخفَّى تحت عباءة العلم أو نزعة الخير. فى البدء قال أيزنهاور إن الولايات المتحدة لا تتدخل فى أمور سكان الدول الأخرى. ولقد تغير هذا عام ١٩٧٤، فى ذلك العام قام مجلس الأمن القومى الأمريكى -وكان يحدد التهديدات الرئيسية للدولة- بدراسة مذكرة اقترحتْ أن النمو السكانى فى



اليوجينيون النازيون الذين قاموا بالتعقيم القسرى لم يدانوا فى محاكمات نورمبرج، لأن التعقيم كان يمارَس بالفعل بالولايات المتحدة

حروب وراثية

العالم الثالث قد يسبب القلاقل، وقد يؤدى إلى أن تطلب هذه الدول نصيباً أكبر من مواردها، وعلى هذا فإن كبح النمو السكانى لابد أن يكون أمراً «بالغ الأهمية»، يهدد الأمن القومى الأمريكى. تحولت هذه الدراسة إلى سياسة بعد قرار مجلس الأمن القومى رقم ٣١٤ لعام ١٩٧٥ لم تُعْلَن هاتان الوثيقتان حتى ١٩٩٢، ومنهما يتضح أن دعم السياسة الأمريكية لكبح تزايد السكان إنما يتم لأن النخبة الأمريكية تريد موارد العالم الثالث لنفسها. إنه استعمار بوسيلة أخرى.

كان الاستعمار العلنى الصريح عام ١٩٧٤ أمراً غير مقبول، ومن هنا شرعت الولايات المتحدة تزكى كبح التزايد السكانى للدول الفقيرة «كى تتغلب على متاعبها الاقتصادية» وتصبح ثرية! وكان الجدل هو نفس الجدل المالتوسى: إن التزايد السكانى يسبب الفقر. لكن الاقتصاد لم تكن له علاقة بكبح النمو السكانى ولا بالاستعمار. كان آدم سميث (مؤلف كتاب «ثروة الأمم») يرى أن الابتكار هو مفتاح الثروة، وأن السكان عامل ثانوى. تؤكد ذلك حقيقة أن أوروبا ثرية وهى أكثر مناطق العالم تكدساً بالسكان، وإنجلترا داخل أوروبا ثرية، وهى أكثر تكدساً بالسكان من أفريقيا ومن الصين: فبإنجلترا ٦٠٠ شخص فى الميل المربع، والمتوسط فى أفريقيا هو ٢٢ شخصاً وفى الصين ٣٠٠. حركة اليوجينيا تحارب الفقراء، لا الفقر.

ولقد اقتنعت الصين بالمزايا الاقتصادية للحد من التزايد السكانى، فقررت الحكومة أن تخفض عدد عشيرتها، ومضت تنفذ ذلك منهجياً باتباع سياسة صارمة لا تسمح إلا بطفل واحد للعائلة، مستخدمة الإجهاض القسرى والتعقيم القسرى، حتى ليصل الأمر إلى أن يقوم العاملون بمشروع «تنظيم الأسرة» بمراقبة فترات الحيض للنساء فى أماكن عملهن، وحتى لتضع بعض المصانع جداول على الحائط تعلن فترات الحيض لكل امرأة بحيث يمكن لكل شخص أن يراقب كل شخص آخر. كل امرأة تحمل بعد طفلها الأول دون موافقة رسمية يلزم أن تجهض. تقول وزارة الصحة الصينية إنه فى الفترة ما بين ١٩٧٩ و ١٩٨٤ تم إجهاض ٥٣ مليون امرأة. عُقم فى هذه الفترة ٣,٩ مليون رجل و ٣١ مليون امرأة. كان الموظفون فى كل مقاطعات الصين يبحثون فى سجلات النساء تحت عمر ٤٥ سنة عمن أنجبن طفلين أو أكثر لتعلن أسماؤهن بالميكروفونات فى الأحياء، وتحدد لهن مواعيد يسلمن فيها أنفسهن إلى العيادات الحكومية لإجراء جراحة التعقيم، وإلا رُوِّعْن وعوقبن. أصبح الحَمْلُ مهمةً من مهام الحكومة: «فلا زَوَاج بدون موافقة، لا حمل بدون موافقة، لا ولادة بدون موافقة»! ثم تَلَقَّى كلُّ هذه الإجراءات التعضيدَ والثناءَ من الأمم المتحدة، فتَمنح إحدى لجانها فى عام ١٩٨٣ «جائزة السكان» إلى الوزير الصينى المسئول عن تنظيم الأسرة وإلى إنديرا غاندى التى وافقت حكومتها على الخَصْى الجبرى فى السبعينيات! وعندما عارضت هيلارى كلينتون الإجهاض القسرى فى اجتماع بايجنج، أسرعت الحكومة الأمريكية لتؤكد أن هذا رأى يخصها شخصياً ولا يجب أن يُفهم على أنه نقد رسمى للصين.



والحق أن الكثيرين من كبار الرأسماليين كانوا دائماً من وراء الحركة اليوجينية منذ بداياتها الأولى. ففى فجر القرن العشرين أصيب كبار رجال الصناعة الأمريكيين بالذعر عندما لاحظوا المعدل الكبير لنمو عشائر الأمريكان والفقراء. الملايين من المهاجرين يصلون إلى أمريكا كل عام، ويغيرون جذرياً الوضعَ العنصرى والعرقى للأمة، فى نفس الوقت الذى يهاجر فيه السود من الجنوب إلى الشمال بأعداد غير مسبوقة. وخوفاً من أن تتزايد الأقليات لتفوق البيض عدداً رأى رجال الصناعة أن الحل هو «اليوجينيا»، فبدأ كبارهم، مثل روكفيلر، وهنرى فورد وأندرو كارنيجى وآفريل هاريمان وبريسكوت بوش، بدأوا يمولون حركة يوجينية تشجع الإجهاض والتعقيم والقتل الرحيم كسبيل لمواجهة هذه «المشكلة» الجديدة. بل إن عائلة هاريمان، شركاء بريسكوت بوش (جد الرئيس الأمريكى الحالى جورج دبليو بوش)، قد قامت بتوفير التمويل لألمانيا النازية، كما أنشأت مكتب التسجيل اليوجينى فى كولد سبرينج هاربور (موقع مشروع الجينوم البشرى حالياً). أما الدور الذى لعبه رجال الصناعة هؤلاء فى تعضيد النازى، والذى كان يحظى بالتعضيد الكامل من الحكومة الأمريكية، فلعله يتضح لنا إذا عرفنا أن مصانعهم بألمانيا النازية لم تُقصف بقنابل الحلفاء رغم أنها كانت تشكل القاعدة الصناعية للنازى. بل إن الكثيرين من كبار النازيين ممن كانوا يعضدون اليوجينيا أثناء الحرب العالمية الثانية قد انتقلوا إلى الولايات المتحدة، وعملوا فى الجامعات وأجهزة الإعلام ومعاهد البحوث الحكومية ووكالة المخابرات المركزية (السى آى إيه): جاء بهم نفس الرسميين الذى عملوا مع عائلة بوش فى بناء ألمانيا النازية، ولقد شكلت آراؤهم الكثير من الأجندة التى تروج لها النخبة اليمينية فى أمريكا.



الواقع أن اليوجينيا قد حققت بعد الحرب الكثير والكثير من أهدافها. لقد كان قدر النجاح فى تطوير ونشر «تنظيم النسل» أبعد من كل خَيَال. وفى سبعينيات القرن العشرين اكتشف بول إيرليش لليوجينيين «الانفجار السكانى»، وأثار هستيريا مجنونة حول ضرورة إبطاله. ولقد كُبح الانفجار السكانى فى العالم بصورة لم يكونوا يحلمون بها. تم خلال الخمسة والعشرين عاماً الماضية فى العالم ما يزيد على بليون ونصف بليون عملية إجهاض. من يصدق هذا؟ تناقص متوسط عدد الأطفال للمرأة بأكثر من الثلث فى ظرف ثلاثين عاماً: نقص المتوسط فى كل الدول النامية من ٦,١ طفل إلى ٣,٦ طفل. ثم أخذت اليوجينيا تطرق مدخلاً جديداً هو تحويل نمط الحياة والثقافة لسكان العالم الثالث كى يتوافق أكثر مع نظرة الغرب المتحررة نحو الجنس والتكاثر.

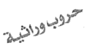
ثم دخل العالم «عصر المعلومات»، عصر الاتصالات والخدمات، عصراً ينصب اهتمامه على المهارات النادرة، عصراً سيتطلب التخلى عن سياسة تعليم الجماهير، والاكتفاء بتعليم صفوة. كان عصر اقتصاديات الإنتاج بالجملة يتطلب تعليم الجماهير لتوفير المهارات البسيطة للكل. أما عصر المعلومات فيتطلب التأكيد على المهارات العالية لأفضل الطلبة. كان نظام المصنع يوفر وظائف تكرارية، أما عصر المعلومات فيتطلب مهارات عالية للغاية فى أعمال غير تكرارية، هو عصر ربما أنتجت فيه نخبة لا تزيد على ٥٪ من المجتمع، نسبةً من الدخل القومى تصل إلى ٨٠٪، ليعتمد توظيف الـ٩٥٪ الباقية من السكان على نجاح هذه الصفوة. سيئول الأمر إلى «حكم القلة» اليوجينية، الذى يُسقط الحاجة إلى ترف تعليم الجماهير ويعمل على تشجيع التعليم الخلاق اللازم للتقدم العلمى والتكنولوجى. ولقد قالها اليوجينى ألدوس هكسلى عام ١٩٣٤: إن تعليم الجماهير الغفيرة قد خلق طبقة عريضة يمكن أن نسميها طبقة «الأغبياء الجدد»، واليوجينيا ضد الأغبياء. بل لقد طالب د.هـ. لورانس بإغلاق كل المدارس فوراً: «إن معظم البشر لا يجب أن يتعلموا القراءة والكتابة». لماذا؟ لأن أشباح المجاعة والمرض والحرب، كما يقول





فى عام ١٩٧٤ قام مجلس الأمن القومى الأمريكى- وكان يحدد التهديدات الرئيسية للدولة- بدراسة اقترحت أن النمو السكانى فى العالم الثالث قد يسبب القلاقل



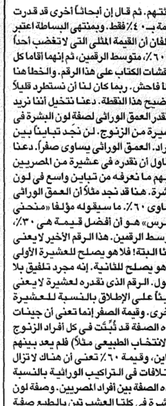


جورج مور (سنة ١٨٨٨!) «هى أمور أخف وطأة، مقارنةً بالخَطَر الذى يتوعدنا من تعليم الجماهير الغفيرة» - يتوعد النخبة البريطانية بالطبع. اليوجينيا ضد تعليم الجماهير!

بعد هذه النجاحات العريضة بدأ اليوجينيون يظهرون بوجههم علنا. فى عام ١٩٩٤ نُشر كتاب «منحنى الجرس» لمؤلفَيْن ليس منهمَا وراثى : ريتشارد هيرنشتاين (السيكولوجى) وتشارلس موراى (عالم السياسة). صدر هذا الكتاب «ليؤصل من جديد مفهوم العرقية، ويلبسها رداء العلم، فتنطلى على الكثيرين ممن يعتقدون فى العلم والعلماء كسلطة»، كما كتبتُ ذات مرة، «فجوهر الكتاب يلخصه هذا الاقتراح البسيط: فلنحيا معاً فى أمان، وليعمل كلٌ فيما خُلِقَ من أجله: أنت يا أيها الأسْود تكدح، وأنا الأَبيضُ أحكمك». نعم، أفصحت اليوجينيا هنا عن اسمها الصريح : العرقية!



يقول الكتاب إن هناك من الأبحاث ما يشير إلى أن قيمة العمق الوراثى لصفة الذكاء هى ٨٠٪ - هذا الرقم يمثل النسبة من التباين الملحوظ فى الذكاء بين أفراد العشيرة، والتى ترجع إلى التباين فى



وراثتهم. ثم قال إن أبحاثاً أخرى قد قدرت القيمة بـ ٤٠٪ فقط. وبمنتهى البساطة اعتبر المؤلفان أن القيمة المثلى التى لا تغضب أحداً هى ٦٠٪، متوسط الرقمين، ثم إنهما أقاما كل مناقشات الكتاب على هذا الرقم. والخطأ هنا خطأ فاحش. ربما كان لنا أن نستطرد قليلاً لتوضيح هذا النقطة. دعنا نتخيل أننا نريد أن نقدر العمق الوراثى لصفة لون البشرة فى عشيرة من الزنوج. لن نجَد تبايناً بين الأفراد. العمق الوراثى يساوى صفراً. دعنا نحاول أن نقدره فى عشيرة من المصريين وفيهم ما نعرفه من تباين واسع فى لون البشرة. هنا قد نجد مثلاً أن العمق الوراثى يساوى ٦٠٪. ما سيقوله مؤلفا «منحنى الجرس» هو أن أفضل قيمة هى ٣٠٪، متوسط الرقمين. هذا الرقم الأخير لا يعنى شيئا البتة! فلا هو يصلح للعشيرة الأولى ولا هو يصلح للثانية. إنه مجرد تلفيق بلا مدلول. الرقم الذى نقدره لعشيرة لا يعنى شيئاً على الإطلاق بالنسبة للعشيرة الأخرى. وقيمة الصفر إنما تعنى أن جينات هذه الصفة قد ثُبِّتَت فى كل أفراد الزنوج (بالانتخاب الطبيعى مثلاً) فلم يعد بينهم تباين، وقيمة ٦٠٪ تعنى أن هناك لا تزال اختلافات فى التراكيب الوراثية بالنسبة لهذه الصفة بين أفراد المصريين. وصفة لون البشرة فى كلتا العشيرتين بالطبع صفة وراثية تتحكم فيها الجينات!

فإذا رجعنا إلى صفة الذكاء، فإن قيمة العمق الوراثى فى عشيرة من البيض، وقيمتها فى عشيرة أخرى من السود لن يفيدا إطلاقاً فى مناقشة كتلك التى انهمك فيها هيرنشتاين وموراى. إنما المهم هو مقدار التباين الوراثى فى كل من العشيرتين - وهذا أمر لم يتطرق إليه صاحبا «منحنى الجرس». ويا ليت اليوجينيين يعرفون أن الصفة قد تكون وراثية حتى وإن كان عمقها الوراثى يساوى صفراً، ويا ليتهم يكفون عن الإيحاء بأن «ارتفاع» قيمة العمق الوراثى لصفة الذكاء يعنى أنها «وراثية جداً» ومن ثم مُهمة!!! ثم متى يدركون أن ارتفاع العمق الوراثى للصفة فى عشيرة ما إنما يعنى أن الصفة هامشية لا أهمية كبيرةً لها فى البقاء؟

ثم دخلنا عصر الهندسة الوراثية والبيوتكنولوجيا والجينوميا، وتزايدت الأبحاث التى تربط الجينات بالصفات السلوكية، وبالذكاء. وفى عام ٢٠٠١ أعلن ريتشارد لين عن عودة اليوجينيا، هكذا باسمها الصريح. أصدر كتابه «اليوجينيا... إعادة تقييم» وقال فيه إننا على أبواب عصر جديد، إننا نتحرك بسرعة تفوق الخيال الى «نوع» بشرى جديد. وستسبقه حرب عرقية.

قال إن اليساريين قد أمسكوا بزمام البروباجندة الإيديولوجية، وأقنعوا الغرب أنْ لا شىء يسمى «العرق أو السلالة» وأقنعوه أن اليوجينيا علم كاذب. تمكنوا من ذلك بقوة شخصياتهم وسلبية الجماهير التى تُصدِّق كل ما يُقال. بالتكرار والإلحاح والخداع تمكن «إرهابيو الفكر» اليساريون هؤلاء من تحييد المجتمع الغربى ليصدق أن للبشر جميعاً طبيعةً واحدة. ثم قال بجلاء إن علينا الآن أن نحرر أنفسنا من هذه القيود التى كبلونا بها حتى لم يعد فى استطاعتنا أن نعترض على ذات فكرة وجود فروق عرقية بين البشر.

بدأ لين بأن أجْهَزَ على فكرة



من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان (١٩٤٨)

لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة فى هذا الإعلان، دون أى تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو أى رأى آخر، أو الأصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد أو أى وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء. (مادة ٢)

لكل فرد الحق فى الحياة والحرية وسلامة شخصه. (مادة ٣)

لا يعرض أى إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة. (مادة ٥)

لكل إنسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، فى أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنياً للفصل فى حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه إليه. (مادة ١٠)

لا يعرض أحد لتدخل تعسفى فى حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته، ولكل شخص الحق فى حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات. (مادة ١٢)

(١) لكل فرد حرية التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة.

(٢) يحق لكل فرد أن يغادر أية بلاد بما فى ذلك بلده كما يحق له العودة إليه. (مادة ١٣)

لكل فرد الحق فى أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هرباً من الاضطهاد. (مادة ١٤)





معادلة النازية باليوجينيا، ومعادلة اليوجينيا بالهولوكوست. لم يكن لدى ألمانيا النازية برنامج لتعقيم المتخلفين عقلياً يزيد حجمه عن البرامج لدى دول أخرى في ذلك الوقت. فالسويد، مقارنة بتعدادها، قد عقمت أكثر من أي دولة أخرى في الغرب. أما «القتل الرحيم» فكان يُجرى لإفساح المكان بالمستشفيات للمجهود الحربي بعد بداية الحرب عام ١٩٣٩، ليس للقتل الرحيم علاقة باليوجينيا. أما قتل اليهود في الهولوكوست فقد جرى عندما اعتُبروا السبب في نشر الشيوعية، ولأنهم اعتُبروا سلالة ذكية قادرة على منافسة ألمانيا في سيادة العالم. البرنامج اليوجيني الألماني إذن أبداً لم يتطور، وأبداً لم يكن عدوانيا، لكن الماركسيين نجحوا في أن يلصقوا اليوجينيا بالنازية لتُكْرَه، وثَبّتُوا هذا في أذهان الناس.

ولقد بقي الحال كما هو لم يتغير - يقول. إذا ما قارنتَ البيض بالسود فإن التحدث عن التفاوت بينهما عادة ما يُوسم بالعنصرية أو يعزى إلى فشل الحكومة في أن تقوم بواجبها ليصبح الناس سواسية. أبداً لم يذكر أحد أن دَخْلَ الجماعات العرقية المختلفة يعادل متوسط ذكائهم. السود في القاع واليهود وشعوب شرق آسيا في القمة. هم يقولون إن للجماعات العرقية المختلفة نفس متوسط الذكاء، وينشر علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا البحوث التي تؤكد هذه الأسطورة - ويتجاهلون تماماً الفروق الوراثية بين السلالات البشرية!

يستطرد لين. لما كان العمق الوراثي للذكاء مرتفعاً (قال إنه يساوي ٨٠٪ - أخذ التقدير الأعلى الذي تكرم موراي بتخفيضه إلى ٦٠٪) فمن الممكن لليوجينيين أن يحسنوا فيه سريعاً، ومن الممكن أن ينجزوا قفزات واسعة في جيل واحد باستعمال تكنولوجيات الوراثة الحديثة. إذا ما قام الزوجان بانتخاب أكثر الأجنة ذكاء لزرعه في رحم الزوجة، فسيرتفع ذكاء النسل ربما بمقدار ١٥ نقطة في كل جيل، وحتى أن تصل إلى الحد الأعلى نظرياً (٢٠٠ نقطة) دون الحاجة لأي طفرة جديدة. كل ما يحتاجه لين هو تحديد «جين الذكاء»...

مع دخولنا عصر البيولوجيا الجزيئية والهندسة الوراثية والجينوميا، بدا لليوجينيين الأمر وكأننا على وشك الانتهاء من حسم قضية الفروق الوراثية بين السلالات البشرية - فقضية اليوجينيا من أولها إلى آخرها قضية وراثية. توالت نتائج التشريح الجزيئي لمادتنا الوراثية حتى اكتملت خريطة الجينوم البشري من أسابيع قليلة. الأمر لن يحتاج - في رأي لين - إلا إلى سنين معدودة حتى نعثر على «الجين» المسئول عن الذكاء (إن كان ثمة!). لكن صفة الذكاء، حتى لو أمكن تعريفها وقياسها، لابد أن تكون صفة كمية مراوغة تعتمد على عدد كبير من الجينات مبعثرة هنا وهناك على طول الكروموزومات، وهي بالضرورة تتأثر بالبيئة الخارجية وبالجينات الأخرى في نفس الجينوم. هي صفة - إن وُجدت - «بازغة»، لا يمكن أبداً التنبؤ بها من معرفتنا بالتشريح الجزيئي للجينوم. أرأيت إذ طُلب إليك أن تكتشف خصائص الماء، فَقُدِّمت إليك التفاصيل الدقيقة لذرة الأيدروجين والتفاصيل الدقيقة لذرة الأكسجين؟ خصائص الماء «بازغة» لن تكتشفها أبداً من هذه التفاصيل. إن معرفتنا بتفاصيل جينوم أي شخص لن يمكّننا يوماً من معرفة «ذكائه».

لَكن لين يتوقع أن يحددوا له جين الذكاء. يستطرد: وحتى لو تكلف «إنتاج» هذا الطفل الذكي مائة ألف دولار، فسيعوض الأبوان ذلك بما سيوفرانه في تعليم الطفل وما سينتظره من وظيفة ذات شأن. ثم إن ذكاء الطفل المُزَوَّد بالجين سيبقى وينتقل في كل جيل تال.

يختصر لين اليوجينيا في جين، بل يختصر الإنسان في جين. مَنْ يحمل هذا الجينَ، أو قُلْ مَنْ يحمِلُه هذا الجينُ، تُكتبُ له السيادة، أو يجب أن تُكتبَ له. كذا بهذه البساطة. نشأت العنصرية بسبب هذا الجين ولم نكن ندري! قُتل مَنْ قُتل، وأُجْهِض مَنْ أُجْهِض، وعُقّم مَنْ عُقّم في الحركة اليوجينية لأنهم لم يحملوا هذا الجين.

ماذا إذن لو اقتنص الملونون الجين الذي ينتظره لين، ثم أولجوه بتقنية الهندسة الوراثية في أجنّتهم الملونة لينتجوا سلالة سوداء ذكية في مثل ذكاء البيض، هل سيسمح لهم الأذكياءُ البيض بالبقاء، ويكفون عن اضطهادهم وتحديد نسلهم واستباحة أراضيهم وثرواتهم الطبيعية؟ أم تُراهم سيتذكرون عندئذ أن هناك جينات أخرى مساعدة لا يزال الملونون يفتقرونَ إليها؟ لو أن نزعة الخير والإنسانية هي المحرك الحقيقي لليوجينيا، لتوقعنا أن يفكر اليوجينيون على الفور في زرع هذا الجين في السود لرفع ذكائهم إلى المستوى الذي يرون أنه اللائق بالإنسان!

أَمِنَ الممكن أن يقود الحماسُ لليوجينيا - العنصرية إلى كل هذا القدر من البغض للإنسان؟ أمِن الممكن حقاً أن يتصورِ اليوجينيون أنْ لن يقدر عليهم أحد؟ أنّ الأرضَ كلّها هي أرض الرجل الأبيض، لأنه هو مَنْ تمكن من كل هذا العلم؟ يطغى الإنسانُ إذا استغنى.

إن المخيف هو أن الأصوات قد أخذت تتصاعد وتتعاقب وتتزايد ارتفاعها تمجد اليوجينيا، وتلوث الجو الذي يتنفسه الساسة. عاد الوجه الحقيقي القبيح لليوجينيا. سقط القناع!



أكتب هذا المقال بعد انتهاء حرب العراق اليوجينية.

جرس على المنحنى يدق، فهل نستيقظ؟ ■

أســـــرار جـــــديدة فى..

لقـــد كـــان لـــدى أمير ويلـز
ولـــع بالنســاء المتزوجـــات، اللاتـــى لديهـــن
تعـاطـــف تجـــاه ضـعـــف كفـــاءتـــه الجنســـيـــة،
ويبـــدو أن مســـز ســـيمبســـون كـــانت مـــن أراده تحـــديداً

■■ يبدو أن أسرار العائلة البريطانية المالكة لن تنفد أبداً. فقد كشفت دار الوثائق البريطانية مؤخراً عن فضيحة جديدة فى حياة الملك إدوارد الثامن الذى كان متوقعاً أن يكون ملك بريطانيا فى الثلاثينيات من القرن الماضى. وذلك على الرغم من أن حكومة هارولد ويلسون كانت قد قررت فى عام ١٩٦٧ عدم الإفراج عن هذه الوثائق حتى عام ٢٠٣٦، حيث كان من المتفق عليه أن هذه الوثائق ستبقى سرية فقط طوال حياة الملكة إليزابيث الأم، ربما بسبب الضغينة المزعومة بينها وبين مسز سيمبسون زوجة الأمير إدوارد.

وقد كشفت دار الوثائق البريطانية عن أسرار تخلى الأمير إدوارد عن العرش فى الثلاثينيات من القرن الماضى بسبب حبه لامرأة أمريكية متزوجة، أثارت نيته للزواج منها صراعاً سياسياً عنيفاً بينه وبين البرلمان، انتهى بتخلى الأمير عن العرش برغم إرادته وحرمان زوجته من أى ألقاب ملكية، فقد كانت سلطة البرلمان قوية للدرجة التى لم يستطع الأمير معها أن يقوم بمجرد إلقاء خطاب وداعه للأمة بعد اضطراره للتخلى عن العرش.

عن صحيفتي:
Sunday Times & The Times
ترجمة واعداد : رانية خلاف

كان اللقاء الأول الذى جمع بين مسز سيمبسون وإدوارد أمير ويلز فى عام ١٩٣١، حفلاً منزلياً أقامته فيورنيس، خليلة الأمير وصديقة مسز سيمبسون فى ميلتون موبراى. وفيما بين عامى ١٩٣٢ و١٩٣٣ أصبحت مسز سيمبسون وزوجها الثانى إرنيست، وهو أمريكى المولد ويعمل سمساراً لأعمال الشحن، من الضيوف المعتادين لمنزل الأمير الريفى (فورت بيلفيدير). وكانا غالباً ما يقومان بدعوته إلى حفلات الكوكتيل التى يقيمانها فى شقتهما بلندن. وفى عام ١٩٣٤ قام الأمير بدعوة آل سيمبسون لقضاء أجازة معه فى (بياريتز)، إلا أن السيد سيمبسون لم يستطع المجىء بسبب انشغاله فى أعماله، بينما حرصت مسز سيمبسون على تلبية دعوة الأمير. ومع نهاية العام قام الأمير إدوارد ومسز سيمبسون برحلة للتزلج سوياً على الجبال الجليدية فى النمسا.

لقد كان لدى أمير ويلز ولع بالنساء المتزوجات، اللاتى لديهن تعاطف تجاه ضعف كفاءته الجنسية، ويبدو أن مسز سيمبسون كانت من أراده تحديداً.

كانت مسز سيمبسون، كما جاء فى الوثائق التى أفرج عنها أخيراً، « شديدة الجاذبية وتنفق بإسراف على ملابسها ورفاهيتها الخاصة. على الرغم من ذلك، فقد ذكرت التقارير رفقتها المشبوهة بالليدى إميرالد كونراد، التى كانت مدمنة للمخدرات، وهى والدة نانسى كونراد التى عرفت بانحيازها للرجال السود».

وفى عام ١٩٣٦ أصبحت علاقة الملك بمسز سيمبسون قضية قومية بعدما تطورت علاقة الأمير إدوارد بمسز سيمبسون إلى الحد الذى دفع أحد الصحفيين الكبار فى صحيفة التايمز للاتصال بالملك مطالباً إياه بأن يعلن بياناً عاماً حول مستقبله الشخصى، ومستقبل الملكية.

وتورد الوثائق التى أفرج عنها مكتب السجلات العامة بالتفصيل محاولة الملك الأخيرة والواهنة لأن يتجاوز معارضة

فضيحة ملكية قديمة!!

إدوارد وسيمبسون

العرش.. الحب.. الخيانة

حكومة بالدوين لزواجه من «واليس سيمبسون»، وأن يتوجه بخطابه مباشرة إلى الشعب البريطاني.



تحت ستار الظلام قام الأمير إدوارد باستدعاء رئيس الوزراء ستانلى بالدوين إلى البوابة الخلفية لقصر باكنجهام فى محاولة منه لإقناعه بإلقاء خطابه للأمة، ولكن بالدوين كان قد عقد العزم على ألا يدع الملك يلقى خطابه الأخير.

و كان الأمير إدوارد قد قام بمساعدة من ونستون تشرشل، الذى كان فى تلك الفترة عضواً محافظاً فى البرلمان البريطانى، بإعداد خطاب ليلقيه فى راديو (بى بى سى) فى الرابع من ديسمبر عام ١٩٣٦، وفى هذا الخطاب كان الملك ينوى إعلان نيته للزواج من امرأة أمريكية طلقت للمرة الثانية ـ الأمر الذى كان محل شائعات احتلت صفحات الصحف الأجنبية. أما الصحف البريطانية فقد كانت الحكومة البريطانية تحكم سيطرتها عليها فى هذا الأمر.

وفى مسودة الخطاب، عرض إدوارد أن يترك البلاد لفترة بعد زواجه حتى تخفت حدة الخلافات التى أثارها أمر زواجه، ولكنه لم يذكر بأى شكل نيته للتخلى عن العرش. لقد كان من الواضح إذن أنه كان لا يزال يأمل فى إتمام زيجته ويحتفظ فى الوقت ذاته بمكانه فى العرش.

ولهذا استدعى الأمير إدوارد رئيس الوزراء بالدوين سراً لمناقشة إذاعة الخطاب فى الثالث من ديسمبر فى الساعة التاسعة مساءً إلى القصر الملكى. ورغم أنه وصل عن طريق المدخل الخلفى للقصر، إلا أن الصحفيين تمكنوا من التقاط بعض الصور. وفى اليوم التالى، أعطى بالدوين رده القاطع للملك، قائلاً له: «إن إلقاء الخطاب سيكون خرقاً خطيراً للمبادئ الدستورية. وإنه ـ أى إدوارد ـ لن يكون بعد ذلك ملكاً دستورياً».

وأضاف بالدوين، حجة جديدة لمعارضة إلقاء الملك لخطابه قائلاً: « إن هذا سيصدم الكثير من الناس ـ وخاصة النساء اللاتى يتميزن بالتعاطف الشديد تجاه الملكية ـ حينما يسمعن من الملك مباشرة نيته للزواج من امرأة لاتزال زوجة رجل آخر. إن الأمر بهذا الشكل سيثير الصحافة ويجعلها تبحث فى ماضى مسز سيمبسون، كما قد يؤدى الأمر إلى تدخل فى إجراءات طلاقها من زوجها التى لم تتم بعد وقد يتطور الأمر إلى حدوث اعتداءات جسدية على مسز سيمبسون».

وقد أثار إصرار الملك على الزواج من سيمبسون قلقاً بالغاً لدى أعضاء البرلمان وعلى رأسهم بالدوين، الذى دعا إلى اجتماع سريع للبرلمان فى الساعة الحادية عشرة والنصف من يوم السابع والعشرين من نوفمبر. ويقول دوف كوبر وزير الحرب البريطانى، في مذكراته عن هذه الفترة، أنه لا يتذكر بالتحديد السبب العاجل لانعقاد البرلمان، ولكن يبدو أن إحكام الحكومة السيطرة على الصحف قد بدأ فى الانفلات. لقد ذكر رئيس الوزراء أن صحيفة تدعى «كافالكاد» نشرت صورة مكبرة للملك مع مسز سيمبسون مصحوباً بتعليق يقول: « الملك يسير على هواه»، وأن عضواً من أعضاء حزب العمال قد علق مؤخراً قائلاً: « ترى، هل ترغبون فى ملكية فاشية؟»».

وبرغم رفضه الصارم لهذه الزيجة، فقد استشار بالدوين فى هذا الأمر كليمينت أتلى، رئيس حزب العمال، الذى رفض حتماً هو وحزبه مجرد النظر فى مسألة الزواج كحل لهذه الأزمة.

ويواصل كوبر فى مذكراته: «انعقدت جلسة تاريخية للبرلمان لمدة الساعة والربع. كانت هناك مناقشة قصيرة بعد انتهاء رئيس الوزراء من حديثه، وكان هناك إجماع عام بأن اقتراح الزواج أمر لا يمكن التفكير فيه. وقالوا أنه لم تكن هناك سابقة مماثلة. كنت فقط أحاول أن أشجعهم على إعطاء فرصة لكسب المزيد من الوقت. قلت لهم عادةً فى الحياة الخاصة حينما يريد شخصان غير مناسبين الزواج، فإن الوسيلة المثلى هى إقناعهما بالانتظار لمدة عام. وقلت لهم أننى حينما قابلت الملك قال لى أن واليس ستكون إما ملكة أو لاشىء.. رد رئيس الوزراء قائلاً أن الأمور قد زادت حدتها بدرجة لا تنفع معها مسألة التأجيل. و أعتقد أن الجميع كان يوافقه الرأى».

فى الثانى من ديسمبر، كانت علاقة الملك بسيمبسون هى الموضوع الساخن فى الصفحات الأولى لكل الصحف البريطانية وقد ساندت صحيفة واحدة هى نيوز كرونيكل أمر الزواج، بينما تجنبت الديلى ميل إعطاء رأى واضح فى هذه المسألة، أما الديلى إكسبريس فقد اتخذت موقفاً أكثر جبناً من صحيفة الميل.

ويبدو أن هذا الأمر هو ما دفع البرلمان للإسراع فى اتخاذ إجراءات البيان الخاص بالتخلى عن العرش.

وفى الخامس من ديسمبر، وفى محاولة أخيرة منه كتب تشرشل، الذى كان من الشخصيات المقربة للملك إدوارد، لبالدوين خطاباً راجياً أن يتعامل مع قضية إدوارد بـ« تعاطف ونبل» حتى تحل ورطته هذه. إن خطاب تشرشل، الذى أذيع للمرة الأولى مؤخراً، كان يحمل تحذيراً واضحاً من خطورة تدهور حالة الملك العقلية. وقد جاء فى خطاب تشرشل« لقد طلبت من بطانته وبشكل ملح أن يقوموا باستدعاء طبيب. إن جلالته يبدو واقعًا تحت ضغط عصبى هائل ويبدو أنه على حافة الانهيار. لقد شاهدت بنفسى حالتى إغماء وقتى فقد فيهما الملك تماماً خيط الحديث». وأكمل تشرشل خطابه راجياً بالدوين: « آمل أن تترك للملك فرصة لاستعادة نفسه وإعادة التفكير فى الأمور بعدما وصلت إلى ذروتها، على المستويين الدستورى والشخصى، حيث وجدت أن من واجبك أن تواجهه بها، آمل أنك لن تخذلنا بنبلك وتعاطفك».

ولكن هذا الالتماس لم يجد سوى آذان صماء، بل الأكثر من ذلك، أن بالدوين أخبر البرلمان فى اليوم التالى أنه لم يكن ليرى الملك فى حالة أفضل من ذلك وأنه كان متفهماً للغاية لرفض البرلمان البريطانى لزواجه من واليس سيمبسون.



و قد جاء نص خطاب التخلى عن العرش مثيراً، فقد بدأه الملك بالقول: «فى هذا المساء سأتحدث إليكم كأصدقائى ـ أيها الرجال والنساء البريطانيون أينما كنتم تقطنون، داخل أو خارج الامبراطورية. هذه هى المرة الأخيرة التى أوجه إليكم خطاباً، فى يوم القديس دافيد. أقول لكم أنكم قد عرفتمونى جيداً كأمير ويلز. أنا لازلت هذا الشخص ذاته، الذى وضع لنفسه شعار (Ich Dien) أو إنى هنا لأخدم، ولقد حاولت أن أخدم هذا الوطن والامبراطورية طيلة العشرين عاماً الأخيرة».

وأضاف الملك: «وفى هذا المساء لم أنس دول الدومينيون العظيمة ـ الدول المستقلة من دول الكومنولث البريطانى التى تعترف بالعاهل البريطانى رئيساً للدولة ـ والبلاد الخاضعة لسلطان بريطانيا فيما وراء البحار الذين كانوا دوماً على علاقة طيبة وودودة معى.

إننى الآن أدرك أن الصحف فى دول أخرى قد أعطتكم مبرراً قوياً للتخمينات فيما يتعلق بما أنتوى أن أفعله ـ فيما يتعلق بما سوف يحدث بالفعل. وأريد هنا أن أعبر عن امتنانى لصحف بريطانيا العظمى على الكياسة والتفهم اللذين أظهرتهما».

ويستطرد الملك فى خطابه، «لم يكن فى نيتى أبداً أن أخفى أى شىء عنكم. حتى اليوم لم يكن من الممكن بالنسبة لى أن أتحدث فى هذا الموضوع. ولكنى لم أعد أستطيع الاستمرار متحملاً العبء الثقيل الذى دائماً ما يقع علىّ بصفتى ملكاً، إلا باتخاذى وضعاً قوياً فى هذه المهمة الصعبة من خلال حياة زوجية سعيدة، ولهذا فإنى وبشكل حازم عقدت العزم على أن أتزوج المرأة التى أحبها، حينما تكون حرة لتتزوجنى».

وجاء فى نص الخطاب: «إنكم تعرفوننى جيداً لتفهموا أنى لم أفكر فى الزواج لمجرد أن أستريح. لقد استغرق الأمر منى وقتاً طويلاً لكى أجد المرأة التى أريدها أن تكون زوجتى. بدونها، كنت رجلاً وحيداً للغاية. و معها سيكون لى بيت وكل الصحبة والتعاطف والفهم المتبادل الذى يمكن أن توفره الحياة الزوجية. أعلم أن الكثيرين منكم كان لديه الحظ السعيد لأن ينعم عليه بمثل هذه الحياة. وأنا متأكد، أنكم من قلوبكم، ستتمنون الشىء ذاته لى».

واختتم الملك خطابه للشعب البريطانى موضحاً موقفه من الحكم الملكى قائلاً: «لم يفكر أبداً أحد منا، لا أنا ولا مسز سيمبسون فى أمر كونها ملكة. كل ما رغبنا فيه هو أن سعادتنا المتبادلة ينبغى أن تحمل معها لقباً واحتراماً مناسبين لها، ملاءمين لزوجتى. والآن، وقد صارحتكم فى النهاية بما لدىّ، أشعر أنه من الأفضل أن أرحل لفترة، حتى تستطيعوا أن تفكروا بهدوء وروية، ولكن بدون تأخير غير مناسب، حول ما صارحتكم به. لا شىء أقرب إلى قلبى من العودة ثانية، ولكن، مهما كانت ستسير الأمور، فإننى سأحمل دوماً مشاعر

عميقة لوطني، للامبراطورية، ولكم جميعا».

وهكذا، أعلن الملك تخليه عن العرش في ١١ ديسمبر ١٩٣٦، كما كان بالدوين يتمنى، وبعد أقل من عام من توليه عرش بريطانيا بعد وفاة الملك جورج وبينما كانت وثيقة التخلي عن العرش يتم تمريرها في البرلمان وسط مشاعر درامية في لندن، كانت مسز سيمبسون لاجئة في فيلا (لو فييه) بمدينة كان بفرنسا. وحينما سمح لإدوارد أخيراً بإذاعة رسالته للأمة في الثاني عشر من ديسمبر، كان قد نزعت عنه صفته الملكية. وفي الثالث من يونيو ١٩٣٧، تزوج إدوارد بمسز سيمبسون في باريس بصفتهما دوق ودوقة وندسور.



لقد أفرجت الحكومة عن كل الأوراق التي بحوزتها والتي تتعلق بأزمة التخلي عن العرش. فهل أصبح لدينا أخيراً كل تفاصيل الصورة؟

إن الاتصالات العديدة بين حكومات الدومينيون والوايتهول (مقر الحكومة) والتي تتكشف الآن. إن معارضي زواج الملك قد أصروا على أن الدومينيون كانوا معارضين وبشكل عنيد لهذا الزواج، وبأن إدوارد قد خاطر بكسر رباط الامبراطورية فيما يتعلق بتقاليد التاج الملكي. من الواضح الآن أن حكومات الدومينيون كانت قلقة بالفعل ولكنهم كانوا ينظرون للحكومة البريطانية منتظرين أن تقوم بتوجيههم.

كان السير هوراس ويلسون، مستشار الداونتج ستريت «رئاسة الحكومة البريطانية» أحد الشخصيات التي تورطت في هذه الدراما بشكل خفي وكان وثيق الصلة بكل من رئيس الوزراء ستانلي بالدوين، وخليفته نيفيل شامبرلين. لقد قام ويلسون بتحذير شامبرلين من خطورة مسز سيمبسون - حيث كانت على علاقة بالحركة النازية - وكانت لديها أفكار محددة لها علاقة بالنظم الديكتاتورية.



وفي محادثة مع بالدوين، تعجب ويلسون من احتمال أن «المؤرخين المستقبليين» سيسألون لمَ لم يوضع الملك إدوارد تحت ضغوط قبل فوات الأوان؟ إلا أن بالدوين ادّعى أنه لم يتصور أن إدوارد سيظل متمسكاً بمسز سيمبسون بعد أن يتوج ملكاً. والأكثر من ذلك، كما أضاف بالدوين: «كان اتصال إدوارد القليل بإخوانه يمنعهم من ممارسة أي ضغوط عليه. لقد جاءت مسز سيمبسون، في الحقيقة، وكما يحدث غالباً لتصنع جداراً بينه وبين أعضاء الأسرة المالكة».

وفي مذكرات دوف كوبر، وزير الحرب البريطاني الذي كان المؤتمن على أسرار أمير ويلز أثناء أزمة التخلي عن العرش، ذكر لقاءه في السابع عشر من نوفمبر ١٩٣٦ مع الأمير إدوارد حيث قال له أنه «ينتوي أن يتزوج من واليس سيمبسون، وأنه إن لم يستطع أن يفعل ذلك ويحتفظ بالعرش الملكي فإنه سيتخلى حتماً عن العرش. وقال إنه لو كان مجبراً على أن يفعل ذلك فليكن بأكثر الطرق احتراماً وأقلها ضرراً بالبلاد. وقال إن وضع أبيه الراحل وشعبيته كملك ارتكزت بشكل كبير على حياته الزوجية السعيدة. وأنه يدرك أن مهمة الملكية مهمة ثقيلة لا يقوم بها إلا رجل متزوج. وأن هناك اختلافاً كبيراً بين حياته كأمير ويلز التي كانت تسمح له بالعديد من الأمور التي من الصعب القيام بها مستقبلاً بصفته ملكاً». ويقول كوبر في مذكراته التي نشرت هي الأخرى مؤخراً فقط، أنه قال للأمير: «أفترض أنك سمعت كل الآراء المعارضة لك والتي كان من الممكن أن تثنيك عن عزمك وأني لهذا لا أرغب في إضاعة وقتك ووقتي بتكرار هذا الكلام، ولكني أردت أن أكرر لك، بالرغم من ذلك، أن اللوم كله بشأن هذه المأساة يقع على واليس، الآن وعلى مدى التاريخ». ويقول كوبر: «إن الأمير بدا مهزوزاً حينما سمع هذا الكلام، وقال إن هذا سيكون ظلماً كبيراً».

يبدو من مذكرات كوبر أن الأمير كان عاقد العزم على الزواج من سيمبسون، وبذلك تتضاءل احتمالات المؤامرة الكبرى من جانب البرلمان لإزاحة الملك إدوارد عن عرشه. ففي التاسع عشر من نوفمبر، كما يستطرد كوبر في مذكراته «عقدت مأدبة غداء صغيرة في التروكاديرو لمائتين من كبار رجال الأعمال، وحينما انتهيت من الحفل ذهبت إلى منزل السير هنري تشيبس تشانون وهو سياسي وكاتب سيرة ذاتية (١٨٩٧-١٩٥٨). كان هناك حفل عشاء كبير حضره الملك إدوارد، الأمير باول، الأميرة أولجا، والعديد من الشخصيات البارزة، وواليس. كان الملك يبدو في حالة معنوية مرتفعة، تحدث معي عن مسألة توظيف الجيش وفوضى أسلحة المدفعية، وعن إذاعة ال (بي بي سي)، وشرحت له حدود استقلالها، سوف أغير ذلك» أجاب الملك: «سيكون آخر أمر أقوم به قبل الرحيل»، أضاف الملك بصوت عال وهو يضحك، وكأنه كان يتطلع للرحيل. بعد مغادرته الحفل، أخذت واليس جانباً. لقد أخبرها بالتأكيد بمقابلتي له. حاولت أن أقنعها بأهمية رحيلها في الوقت الحالي عن البلاد. قالت أنه« لن يطيق سماع مثل هذا الكلام، وأنها لو رحلت فإنه سيسعى وراءها أينما ذهبت». أعتقد، من الناحية الأخرى، أنها كانت تستطيع إقناعه بأي شيء، حتى الانفصال لمدة عام. ولكني لا أعتقد أنها كانت ستخاطر باحتمال فقده خلال هذه الفترة. لقد حاولت أن أقنعها بأن الانفصال كان هو البديل الوحيد للتخلي عن العرش، الذي كان سيكون له نتائج مشئومة. ولكني أشك أن حديثي معها كان له أي تأثير يذكر».

إن بعض الشخصيات السياسية التي كانت ترى أن إدوارد تعوزه المقومات اللازمة للملكية، كانوا سعداء بأن الأمور تسير على ذلك النحو، بل هناك من يرى أن سيمبسون صنعت معروفاً بالبلاد حيث كانت سبباً لتخلي إدوارد عن العرش. حتى أنه يذكر عن إيرل دادلي قوله: «في رأيي، كان الملك إدوارد غير مناسب تماماً ليكون ملكاً لإنجلترا خلال فترة الحرب المهمة ضد ألمانيا. ولهذا، أعتقد أنه من حسن الحظ أنه لم تتم الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية. يبدو أنه لم يكن لأحد الجرأة على إخباره بشأن تلك العلاقة».

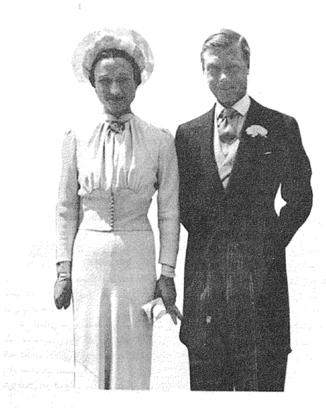
وكان كوبر يعتقد أن التخلي عن العرش كان أفضل الحلول على الإطلاق، فبدلاً من ملك كان سيجلب المصائب لشعبه بموالاته للألمان، فقد حصلنا على ملك رائع، الملكة الأم، بدلاً من دوقة وندسور. وسارت الأمور على مايرام.



من عاهرة إلى دوقة:

لم تهتم التقارير كثيراً بزوج سيمبسون الثاني الذي وصف في تقارير البوليس بأنه من النوع الذي يتسم بالمرح الصاخب، الذي لم يخف علاقة زوجته بأمير ويلز، بل إنه يبدو أنه كان يستمتع ببعض المجد الذي انعكس على شخصه بسبب هذه العلاقة.

وباقتراب إعلان التخلي عن العرش، توقف السعي وراء معلومات أخرى عن حياة مسز سيمبسون. إلا أنه قبل يومين من إعلان إدوارد التخلي عن العرش في ديسمبر ١٩٣٦، فإن سير هوراس ويلسون، كتب تقريراً، إلى نيفيل شامبيرلين، الذي كان وقتها وزيرًا للخزانة قائلاً: «من الواضح لي نيتها ليس فقط بالرجوع إلى هنا (انجلترا)، ولكن لتنشيء محكمة خاصة بها وتفعل ما بوسعها لإثارة قلق من سيأتي للعرش بعد إدوارد». واستطرد سير هوراس قائلاً: «لا ينبغي افتراض أنها تخلت عن آمالها في أن تصبح ملكة إنجلترا. إنه من المعروف أن لديها طموحًا لا حدود له، ورغبة في التدخل في الشئون السياسية».



ومن بين الأوراق التى كشفت عنها مؤخراً حزم من الخطابات من أناس عاديين، الكثير منها من أمريكا، تدين مسز سيمبسون. هناك رسالة من مسز نيتى.م.ستريكلاند من أنابوليس، ماريلاند، التى كتبت إلى السكوتلاند يارد: « هناك ستة ملايين امرأة عاهرة فى أمريكا، ونسبة كبيرة منهن يعملن فى أوروبا هذا الصيف، وبشكل خاص إنجلترا».



ومن الفضائح الخاصة بمسز سيمبسون والملك إدوارد، وأكثرها إثارة للضحك ما حدث فى أبريل عام ١٩٣٦ حيث تمت دعوة الملك إدوارد الثامن، واليس سيمبسون، وزوجها إرنيست سيمبسون وصديقته والتى كانت تدعى(باتركوب) أو كأس الزبدة إلى حفل منزلى فى هيملى هول بالقرب من دادلى. وعلى نحو غير متوقع فوجيء صاحب المنزل إيرل الثالث بزيارة مفاجئة من الملكة مارى والدة إدوارد التى طلبت منه إلقاء نظرة على «ترتيبات النوم». لقد كانت شغوفة بمعرفة كيف كان كل شيء يجرى بشكل مكشوف. وقادها إيرل الثالث إلى أعلى الدرج. حيث كانت هناك غرفة نوم الملك، ثم غرفة الحمام المتصلة بغرفة أخرى وهى غرفة نوم واليس، ثم حمام آخرمتصل بغرفة أخرى لنوم مستر سيمبسون، ثم يتصل حمامها بغرفة أخرى لنوم صديقته. كانت الغرف جميعاً متصلة ببعضها. ابتسمت الملكة مارى لدى رؤيتها لنظام الغرف بهذه الطريقة التى تعطى فرصة كبيرة للتلصص.

لم تكشف الأوراق معلومات أخرى عن علاقة سيمبسون بالملك إدوارد، هل كانت تبادله الحب بالفعل، أم أنها كانت تطمع فى سلطة سياسية ولقب ملكى؟

وبرغم ما تردد عن أطماعها السياسية، فقد حرمها الملك جورج السادس من لقب صاحبة السمو الملكى بعد زواجها من أخيه، رافضاً محاولات أخيه الملحة للمطالبة بهذا اللقب.

ومن بين الأوراق التى كشف عنها مؤخراً ملف من الأوراق الشخصية لرئيس الوزراء يوضح: «الخطوات المتعمدة التى اتخذت لحرمان الدوقة من هذا اللقب الرفيع»، الأمر الذى سمم العلاقة بين الأخوين جورج وإدوارد حتى النهاية. فى الثامن والعشرين من أبريل ١٩٣٧ ذكر سير جون سيمون، وزير الداخلية، بالدوين أن الملك وافق رسمياً على منح اللقب فيما يخص أخاه فقط، ولكنه وفى الوقت ذاته أوضح بشكل لا لبس فيه أنه لاينبغى أن يتمتع بهذا اللقب أحد له صلة ما بأخيه.

كتب سيمون: «أنت تدرك كم يريد الملك والملكة هذا الأمر بشدة، كما أعتقد أن الملكة مارى أيضاً لديها رأى مماثل. لقد أوضح السير جون كيف أن مثل هذه الزيارة سيمكن استغلالها بشكل سيئ بواسطة النقاد الذين سيقترحون أن هذا فيه معاملة غير عادلة للدوق واستخفاف بزوجته. من الأفضل ترك الأمور على حالها لأن أى وضع آخر ستكون له عواقب غير مستحبة».

واستطرد: « حتى لو بقى الزوجان فى الخارج، فإن أمر القضية الخاصة بلقب وأسلوب التعامل مع الدوقة سيظل معلقاً وسيطفو فى الحال على السطح فى أى احتفال رسمى، على سبيل المثال هل ينبغى لزوجة السفير البريطانى أن تنحنى أمامها أم لا. إن مجيء الدوق والدوقة إلى هنا سيجعل الأمور أكثر سوءاً، حيث إن الكثير من النساء يرفضن الانحناء لها، مهما كان لقبها!».

وحينما أثار دوق وندسور هذه المسألة مرة ثانية فى أبريل من عام ١٩٤٩ مع أتلى، تدخل الملك وبحسم. وفى العشرين من أبريل كتب الملك جورج السادس رسالة بخط يده إلى رئيس وزرائه: « أعلم أن أخى قادم لرؤيتك اليوم ويرغب أن يناقش معك مسألة منح لقب صاحبة الجلالة لزوجته. إنى على يقين من أنك ستخبره أن هذه المسألة قد نوقشت بوضوح عام ١٩٣٧ إبان زواجه، وأنك لن تشجعه على التفكير بأن أى تعديل يمكن أن يجرى فى هذا الوقت...لقد تحدثت مع أخى ثلاث مرات فى هذا الموضوع».

و لكن يبدو أنه ليس الملك جورج فقط هو من اتخذ موقفاً حاداً من مسز سيمبسون، حيث تروى مذكرات كوبر أن ستانلى بالدوين رئيس الوزراء فى ذلك الحين قد أخبره فى يناير ١٩٣٦ أنه شديد الرفض لهذه الشخصية، و« أنه لو اكتفى الملك بعلاقته بها كعاهرة فقط، فما كنت لأمانع». ويستطرد كوبر فى مذكراته: «إن رئيس الوزراء كان منزعجاً للغاية من علاقات الملك إدوارد بمسز سيمبسون، وأن الأمر لو أصبح معروفاً بشكل عام لأثار زوبعة فى الرأى العام.. وكان يعتقد أيضاً أن حاشية الملك وأعوانه يعارضون هذا الأمر وبشكل خاص السير ليونيل هاسلى أمين خزانة أمير ويلز (١٩٢٠-١٩٣٦)». ويقول كوبر فى مذكراته أن رئيس الوزراء قد استدعاه فى أحد الأيام بدون سبب واضح: «ولكنه قال انه يعرف أنى صديق الأمير ولكنه لم يقترح أن أقوم بأى فعل فى هذا الأمر. أعتقد أنه كان يظن أنى قد أنصح مسز سيمبسون بالاختفاء من حياة الأمير بأى ثمن. وبالتأكيد لم أكن لأقوم بشيء من هذا القبيل. لأنها كانت حتماً ستخبر الأمير الذى لم يكن ليغفر لى ذلك أبداً».

ولقد أثار مشهد وجود الأمير مع مسز سيمبسون فى إحدى شرفات قصر سانت جيمس أثناء إلقاء بيان وفاة الملك (والد إدوارد) فى الثانى والعشرين من شهر يناير ١٩٣٦، مشاعر الاستياء لدى الحاضرين حيث بدأوا فى الحديث عنها وانتقاد الأمير إدوارد.



وفى هذا المساء، كما يقول كوبر فى مذكراته: «تناولنا العشاء مع فريدى لونسدال (كاتب مسرحى ١٨٨١-١٩٤٥) فى جاريك كلوب. جلست بجوار واليس حيث تحدثت معى كثيراً عن الملك. وقلت لها: كم كان أداءه حسناً فى خطابه الرسمى القصير فى مجلس شورى الملك، حيث أعادت ذكر الخطاب لى كلمة كلمة. من الواضح أنه مكث وقتاً طويلاً فى كتابة الخطاب - ذارعاً الغرفة مجيئاً وذهاباً، مملياً عليها نص الخطاب الذى كان من محض أفكاره الخاصة. لقد كانت تتحدث بحساسية عالية. أعتقد أنها امرأة لطيفة ورقيقة - ولكنها شديدة الصلابة كما أعتقد أنها لا تبادله الحب».

و يقول نورويش، الابن الوحيد لكوبر: إن أباه قد أصابته الدهشة لدى دعوة أمير ويلز له لمرافقته فى رحلة بحرية للشرق الأوسط مع واليس سيمبسون. «لقد كان الأمير على علاقة حسنة مع كوبر، ولكن من المحتمل أن السبب الحقيقى من الدعوة هو أن أمير ويلز كان مسلوب العقل إزاء واليس وكان يعتقد أن كل من يراها سيقع فى حبها. وكان يعتقد أن قضاء أسبوع معهما سيضم والدى إلى صفهما وأن ذلك سيكسبه حليفاً فى البرلمان. وبالطبع لم يكوّن أحد ممن قابلوا واليس وجهة النظر تلك الخاصة بالأمير».

ويؤكد أن والده كان ينظر للأمير باعتباره رجلاً ضعيفاً، يفتقر لحكم متعقل للأمور، ولم يكن يصدق أبداً أن واليس أحبته للحظة. «كان أبى يعتقد أنها قد انجرفت فى علاقة غرامية مع الأمير غير مبالية بتلك العاطفة المتوهجة التى كان يكنها لها الأمير والتى جعلته يفقد عقله وتوازنه. لقد كان إدوارد رجلاً وحيداً، وكان يرغب فى حياة زوجية لطيفة، قوية وبورجوازية. لو لم يكن ملكاً لنال كل ما أراده وببساطة».

نفوذ الملكة الأم

لعبت الملكة إليزابيث الأم دوراً فى إبقاء إدوارد فى المنفى، فإن عداءها الشديد لواليس سيمبسون كان سبباً رئيسياً فى منع دوق ودوقة وندسور من زيارة بريطانيا من منفاهما الباريسى عام ١٩٣٨. وكانت وبشكل واضح وراء الخطاب الذى أرسله جورج السادس إلى نيفيل شيمبرلين، رئيس الوزراء، الذى أفرج عنه مكتب الوثائق العام مؤخراً، راجياً إياه ألا يسمح للملك السابق وزوجته بدخول البلاد، حتى وإن كان ذلك لزيارة غير رسمية بلا أى غرض. لم يكن لدى الملكة إليزابيث أى رغبة بشكل مطلق لمقابلة الدوقة. وفى خطاب مكتوب بخط اليد موجه إلى تشيمبرلين من قصر باكنجهام والمؤرخ بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٣٨، أوضح الملك أنه لا يعتقد أن زيارة دوق ودوقة وندسور فكرة طيبة على الإطلاق وجاء فى رسالة الملك: « أعتقد أنك تعرف أن كلاً من الملكة إليزابيث والملكة مارى ليست لديهما أى رغبة فى رؤية دوقة وندسور، وعلى هذا فإن أى زيارة بغرض تقديمها لأعضاء الأسرة الحاكمة ستكون بشكل واضح مستحيلة».

لقد كانت لدى الملك جورج شكوك حول زيارة محتملة قبل موعدها بأسبوعين، حيث كان رئيس وزرائه يعمل كوسيط بين الملك وأخيه. وكتب الملك جورج فى خطابه: «كلما فكرت فى مجيئه إلى هنا، كلما استأت من الفكرة، وخاصة أن بعض الصحف تسلك سلوكاً غبياً تجاه هذا الموضوع».

ولكن دوق وندسور لم يأخذ هذا الرفض الصارم بشكل متسامح، فقد كتب من محل إقامته فى أحد فنادق كان، شكوى من سبع صفحات وأرسلها إلى شيمبرلين: وجاء فيها «من الضرورى بالنسبة لى أن أكرر ولائى لأخى بصفته ملكاً، وبصفتى رجلاً بريطانيًا أتسم بالوطنية لا يمكن أن أؤيد أى فعل يكون من شأنه أن يحدث تمزقاً فى الأسرة الحاكمة. ولكنى لا أستطيع كتمان، وبالصراحة التى عهدتها منى، أن المعاملة التى خصت بها زوجتى وشخصى منذ ديسمبر الماضى، بواسطة الأسرة الملكية والحكومة، قد سببت لنا ألماً شديد القسوة». وكانت العلاقة بين الأخوين قد تسللت إليها البرودة قبل هذا الحدث بعام حينما أوضح الملك جورج لأخيه أنه لن



يسمح لأى من أعضاء الأسرة المالكة بحضور زفافه.



لقد سبب هذا الأمر انزعاجاً شديداً للدوق بسبب ارتباط منحه مخصصاته المالية الشخصية من أخيه بعدم عودته أبداً إلى بريطانيا بدون موافقة الحكومة. حتى أنه إذا ما فكر فى المجىء لأى فترة من الوقت فإنه سوف تطبق عليه أعلى درجات الضريبة على الدخل. واستطرد إدوارد فى خطابه: «لم أكن أنتوى، ولم أوافق أبداً، أن أتخلى عن موطنى الأصلى أو حقى فى العودة إليه بشكل مطلق. إن هذا الشرط المالى ظالم وغير محتمل، بوصفه معادلاً لقبولى المال فى مقابل بقائى فى المنفى».

لقد نجح نفوذ الملكة بالفعل فى بقاء الدوق والدوقة فى منفاهما الباريسى طيلة حياتهما، إلا أنه فى يونيو من عام ١٩٦٧ ظهر دوق ودوقة وندسور بشكل نادر علنا فى احتفال فى بيت مارلبورو من أجل الملكة مارى.

وبعد خمسة أعوام من تلك العودة التى لم تتكرر بعد ذلك، توفى الدوق فى الثامن والعشرين من مايو ١٩٧٢ فى باريس، وبعد ذلك بأربعة عشر عاماً توفيت دوقة وندسور فى صمت فى أحد بيوت باريس.

العشيق زير نساء

إن الدراما الملكية لم تتوقف عند هذا الحد. فالأمر الذى لم يعرفه الأمير إدوارد، والذى كشفت عنه الوثائق مؤخراً، أن مسز سيمبسون كانت على علاقة برجل آخر فى الوقت الذى كان إدوارد متورطاً فى علاقته بها قبل تخليه عن العرش.

هل كانت الأسرة المالكة على علم بهذه الخيانة؟ ولماذا لم تخبر الأمير إدوارد بذلك؟

لقد كشف عن وجود تراندل فى حياة الدوقة سيمبسون مؤخراً فقط، وذلك بعد الإفراج عن الأوراق السرية المتعلقة بالتخلى عن العرش - وبشكل خاص حزمة من التقارير السرية المرسلة إلى مفوض العاصمة.

كانت واليس سيمبسون على علاقة سرية مع شخص يدعى تراندل فى اللحظة ذاتها التى كان يتودد إليها الملك المستقبلى إدوارد الثامن. وبينما كان أمير ويلز يغوى مسز سمبسون بالهدايا الثمينة، كانت هى بدورها تغرق حبيبها الآخر بالأموال والهدايا، بينما تاخذ احتياطاتها الواسعة لإخفاء هذه العلاقة عن الأمير الهائم فى حبها.

كانت مسز سيمبسون وقتها فى التاسعة والثلاثين من عمرها، وتراندل الذى عرف بأنه زير نساء فى السادسة والثلاثين. وحسب تقارير هؤلاء الذين أرسلوا للتجسس عليه، وصف تراندل بأنه: «مغامر ساحر، جميل المظهر، كريم الأصل وراقص بارع». قد يكون مجرد رجل مبيعات يعمل فى تجارة السيارات ولكنه فاتن للنساء فى بذته المتأنقة وقبعته الناعمة المطوية لأعلى». لقد كان تراندل بشكل واضح ما يطلقون عليه السحلية المتكاسلة أو بلغة الطيران العسكرى فيما بعد كلب ذكى ودجال ساحر.

كان من الطبيعى أن يقوم البوليس بمراقبة مسز سيمبسون منذ بداية علاقتها بأمير ويلز. ولو كانت مسز سيمبسون تدرك أن البوليس الخاص يتتبعها فى عام ١٩٣٥، لكانت فكرت ملياً قبل أن تطارح عشيقها جى ماركوس تراندل الغرام فى سريرها.



لقد عرف البوليس الخاص فى عام ١٩٣٥ أن مسز سيمبسون كانت تسلى نفسها مع عشيق آخر غير الملك المستقبلى، ولكن الأمر استغرق منهم عدة أسابيع للتحقق من هويته. وفى الثالث من ديسمبر نجحوا فى كشف النقاب عن شخصيته.

تقول تقارير البوليس البريطانى أن «هوية العشيق السرى لمسز سيمبسون قد كشفت الآن. إنه جى ماركوس تراندل، يقطن الآن منزلاً فى ١٨ شارع بروتون، ويلز. إنه يقابل مسز سيمبسون علناً تقريباً فى اللقاءات الاجتماعية غير الرسمية كصديق شخصى، ولكن لقاءات سرية أخرى يجرى الاتفاق عليها من خلال مواعيد خاصة بينهما، حيث يمارسان علاقتهما الحميمة». كما ذكر التقرير أيضاً أن «تراندل كان يتلقى أموالاً من مسز سيمبسون، بالإضافة إلى الهدايا القيمة.. يعمل كمهندس ميكانيكا سيارات ورجل مبيعات ويقال أنه يعمل لصالح شركة فورد. وليس من المعروف المرتب الشهرى الذى يتقاضاه».

ولد جى تراندل فى يورك عام ١٨٩٩، لأب يدعى ريف جورج تراندل كان قسيساً وأمه كانت تدعى آمى إليزابيث لايبورن. كانت الأسرة تعيش فى ٨ شارع كاولى، يورك، مع مربية وخادمين، طبقاً لتعداد ١٩٠١. فى عام ١٩٣٢ تزوج ميلوسين كارى برنارد فى بادينجتون، وله ابنة واحدة تدعى باميلا، ولكنهما سرعان ما طلقا وتزوجت مسز تراندل من جيمس هانبرى عام ١٩٤٦.

التحق جى بسلاح الطيران الملكى عام ١٩١٧ كضابط طيار. وكان يفتخر بأن كل امرأة كانت لابد أن تقع فى حبائله. ويبدو أنه لم يكن ليتوقف عن معاشرة النساء، فبينما كان تراندل يساعد سيمبسون على خداع الملك إدوارد، كان وبشكل متتابع يقيم علاقة متوهجة مع لاعبة تنس تدعى إلين بينيت. كانت بينيت متزوجة، وكذلك كان تراندل، وبالتأكيد كانت كذلك مسز سيمبسون.

يبدو ضمنياً من السجلات أن تراندل تحدث مع الفرقة الخاصة للبوليس البريطانى عن علاقته بسيمبسون. ولكن وحتى الآن من غير المعروف متى بالتحديد انتهت علاقته بسيمبسون.

فى وقت ما قبل الحرب العالمية الثانية قابل تراندل فيرا أوبراين، والتى ستصبح خليلته لمدة العشرين عاماً القادمة. لم يكن لفيرا فقط علاقة غامضة بالملك إدوارد ولكن، وعلى نحو شاذ، كان ابنها يفتخر بأنه كان يرقص مع أمير ويلز.

كانت فيرا أوبراين، من أصل أيرلندى وإنجليزى - هندى، ابنة مسئول كبير فى السكة الحديد الهندية. كانت فى السابعة عشرة من عمرها حينما تزوجت من رجل أكبر سناً منها بكثير ويدعى بيرسيفال بايلى فى الهند. وبالرغم من إنجابها لطفل، فقد انفصلت عن زوجها بعد وقت قصير ثم طلقت منه بعد خمسة عشر عاماً من الزواج. تزوجت فيرا للمرة الثانية فى غضون اثنى عشر شهراً، ولكنها اعتادت أن تختلى بنفسها لبعض الوقت. كانت تمارس التزحلق فى كيتزبوهل، حيث تعرفت على الأمير إدوارد من خلال مدرب التزحلق. وبشكل ما أصبح فال بايلى، ابن فيرا، الصديق المقرب لتراندل.



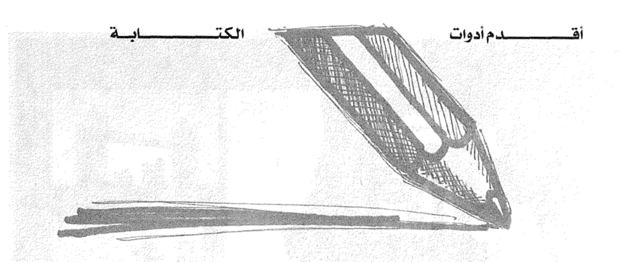
يقول فال فى مذكراته: «إن الحياة فى تلك الأيام كانت لا تعدو عن كونها سلسلة متصلة من حفلات الرقص والعشاء. كانت أوقاتاً جافة وهمجية بطريقتها الخاصة. بعض الناس قد تتخيل أن الأيام السالفة كانت تتسم بالنعومة واليسر بالمقارنة بأيامنا هذه، ولكن هذا غير صحيح، ما حدث فقط أن سلوك المجتمع قد تغير. الكثير مما هو مقبول الآن لم يكن كذلك فى الماضى، فعلى الرغم مثلاً من أن تراندل يطلق عليه زير نساء اليوم، فإنه لم يكن كذلك فى الماضى.

كان يمكن للمرء أن يشاهد بصحبة سيدة للعشاء فى الخارج بحجة أن زوجها فى مهمة عمل فى الشرق الأوسط. كان هناك عدد مهول من الأزواج فى الشرق الأوسط، هذه مجرد دعابة. لقد كانت تلك فقط كلمة شفرية».

قضى تراندل أيامه الأخيرة فى تشليسيا، بعدما تخلت عنه زوجته بسبب خياناته الزوجية، وتوفى فى ٣ ديسمبر ١٩٥٨ فى مستشفى فى ستيبنى، شرق لندن بعد علاج لمدة ١٤ شهراً من مرض السرطان. عند وفاته كان يملك حوالى ٤٤٧٤ جنيهًا استرلينيًا أو ما قيمته ٦٠,٠٠٠ جنيه استرلينى اليوم. ترك تراندل أيضاً بعد وفاته بعض الأوراق الغامضة التى لم يكشف عنها حتى اليوم. يبدو أن أوراقه تلك كانت تحمل معلومات عن علاقته بسيمبسون، التى أراد أن يخفيها وللأبد.

ولكن إذا كانت الخيانة لعبة، فماذا كانت اللعبة التى كانت تلعبها الفرقة الخاصة للبوليس البريطانى وهى بشكل متقن تلاحق كل خطوات تراندل؟ إن الدليل على علاقة مسز سيمبسون بتراندل قد تم تمريره إلى البرلمان كدليل على خيانة سيمبسون. إن كلمة واحدة تنقل للملك إدوارد حول هذه الخيانة كانت ستوقف حتماً أمر الزواج وتمنع الأزمة الدستورية. فلماذا لم يخبره أحد بأى شىء: هل كان ذلك مراعاة لمشاعره أم أن الأمور كانت قد وصلت لأكثر من ذلك، هل كانت حسابات شيطانية لم يكشف عنها النقاب بعد؟

وعلى الرغم من الإفراج عن كل هذه الوثائق دفعة واحدة، فهناك تخمينات حول وجود أوراق أخرى تتصل بسيرة حياة الملك إدوارد بعد تخليه عن العرش والتى لازالت فى طى الكتمان. هناك أيضاً رسائل خاصة متبادلة لم يتم الكشف عنها. إن المكتبة الخاصة بجامعة كمبريدج لازالت فى انتظار إذن للإفراج عن ملفين حول التخلى عن العرش فى الأرشيف الخاص ببالدوين. وربما، الأمر الأكثر أهمية، الأوراق الشخصية للملكة الأم والمودعة فى مبنى الأرشيف الملكى فى وندسور. ■



القلم الرصاص.. يرفض أن يُمحى!

جـــــون شـــمــيـد

إن أقدم وسيلة للكتابة وأقدم نظام لفن الجرافيك لا يمتلك ذاكرة كهربائية أو مصححًا لغويًا مثل جهاز الكمبيوتر الحالى، كما أنه لا يحتاج صيانة مستمرة وجميع أنواعه رغم شدة تشابهها إلا أنها غير متناسقة، ورغم ذلك كله.. فإن الناس لاتزال تستخدمه.

فلقد قاوم القلم الرصاص الكلاسيكى لمدة تزيد على أربعة قرون عاملى الإهمال والزوال، وهو إنجاز لم تستطع تحقيقه أجيال من الكمبيوترات المحمولة والأجهزة الإلكترونية شديدة التقدم - رغم سهولة حملها والتنقل بها حيث إن حجمها لا يزيد على كف اليد.. ورغم هذا التقدم التكنولوجى الكبير، فإن العالم استمر فى إنتاج أقلام الرصاص السوداء بكميات تصل إلى ١٥ بليون قلم فى السنة الواحدة.

ويؤكد الكونت أنطون ولفجنج، الرئيس التنفيذى لشركة بابركاستل - أقدم وأكبر شركة صناعة أقلام - أنه منذ عشرين سنة تقريبًا كان يشعر بالقلق على مصير القلم الرصاص إلا أنه كان ومازال يؤمن بالقلم كوسيلة كتابة أساسية.

ويؤكد الكونت الذى ينتمى إلى عائلة أرستقراطية عريقة تخصصت فى صناعة الأقلام منذ ١٧٦١ أنه لو كان استمع إلى مستشاريه الذين نصحوه بترك صناعة الأقلام والتحول إلى وسائل الكتابة عن طريق أجهزة الكمبيوتر أو أى وسائل أخرى لكان تعرض للإفلاس.

ويقول مانفرد ميللر - رئيس الاتحاد الأوروبى لصانعى أدوات الكتابة، موجود فى نورمبرج - إن كثيرًا من الناس كانوا يسألونه عن السر وراء استمرار استخدام القلم الرصاص فى ظل وجود منتجات أكثر تقدماً مثل الأقلام الرقمية وغيرها.

وأسباب إصرار الناس على استخدام القلم الرصاص واضحة ومعروفة، أولها أن أقدم وسيلة للكتابة هى أيضًا أقلها تكلفة، كما أن القلم الرصاص لا يتعطل مثل أجهزة الكمبيوتر أو يجف مثل الأقلام الحبر، والقلم الرصاص يمكن استخدامه فى الفضاء الخارجى وتحت الماء أو أى مكان فيما بينهما، بالإضافة إلى أن الدعم الفنى الذى يحتاجه القلم الرصاص لا يتعدى المبراة.

ورغم كل هذه الأسباب التى جعلت استخدام القلم الرصاص ينتقل من جيل لآخر، إلا أنها لا تعطى السبب الحقيقى، فهناك شىء أساسى فى القلم جعل الكثيرين يكتبون عن أهمية الكتابة التقليدية باستخدام أداة معبرة مثل القلم الرصاص تطبع بتلقائية كل شىء بدءًا من النقاط الثقيلة إلى الظلال الخفيفة.

فى الحقيقة، فإن القلم الرصاص أصبح يمثل نقطة التقاء يتجمع عندها الكثير من الكتّاب والمفكرين والمهندسين المعماريين والموسيقيين ممن يعارضون التكنولوجيا المضادة للقلم الرصاص: «يا محبى القلم الرصاص.. اتحدوا» هو شعار جمعية محبى القلم الرصاص الموجودة فى مدينة نيويورك بالولايات المتحدة والتى حوّلت مجهوداتها إلى العالم الذى يعيش حالياً تحت رحمة أجهزة الكمبيوتر التى قللت من قيمة الكلمة وحوّلت تجربة الكتابة الحسيّة باستخدام القلم ولمسه إلى تجربة واقعية جافة.

وعن سبب شغفه بالقلم الرصاص، يقول بيل هندرسون، مؤسس الجمعية، أن السبب ببساطة يرجع إلى أن القلم الرصاص لا يحتاج كهرباء ليكتب، وهو زهيد الثمن، تكتب به بخطك فيصبح مطبوعًا يمثل كاتبه ويدل على شخصيته على عكس أجهزة الكمبيوتر التى تحولنا جميعًا إلى مجموعة من خطوط الكمبيوتر.

وبحساب الأرقام والمبيعات فإن القلم الرصاص يظل أكثر قوة من أجهزة الكمبيوتر فالأخير تصل مبيعاته إلى ١٤٠ مليونًا فى العام الماضى وهى لا تقارن بالبليون قلم التى أنتجت فى نفس العام، ويؤكد ميلر أن إنتاج الأقلام فى أوروبا قد زاد بنسبة ١٢٪ فى عام ٢٠٠١ وفى الدول النامية تزايد الطلب على الأقلام الرصاص بصورة أسرع. أما فى سوق أقلام الرصاص بالولايات المتحدة الذى يبلغ ٢٢٠ مليون دولار، فإن المبيعات فى تزايد مستمر أو على الأقل مستقرة.

ويؤكد دوف مارتن - محرر نشرة الجمعية الأمريكية لمحبى الأقلام الرصاص والذى أنشأ موقعين على الإنترنت مخصصين للأقلام الرصاص - أن الأجهزة الإلكترونية المستخدمة فى الكتابة ليست بجودة أو تلقائية كتابة الخواطر والملاحظات بالقلم الرصاص.

وشركة فابر كاستل، التى مازالت تعمل فى صناعة الأقلام فى نفس المكان الذى أنشأه كاسبر فابر منذ ثمانية عقود ماضية، قد شهدت قفزة هائلة فى معدل الإنتاج والاستهلاك على مدى السنتين الماضيتين، وترجع هذه القفزة بشكل أساسى إلى ما يسمى «Grip ٢٠٠١» وهو التحول الفنى والشكلى الذى حدث فى تكنولوجيا صناعة الأقلام الرصاص مما أدى لمضاعفة الطلب عليها خاصة فى شركة فابر كاستل التى تمتلك ١٥ فرعًا فى جميع أنحاء العالم ويعمل بها حوالى ٥ آلاف شخص. والشكل الجديد للقلم الرصاص «Grip ٢٠٠١» هو شكل ثلاثى بدلاً من سداسى الأبعاد عليه نقاط بارزة موزعة على القلم الأملس بشكل يجعل الإمساك به أكثر راحة وسهولة هذا بالإضافة إلى شكله الجمالى ولونه الفضى



قاوم القلم الرصاص الكلاسيكى لمدة تزيد على أربعة قرون عاملى الإهمال والزوال، وهو إنجاز لم تستطع تحقيقه أجيال من الكمبيوترات المحمولة والأجهزة الإلكترونية شديدة التقدم



ترجمة: إنجى غنام
المصدر: هيرالد تريبيون
(International Herald Tribune)

المميز. والجديد فى هذا الشكل هو محاولة تثبيت هذه النقاط بدهان أقلام عادى وغير سام وليس بمادة قد تجعل القبضة على القلم صمغية أو تلتصق بمبراة القلم أثناء بريه.

وقد فاز هذا الشكل الجديد للقلم الرصاص بخمس جوائز عالمية بالإضافة لكونه سهل التثبيت خلف الأذن وهى عادة يقوم بها الكثيرون من مستخدمى القلم الرصاص حول العالم والكونت يبيع أقلامه الجديدة بسعر ٧٥ سنتًا (يورو) أى ما يعادل ٨٠ سنتًا (دولار) للقطعة متجاهلاً نصائح خبراء التسويق الذين أصروا أن لا أحد يريد أقلام رصاص غالية الثمن عالية الجودة خاصة أن الشركة تصنع أقلامًا ميكانيكية أيضًا.

وتأكيدًا لنجاح الفكرة، يؤكد الكونت أنه منذ تم تصنيع القلم الجديد فى أبريل الماضى والمصنع يعمل ثلاث ورديات يوميًا ليسد حاجة السوق من هذا المنتج الجديد.

وأثناء الجولات التى تتم للزوار بالمصنع، فإن التصوير ممنوع تمامًا فى المكان الذى يتم تصنيع القلم فيه حفاظًا على سرية التصميم الجديد.

والكونت كاستر البالغ من العمر ٦١ عامًا لم يكن أساسًا شغوفًا بصناعة الأقلام فقد قضى سنوات طويلة من عمره يعمل كمستثمر ومصرفى فى البنك المصرفى السويسرى فى لندن ونيويورك خلال السبعينيات حتى تولى على مضض أعمال العائلة فى عام ١٩٧٨، ومنذ ذلك الحين أظهر كفاءة ونجاحًا كبيرين فى مجال صناعة أقلام الرصاص جعلته فى مثل شهرة بيل جيتس فى صناعة الكمبيوتر.

وعن منتجه الجديد المتمثل فى قلم رصاص خشبى مضاف له جزء مصنوع من الفضة يُستعمل ليُغلق به القلم وكمبراة وكغطاء حتى لا يترك القلم أى بقع فى جيب القميص، يقول الكونت إنه يعتبره القلم المثالى، ويباع هذا القلم بسعر ١٣٥ يورو فى حين يباع النوع النادر منه المطلى بالذهب والمرصع بالألماظ بسعر ٩٠٠٠ يورو.

وشركة فابر كاستل التى يُطبع اسمها على حوالى ١,٨ بليون قلم سنويًا هى أول من صمم نظامًا يحافظ على نعومة الرصاص، وأول من قام بتصنيع القلم الرصاص السداسى الأوجه الذى لا يتدحرج على المائدة.

وقد قرر أحد أفراد الجيل الرابع من عائلة فابر أن ينتقل إلى نيويورك لينشئ شركته الخاصة منقسمًا عن بقية عائلته ولينتج القلم الأمريكى الأصفر اللون المعروف باسم سابير هارد فابر ٢».

وآخر خسارة واجهتها شركة فابر كانت فى عام ١٩٧٠ حين غزت الآلات الحاسبة الأسواق مما أدى إلى كساد صناعة المساطر الحسابية التى كانت تنتجها الشركة إلى جانب الأقلام الرصاص.

ويضيف الكونت أن حركة علم التنبؤ الذى يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها والذى ظهر فى الثمانينيات ساعدت على إحياء القلم الرصاص حيث أظهرت الدراسات أن المنتجات البلاستيكية ومنها الأقلام الجافة قد أصبحت فجأة مضرة للبيئة.

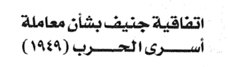
أما القلم الرصاص فهو ينتمى للأرض مثله مثل: الأشجار والكربون الأسود الطرى والصلصال والنحاس التى يُصنع منها القلم الرصاص.

وبسبب هذه الأصول العضوية التى ينتمى إليها القلم الرصاص، قررت جمعية القلم الرصاص اختيار الكاتب الأمريكى هنرى ديفيد ثورو - الذى عاش حياة بسيطة فى كوخ فى الغابة - كمدير شرفى لها. وقد استفادت الجمعية إعلاميًا من حقيقة أن ثورو استطاع أن يتعلم فى إحدى أكبر جامعات الغرب وهى جامعة هارفرد فقط لكونه ابن أحد صانعى القلم الرصاص ولكونه قد ساعد والده فى هذا العمل.

ويتباهى محبو القلم الرصاص بسرد قصة أن شركة فيشر لصناعة الأقلام الحبر قد أنفقت الملايين لتخترع قلم حبر يكتب وهو مقلوب وفى غياب أية جاذبية أرضية وأرسلته للتجربة فى الفضاء مع سفينة الفضاء أبوللو٧، فى حين أن القلم الرصاص عمل بكفاءة فى خدمة رواد الفضاء فى كل الرحلات السابقة دون أن يحتاج أى تعديل أو نفقات ضخمة لتطويره.

والقلم الرصاص يمثل أهمية كبيرة للكتاب حيث إن أسلس الأقلام الرصاص وأكثرها جودة هو أكثر ما يسعد الكاتب ويبهجه إلى أقصى حد، فمثلاً منذ أن توقف إنتاج القلم الرصاص المميز ابرهارد فابر ٦٠٢ فى عام ١٩٩٨ والكُتاب يبحثون عنه ويدفعون ٢٠ دولارًا ثمنًا للقلم الواحد من هذه النوعية. ■

كتاب الزاوية



اتفاقية جنيف بشأن معاملة أسرى الحرب (١٩٤٩)

فى حالة قيام نزاع مسلح ليس له طابع دولى فى أراضى أحد الأطراف السامية المتعاقدة، يلتزم كل طرف فى النزاع بأن يطبق كحد أدنى الأحكام التالية:

يقع أسرى الحرب تحت سلطة الدولة المعادية، لا تحت سلطة الأفراد أو الوحدات العسكرية التى أسرتهم، وبخلاف المسؤوليات الفردية التى قد توجد، تكون الدولة الحاجزة مسؤولة عن المعاملة التى يلقاها الأسرى. (مادة ٣)

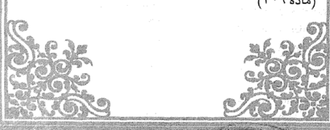
لا يجوز محاكمة أو إدانة أى أسير حرب لفعل لا يحظره صراحة قانون الدولة الحاجزة أو القانون الدولى الذى يكون ساريا فى وقت اقتراف هذا الفعل.

لا يجوز ممارسة أى ضغط معنوى أو بدنى على أسير الحرب لحمله على الاعتراف بالذنب عن الفعل المنسوب إليه.

لا يجوز إدانة أى أسير حرب بدون إعطائه فرصة الدفاع عن نفسه والحصول على مساعدة محام أو مستشار مؤهل. (مادة ٩٩)

إذا صدر حكم بالإعدام على أسير حرب، فإن الحكم لا ينفذ قبل انقضاء مهلة لا تقل عن ستة شهور من تاريخ وصول الإخطار إلى الدولة الحامية. (مادة ١٠١)

لكل أسير حرب الحق، بنفس الشروط المنطبقة على أفراد القوات المسلحة بالدولة الحاجزة، فى استئناف أى حكم يصدر عليه أو رفع دعوى لنقضه أو التماس إعادة النظر فيه. (مادة ١٠٦)



ذهب جورج دبليو بوش إلى العراق «بضرباته الاستباقية» بدعوى «ضمان الأمن» لمواطنيه. وقبل أن ينتهى الإمبراطور العولمى الجديد من ارتشاف نخب انتصاره الذى حرص على إعلانه من سطح حاملة الطائرات العملاقة «إبراهام لينكولن»، كان عشراتٌ من مواطنيه يدفعون الثمن فى عدد من أحياء الرياض الهادئة الآمنة. فيُقْتلون فى أسرَّتهم، «مع غيرهم من الأبرياء للأسف» بالضبط كما حدث فى حى المنصور (بغداد - أبريل ٢٠٠٣) وفى أزقة قندهار الفقيرة (أفغانستان ٢٠٠٢). ويحدث يوميًا فى الضفة الغربية وغزة.

هل تذكرون غلافَ النيوزويك الشهير (٢٥ نوفمبر ٢٠٠٢) والذى حمل صورة بن لادن وقولته القاطعة: «كما تَقْتُلون ستُقْتَلون..».

وهل تذكرون ما حذر منه الرئيس المصرى مبارك قبيل الحرب على العراق - وبغض النظر عن السياق - من أن «سياسة أمريكية غير متوازنة فى الشرق الأوسط، قد تؤدى إلى ظهور مائة بن لادن».

وهل تذكرون أقلامًا فى واشنطن، لم يعجبها الرأى المصرى، فسارعت - متعجلةً ربما بغرور الإفراط فى القوة - إلى القول بأن زعيم القاعدة «وإن لم يقض عليه.. إلا أنه قد بات رأسًا بلا جسد.. وقائدًا بلا تنظيم».

مرة أخرى يخطىء الأمريكيون، حين يَصُمّون.. أو يصممون أن يفهموا كل الأمور بطريقتهم. رغم عشرات المعاهد البحثية وعديد الأجهزة الاستخبارية. فـ«تنظيم القاعدة» - إن جاز لنا أن نعتبره «تنظيمًا» بالمعنى الإصطلاحى للكلمة - وأن نسميه «القاعدة» - كما درجت العادة إعلاميًا - ليس «الألوية الحمراء» فى إيطاليا.. ولا «بادر ماينهوف» فى ألمانيا. ولا حتى - رغم قرابة الجغرافيا - «أيلول الأسود» أو «جماعة أبو نضال» والتى تتوقف فى معظم الأحوال عن النشاط، أو التأثير، عندما يمرض زعيمها أو يتقاعد.

الأمر هنا يختلف جذريًا. خاصة ونحن هنا على الأغلب بصدد «متبنين» لأفكار أكثر مما هم «منتمين» لتنظيم. وفى كل الأحوال كان أولى بالأمريكيين الذين ابتدعوا الهيكلة «العنكبوتية» للإنترنت، ليحصلوا على شبكة غير قابلة للانهيار، أن يكونوا أول من يفهم كيف يمكن تصور بنيان شبكة لا تتفكك بالقضاء على بعض مراكزها أو وصلاتها.

والواقع أن هذا هو الحال بشأن جماعة بن لادن. كما بشأن كل تلك الجماعات (العقائدية / لا التنظيمية) التى يستريح المحققون بنسبتها إليه كلما كان العمل تفجيريًا أو كلما عثروا فى أمتعة المشتبه بهم على أشرطة للرجل، هى تباع فعليًا وعلى نطاق واسع فى أسواق البلدان الإسلامية الآسيوية.

هذه المرة. ولأسباب «لوجستية» عديدة، طاشت الكرة. وارتجت بالتفجيرات - التى حادت هدفها الصحيح بلاشك - حواضرُ عربية. ولطخت دماءٌ ما كان يجب أن تسيل الدار «البيضاء» وياسمين «الرياض». وسرعان ما شُغلَ الجميعُ «هناك» بالسعودية؛ بلدًا ودينًا ونظامًا وحكمًا. وصدَّرت النيوزويك افتتاحيتها: «الآن.. يرى السعوديون العدو». وكانت لهجة التوصيات قاطعة.

فبعد أن تؤكد النيوزويك أن «المملكة ستعلن قريبًا تشكيل لجنة لكى تعيد رسميًا فحص مفهوم الجهاد.. وأن الحكومة السعودية ستتصرف، من الآن فصاعدًا، بصورة أكثر اندفاعًا على أساس المعلومات الأمنية» تحدد المجلة الأمريكية معالم خارطة الطريق، وتلخصها فى:

١ - إصلاح الأنظمة التعليمية.

٢ - إخلاء المساجد والمنظمات الإعلامية من رجال الدين المتطرفين.

٣ - تهميش وزارة الشؤون الدينية.

٤ - وقف أموال «الإغاثة الإسلامية» التى تتدفق على منظمات متشددة فى الخارج.

والحاصل أن المنطقة لزمن طويل كانت قد أدمنت التعاطى مع خرائط الطرق. وعليه فقد كان طبيعيًا - ولا مصادرة لرأى - أن نقرأ فى افتتاحية «جريدة عربية» أن أولئك «الذين يؤيدون بسعادة التفجيرات الانتحارية فى إسرائيل.. يتحملون جزءًا من المسئولية عن تفجيرات الرياض».

كما كان طبيعيًا أن يرى أحدهم فى «الوطن» الكويتية، أن تلك الجماعات الإرهابية التى تتبنى عقيدة الجهاد «تجد لأيديولوجيتها غطاء فى الرسالة الدينية التى تنشرها المساجد والمدارس». وبالتالى يطالب كاتب كويتى آخر واشنطن «بأن تزود السعوديين خارطة طريق أخرى تفصل ما هم بحاجة للقيام به».

وينسى الأمريكيون هنا حقيقة أن البنيان الاجتماعى والثقافى، بل وحتى السياسى والاقتصادى للمملكة متماسك بلحمة واحدة.. أو بالأحرى بمادة لاصقة واحدة. يصبح من الصعب، كما هو من الخطر محاولة تذويبها فى أى ركن من أركان هذا البناء الذى تراصت لبناته وتداخلت و«تلاحمت» إلى مدى قد لا يدركه غير السعوديين أنفسهم.



البادى إذن أن الغبارَ الذى تصاعد فى سماء نيويورك صباح هذا اليوم «المفصلى» من سبتمبر ٢٠٠١ مازال يُرمِدُ كثيرًا من العيون - هنا وهناك - فصارتْ لا ترى غير ما رأته يومها. مصممة على تفسير كل حدث وحركة.. بل وكل محادثة هاتفية ورسالة بريد إليكترونى «تفسيرًا سبتمبريًا». (رفعت السلطات الأمريكية حالة التأهب إلى الدرجة البرتقالية قبل أسبوعين بسبب رسالة بريد إلكترونى، ربما كانت مازحة، تطلب من العرب المقيمين فى إحدى الولايات مغادرتها خلال ٤٨ ساعة).

ماذا وراء تلك «الحالة السبتمبرية»؟

قبل ٢١ شهرًا كاملة وقعت الواقعة «وزلزلت الأرض..».

وكان أن الوصفَ قبل التفسير - وبحكم «السوق» وهول الخطب - أغفل تفصيلات قد تكون مهمة. وأضفى ظلالاً قد تصبح موحية.

وكان أن تم - على الطريقة الأمريكية المعتادة - تعليبُ التفسيرات لتصبح وجبةً جاهزةً عند الحاجة.. وكل حاجة. وكان أن ازدحمت ساعات إرسال الشبكات التليفزيونية المتنافسة دومًا بمحللين ومفسرين كل مؤهلاتهم «التفضيلية» أنهم جاءوا يومًا من - أو حتى زاروا - تلك البلاد البعيدة.

وعبر الآلة الإعلامية «العولمية» الجبارة، لم يعد «تدويرُ» تلك التفسيرات شأنًا أمريكيًا صرفًا. ففى عالم تذوب فيه الحواجز، وتسقط فيه الأسوارُ كما الإرادة، يصبح لكل صوت قادم من هناك حتمًا صدى. بحكم الطبيعة - أو بغيرها - لا فرق.

والحاصل أن التفسيرات (صوتًا وصدى) كانت تحتاج بضرورة الحكمة إلى إعادة نظر. بعد أن هدأت الجلبة وابتعدت الصدمة.. وهو مالم يحدث - للأسف - إلا قليلاً. وكان أن شاعت أفكار قد لا تستمد صدقيتها إلا من شيوعها ذاته.

فعلى سبيل المثال يخطىء من يركن إلى وهم أن أفغانستان / طالبان هى (أو كانت هى) المُحَرِّضة الرئيسة للعنف ضد أمريكا، أو الغرب الذى تتزعمه.

كما يخطىء من يقطع بأن المدارس الدينية أو كتب الفقه الإسلامية القديمة هى الرافد الفكرى «للتحريض» على هذه العمليات.

ودعونا نسرد هنا مجموعة من الحقائق التى أغفلها القصد أو العجلة.. أو مسايرة ما هو شائع.

١ - لم يوجه الاتهام - حقًا أو زورًا - فى أحداث سبتمبر لأفغانى واحد، سواء من طالبان أو من غيرها.

٢ - فى كل ما صُنِّفَ «إرهابًا» - مع التباين فى التعريفات والتحفظ على غموضها ومدى حيدتها - لم نر أزهريًا واحدًا أو خريجًا من القيروان أو الزيتونة، أو غيرهما من المدارس الإسلامية العريقة.

٣ - إن بعض من تصدى للتضحية بحياته فى عمليات مثل تلك، لم يتجاوز التاسعة عشرة من العمر. وهو بحكم السن على الأقل، لم يشارك قطعًا فى الجهاد الأفغانى (١٩٧٩ - ١٩٨٩) ولم ير عبدالله عزام (مات ١٩٨٩) ولكنه بالضرورة رأى (على الفضائيات) صورة الأم العراقية المحترمة التى بالت واقفة فى ملابسها أمام أبنائها (تجسيدًا لمعانى «الصدمة والترويع») أمام فوهات المدافع سريعة الطلقات لجنود المارينز مفتولى العضلات الذين اقتحموا دارها فى أيام الحرب الأولى (الصورة بثتها CNN.. ونقلتها عنها جميع الفضائيات العربية).

وعلى من لا يريد أن يُصَدِّق ربط مبارك بين الحرب على العراق وظهور مائة بن لادن، أن يعود لأرشيف الصحف. ليرى كيف كان آلاف المتظاهرين «ضد الحرب» فى دول آسيا الإسلامية يرفعون صور أسامة / الرمز، الذى لم ينجح الأمريكيون حتى اللحظة فى الوصول إليه.

كما قد يكونُ مفيدًا لأولئك المطمئنين إلى التوصية بتركيز المناهج على ما هو «علمى» بديلاً عما هو «دينى» أن يتذكروا



«إن الباب الوحيد المفتوح اليوم أمام الشباب العربى للرد على إهانة الأمريكيين هو باب أسامة بن لادن. وهو الباب الذى ندفعهم إليه نحن الغرب قسرًا بأفعالنا»

الجارديان

٢٠٠٣/٤/١٠

(قبل شهر من تفجيرات الرياض)



بــــــــن لادن!!!

أيمـــــن الصيـــــاد

أن أيمن الظواهرى «طبيب». وأن أسامة بن لادن كان دارسًا للهندسة. ومثله القائد الأشهر لعملية سبتمبر محمد عطا الحاصل على الماجستير فى التخطيط العمرانى.

وربما كان علينا - لكى نفهم ما يجرى اليوم - أن نتذكر حديث بن لادن معلقًا على أحداث سبتمبر فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١ عن «الذل والهوان الذى يتعرض له المسلمون منذ أكثر من ٨٠ عامًا».

أخطأ بن لادن (فيما نرى) عندما اختزل الأمر كله فى حديث عن «فلسطين» ويخطىء برنارد لويس؛ نافذة الغرب على الإسلام، والأب الحقيقى لفكرة «صراع الحضارات» عندما يضع لكتابه الأخير «The Crisis of Islam» عنوانًا جانبيًا يختصر فيه القضية فى «حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس Holy War and Unholy Terror».

يخطىء أسامة (الشاب المغامر). ويخطىء لويس (الشيخ الأكاديمى).. ونخطىء نحن عندما تستهوينا تلك الثنائية، وننزلق لما يروجه المستشرق اليهودى على الناحية الأخرى من الأطلنطى. ونصدق أن فكر «الفسطاطين» المختلف عليه، يقف - وحده - وراء تفجيرات الرياض والدار البيضاء. ووراء المشاعر المعادية لأمريكا وإسرائيل ورموزهما. وأن الحل (ينحصر) فى الروشتة الأمريكية بتجفيف منابع هذا الفكر فى المدارس والمساجد.. وفى القرآن والسنة.

ولعلى أزعم - مجربًا - أن حديث البسطاء فى مقاهى القاهرة حول أكواب الشاى الأسود، أو فى جلسات القات فى صنعاء. أو حتى شباب الأثرياء فى ديوانيات الكويت، لم يعرف طريقه أبدًا إلى الجدل العقيم حول «دار الحرب.. ودار الإسلام»، ولكنه - بمنتهى البساطة - يشعر بالظلم والهوان.. وبالعداء الفطرى لمن يبدو وكأنه يستهدف دينه وأرضه. ولمن لا يتردد فى الدفاع عن أنه يكيل بمكيالين. يقول توماس فريدمان فى «الجزيرة»: إننا نعرف أن إسرائيل لديها أسلحة نووية ولكننا «لا ننظر إليها كما ننظر إلى العرب».

هل يعتقد الأمريكيون حقًا أن شعبان عبد الرحيم - الذى لا يعرف القراءة والكتابة أصلاً - قد احتاج أن يقرأ كتب الفقه وأطروحات ابن تيمية لكى يكره إسرائيل فى أغنيته التى ذاعت بعد اندلاع الانتفاضة. أو لكى يعادى أمريكا فى أغنيته الجديدة بعد حرب العراق.

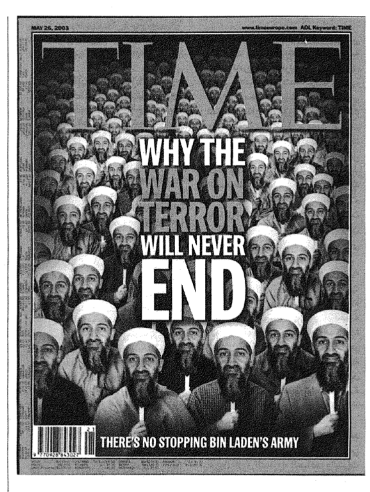
وهل وجد توماس فريدمان الذى رأى بعد ١١ سبتمبر أن العداء لأمريكا يعود إلى «الفقر والحسد» تفسيرًا مقنعًا لنظريته فى مظاهرات بروكسل وطوكيو وبرلين.

وهل مازال المعجبون ببرنارد لويس ورأيه القائل بأن العداء لأمريكا يكمن فى جوهر الإسلام وثقافته، يعتقدون أن فتيات سيدنى اللواتى اخترن «العرى» فى الشارع احتجاجًا على ممارسات القوة الأعظم منشغلات بمسألة «الحجاب الشرعى» التى أراد لها البعض أن تصبح أزمة فى فرنسا هذه الأيام.

الأسئلة محملة بعلامات تعجب أكثر مما هى ملحقة بعلامات الاستفهام.

رغم كل ذلك - ولا عجب - فقد قرأنا لمن لم ير فى هبة ضراغمة، الجامعية الفلسطينية ذات التسعة عشر ربيعًا بطلة عملية العفولة الأخيرة، غير حجابها. كأنه لم يقرأ أن شقيقها معتقل فى السجون «الإسرائيلية». وأن منازلَ لأقاربها فجرتها القوات «الإسرائيلية». وأن مزارع العائلة بشجرات الزيتون المعمرة قد جرفتها الآليات «الإسرائيلية». وأن سيارة مدنية تعبر الزقاق المجاور قصفتها أباتشى «إسرائيلية».

كل ذلك وغيره كثير لم يكن كافيًا وتم - بجرأة بالغة - اختزال الأمر كله فى حجاب الفتاة.. وفى مفهوم «الجهاد» وثقافة الإسلام «الدموية».



مجلة الـTIME الأمريكية، والتى ربما على مدى العامين الماضيين كانت الأكثر احتفاءً بصورة بن لادن على غلافها (الهدف تارة.. والشبح المختفى تارة أخرى) اختارت لغلافها الأخير (٢٦ مايو) عددًا لا نهائيا من الـ«بن لادنيين». أو بالأحرى من أولئك الذين يرتدون.. أو يختفون.. أو يراد لهم أن يبدوا بوجه ذلك الشيخ المعمم ذى اللحية الكثيفة.

الصورة المعبرة المزدحمة بالأوجه (أو بالأحرى بالوجه الواحد) وبالدلالات «ذات الأوجه»، حملت سؤالاً واحدًا، موجزًا ومحوريًا. وقد يكون دالاً أنه خلا من علامة الاستفهام: Why The War on Terror Will Never End.

السؤال يبدو بسيطًا جدًا. والإجابة أيضًا قد تصبح كذلك. فقط إذا نجح الأمريكيون فى ترجمته هكذا: ما الذى يغذى مشاعر التطرف والعنف ضد أمريكا فى عالمنا العربى والإسلامى..؟ وكيف يمكن للأمريكيين أن يشعروا بالأمن.. والسلام؟

وقد يكون لازمًا كمقدمة هنا أن نسأل أولئك الذين يشيرون بسبابتهم دائمًا إلى بن لادن: لماذا ينجح هذا الكهل المريض الطريد فى أن يكون له كل هذا التأييد. الكائن فى لافتات تظاهرات كراتشى وكوالالمبور.. والكامن فى منتديات النقاش الشبابية العربية على الإنترنت. والمتفجر ربما فى ضواحى الرياض الآمنة وأزقة الرباط الفقيرة؟ يسأل كتاب الأعمدة فى الصحافة الأمريكية.. وتذهب بهم الإجابات «المألوفة» والتى يعاد تدويرها، كل منحى. فى حين يعرف جيدًا المتصفح لآراء أولئك الشباب أنه لا قدرات بن لادن التنظيمية - المشكوك فيها بعد كل هذا الحصار الاستخباراتى - ولا المدارس الإسلامية، ولا التبرعات «الإغاثية» لليتامى والمساكين - وإن ذهبت لأسر الشهداء - وإنما هو الإحساس بالظلم والانسحاق.. واليأس من عدل «الإمبراطور الجديد».

فهؤلاء الشباب يشاهدون يوميًا ما تفعله قوات الاحتلال الإسرائيلى فى المناطق التى هى قانونيًا محتلة منذ خمسة وثلاثين عامًا. ويعرفون أن واشنطن استخدمت الفيتو لصالح إسرائيل ٣١ مرة، وأن الأمريكيين الذين يتحدثون عن الإرهاب الفلسطينى أبطلوا قبل عام قرارًا لمجلس الأمن كان يقضى بإرسال قوات لحفظ «أمن الطرفين».

ويسمع أولئك الشباب جورج دبليو بوش يتحدث «كالقديسين» مؤكدًا أنه ذهب للعراق «لينزع أسلحة الدمار الشامل». ثم يفاجأون به يجهض محاولة فى مجلس الأمن لإصدار قرار بجعل منطقة الشرق الأوسط خالية من تلك النوعية من الأسلحة.

وغير ذلك كثير.. وكثير.. يعرفه بالتأكيد السادة فى واشنطن. فهل يقرأون فيه بعضًا من الإجابة على سؤال التايم.



نتفهم «الوصفة» الأمريكية.. ونحترم «أصداءها» فى صحافتنا العربية. ولكننا نعتقد فيما قلنا هنا مرارًا وتكرارًا من أن الضمان الوحيد لأمنك هو ألا يكون لك أعداء يكرهونك إلى درجة «الانتحار لإيذائك».

فى عالم له «حاكمٌ واحد».. يبدو أن الوصفة الوحيدة لأمن القوة العظمى «الوحيدة» هى تلك القادمة - ويا للمفارقة - من أعماق تراث المسلمين: «حكمتَ.. فعدلتَ.. فأمنتَ.. فنمتَ يا عمر».

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

فصول من سيرة التراب والنمل

حسين عبد العليم

القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٢، ٩٢ صفحة



ليس مهمًا التتابع الزمني، فالمؤلف اختار أن تمضي روايته على وتيرتها ووفق اختيارات شخوصها، متنقلة بلا تعسف عبر أكثر من نصف قرن من الزمان منذ السنوات الأولى للأربعينيات وحتى نهاية التسعينيات، متتبعة ما حل بأسرة الدكتور عزيز بشرى فانوس الذي ينتمي لأسرة من أعيان الصعيد، أو بالأحرى هكذا كانت زوجته التي رحلت عن الدنيا وتركت له ولدين هما فؤاد وفاروق، أولهما فوضوي دخل مع أبيه في مشاحنات مستمرة لمقاومة التراب والنمل، فيما تعوّد فاروق أن يفعل ذلك تلقائيًا.

يصير فؤاد طبيبًا للقلب، ويعمل فاروق مهندسًا ويقيم في لندن. اختيارات المؤلف دالة، فالفصل الذي يحمل عنوان العام ١٩٧٧، يقترن فيه غياب الأم والضغوط النفسية التي عانتها الأسرة وخصوصًا الدكتور عزيز، بزيارة السادات «التاريخية» للكنيست الإسرائيلي.

و«تحديدًا» من أيامها بدأ نظام البيت يختل، بدأ التراب والنمل يهاجمان كل شيء».

أي تراب؟ أي نمل؟ أي بيت؟

وفي الفصل الذي يحمل عنوان العام ١٩٤٠ يردنا المؤلف إلى سنة زواج الدكتور عزيز بالسيدة عايدة ولحظات الاكتشاف والانكشاف الأولى، وهوايات عايدة العجيبة وسعيها إلى إدخاله عالمها الخاص، واهتماماتها بصور الأميرات فوزية وفايزة وفايقة شقيقات الملك فاروق، وتشبيهها بالملكة فريدة التي كانت تهوى العزف على البيانو والرسم، ولابد أن نتوقع أن يلقي الفصل الذي يحمل عنوان العام ١٩٧٥ أضواء على حقبة الانفتاح وتأثيراتها وآثارها على أسرة الدكتور عزيز ومصر كلها، وتحول مدينة بورسعيد من رمز للنضال والكفاح ضد العدوان الثلاثي ١٩٥٦ «بورسعيد بورسعيد.. أنت معجزة الوجود.. في كفاحك المجيد».. كما كان يردد فاروق، إلى مدينة الشامبوهات والبارفانات والملابس المستوردة والتهريب والجينز.

من لندن حيث يدرس فاروق يرسل تهنئة إلى وصفي كمال ونادية فخري بمناسبة زواجها ومع التهنئة باقة الورد قصاصة: «ليس ثمة انتماء للوطن، الهم الوحيد والحقيقي أن يؤمن كل فرد نفسه ماديًا، أصبحت الأسرة بعد المال هي الحصن الرئيسي للفرد الذي لم يعد ينتمي للواقع بل لأسرته».

نحن الآن في العام ١٩٩٦، حيث تتضاءل قيمة الوطن وتتوارى قيم الولاء والانتماء أمام زحف الأنامالية الرهيبة والإحساس العارم بضيق المساحة التي يمثلها الوطن وضيق المعنى خصوصًا لدى أسرة قبطية تنهشها جلافة المتأسلمين من أمراء آخر الزمان.

ترد نادية على هجوم فاروق: طب انت عاوزنا نعمل إيه؟ نسرق والا نرتشي والا نشحت (...) ونتحمل إزاي الجلافة والفظاظة والسوقية اللي وصل ليها الناس.

فاروق لم يصدم بكلمات نادية، وإنما سرح في معانٍ وتواريخ بعيدة حين خرج مع الطلبة في انتفاضتهم في ١٩٧١ و١٩٧٢ يطالبون برد الاعتبار ومحو آثار هزيمة يونيو ١٩٦٧، ويغنون قصائد الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وعدلي فخري.

يذهب فاروق، المثالي عاشق تراب الوطن، ويبكيه فؤاد الذي ينهشه الإحساس الطاغي بالوحدة، وتبكيه نادية التي آثرت عليه عريسًا له أفكار عملية واقعية قابلة دومًا للتحقق، يتذكر الجميع أن ما حل بهم سببه ضياع الحلم، لم يعد هناك هدف للحياة، ضاع الحلم تمامًا كما ضاع فاروق وتركهم في ظلمات موحشة.

أما الدكتور عزيز فقد اختار أن يعتزل الحياة، ويعيش حنينه الدائم للماضي، يرفض بشدة الانتقال إلى أحد بيوت المسنين، وواجه عائلته بشجاعة وكان ذلك آخر ما قاله: دنيتي اللي مش عاجباكم أحسن من دنيتكم التافهة القذرة، راح في غيبوبة وعندما عاد إليه فؤاد، فوجئ به مستلقيًا على ظهره، صغيرًا كحجم الطفل ومئات من أسراب النمل تدخل وتخرج من فتحة أنفه وتدخل وتخرج من أذنيه وفمه، فادرك أنها النهاية.

الديمقراطية والتعددية

رفعت السعيد

القاهرة: الأمل للطباعة والنشر، ٢٠٠٣، ٣١٠ صفحات



يدرس المؤلف هنا، وهو المؤرخ الرئيسي للحركة الشيوعية المصرية، والأمين العام لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي، المسافة بين النظرية والتطبيق في مسألة الديمقراطية والتعددية في مصر، وهو يطرح في الصفحات الأولى من الكتاب رؤى مختلفة لمعنى الحرية والديمقراطية والتعددية، لكتاب وأكاديميين وفلاسفة غربيين وعرب، إذ يرى البعض أن التطور الديمقراطي الناجح يحتاج إلى مجتمع ناضج حديث ودولة قوية منفتحة، إذ يؤدي ضعف الدولة - برأي هذا البعض - إلى نزاعات أهلية وانقسامات تحيل المجتمع إلى فوضى، فيما يرى آخرون أن التطور الديمقراطي عملية سياسية اقتصادية ثقافية اجتماعية متكاملة الأبعاد تسهم فيها كل فئات المجتمع، فيما يرى فريق ثالث أن إطلاق الحريات وإفساح المجال للتعددية هو نقطة الانطلاق التي تأتي بعدها كل التحولات الأخرى.

وينبه المؤلف إلى أن كلمة ديمقراطية والتي تعني باليونانية حكم الشعب، كانت تستخدم كنوع من السخرية على هؤلاء الفقراء الذين يطمحون إلى مزاحمة الأرستقراطية على الحكم. وقد كانت الديمقراطية في أثينا تعني الحكم المباشر للعامة، بينما تعني الجمهورية الرومانية انتخاب العامة لمن يقودهم. وفي كل الأحوال لم تكن هذه الديمقراطية ممنوحة إلا للأحرار أو الأرستقراطيين أما الفقراء والعبيد فلا.

وفي حالة المجتمعات الإسلامية، فقد تطوع فقهاء السوء ونفر من رجال الدين إلى تزيين طريق الاستبداد للحاكم، والتراث الفقهي بل والشعري يحتشد بنماذج كثيرة.

ويتناسى هؤلاء النصوص الصحيحة التي تلزم الحاكم بالشورى والتي أجملت دون تفصيل، كما تعطي الناس الحق في اختيار النموذج الذي يصلح لمعاشهم.

ويتناول المؤلف فكرة الديمقراطية بين الماركسية كما طرحها ماركس، وكما طبقها السوفييت.

ويناقش في الفصل الثالث كيفية تطبيق فكرة الديمقراطية في مصر، بادئًا بخصوصية الأوضاع المحلية، ومصر بين الدستورية واللادستورية، وحكاية الـ ٥٠٪ عمالاً وفلاحين. ويتساءل عن معنى التعددية المقيدة بصعوبة الطريق نحو الديمقراطية، لكنه مع ذلك يراها جائزة تستحق عناء المحاولة ومكابدة التشريد والسجن والملاحقة، ويذكرنا بحكاية الخيط والعصفور، العصفور هو الشعب والخيط بين الحاكم يشده ويرخيه كيفما شاء فيتحكم في ارتقاء العصفور ومدى تحليقه، ويطالب بعكس الصورة، أي أن يكون الحاكم هو العصفور والخيط بيد الشعب، ويحلق الحكم وفق إرادة الشعب، ويتساءل: أليس هذا أوفق وأقرب إلى المنطق؟

نعم، ولكن، القوة الكامنة في جمل التخاطب اليومي وكيف يصبح المرء أكثر دقة من خلال التحدث الواعي

تأليف: ليليا كوني دي هان

تعريب: د. حسين عمران

الرياض: العبيكان، ٢٠٠٣، ١٧٦ صفحة



خمس عشرة جملة نستخدمها في كلِّ يوم، وليس في الإمكان الاستغناء عنها في خطابنا، إنها تؤثر تأثيرًا بالغًا في وعينا وفي حياتنا؛ إذ أن القوة الكامنة في هذه الجمل تحوّل ما يقال إلى عكس ما نحسّ به أو نريد الإفصاح عنه أكثر بكثير مما نظن.

فهذه المقولة: صحّتي جيّدة، لكن...، لا يمكن أن تعني أن صحة المرء جيدة، لأن كل ما يأتي بعد كلمة لكن، يجعل المقولة المعنية والإحساس الحقيقي في مهب الريح.

توضح ليليان كوني دي هان من خلال كثير من الأمثلة ومن تجاربها في عيادتها المتخصصة بالمعالجة النفسية، كيف نستطيع أن نعيد الثقة بأنفسنا بواسطة اللغة، ثم نصوغ حياتنا بصدق وإخلاص كبيرين.

إن من يحمّل نفسه الهموم، يبتدع لنفسه المشاكل. ولا يوجد طريق آخر، لكي يكوّن المرء الهموم لنفسه، غير ذلك، وهذه الطريق لن تؤدي إلى أية نتيجة، لأن الذي يُحمل نفسه الهموم، يفكر تفكيرًا سلبيًا بدلاً من الفعل الإيجابي، ويشل نفسه بنفسه. ومن يقل: أعتمد عليك.. «فسيلقى العجب العجاب، وذلك أن ما يفعله في الحقيقة، ليس أكثر من قوله: إنه يتخلى عن نفسه، وبخاصة عندما يحتاج إلى نفسه أشد الحاجة».

تعرض المؤلفة ليليا كوني دي هان في هذا الكتاب عن طريق خمسة عشر تعبيرًا من التعابير التي يستخدمها كل شخص في حديثه اليومي بصورة لاشعورية، كيف تؤثر هذه القوى الضمنية علينا وعلى الآخرين وكيف نستطيع تغييرها بسهولة.

تعرض المؤلفة هنا كثيرًا من الأمثلة المعاشة وتمارين عملية تعطي إرشادات ملموسة عن كيفية التوصل إلى الوعي الذاتي من خلال الكلام الواعي.

وليليا كوني دي هان تعمل في عيادتها المتخصصة للعلاج النفسي منذ خمس عشرة سنة مع مختلف أنواع البشر. ولقد نشأت فكرة هذا الكتاب من عمل المؤلفة مع الزبائن الذين اكتسبوا خبرات إيجابية من

التعامل الواعى مع هذه الجمل، وتوصلوا إلى تغييرات مذهلة فى حياتهم.

طورت ليليا كونى دى هان شكلاً جديدًا للمعالجة النفسية القصيرة بعد أن اتبعت مختلف أنواع التأهيل والتدريب فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى ألمانيا، وقامت بعده بافتتاح عيادة خاصة للمعالجة النفسية والتنويم المغناطيسى فى ميونيخ.

وفى السبعينيات من القرن العشرين قامت بعدة رحلات استكشافية إلى عدد من الدول والمناطق منها، نورستان فى أفغانستان، وزنسكار فى كشمير، والتبت. وعملت بعد ذلك فى مجال الصحافة، كما أمضت سنة فى الهند، وشاركت فى حلقات التأمل الذاتى ومجموعات التجربة الذاتية.

لقد اهتمت أيضًا بالطب البديل وطرائق المداواة غير التقليدية، وأمضت لهذا الغرض مدة أربع سنوات مع ابنتها الصغيرة ذات السنوات الأربع فى منطقة للهنود الحمر فى هويشول - سيرامادرى فى المكسيك، ونشرت سنة ١٩٨٠ كتابًا بعنوان «العرافة»، وفى سنة ١٩٨٩ «رُخص الأطباء الشعبيين»، ثم عملت ما بين ١٩٨١ - ١٩٨٩ فى معهد أبحاث التنويم المغناطيسى وبين سنوات ١٩٨٩ - ١٩٩٢ فى معهد المعالجة المتكاملة، كما تابعت اختصاصاتها فى معالجة «الجشتالت» Gestalt والسلوك، والمعالجة الأسرية المنهجية.

■

أبو همام شاعرًا

أحمد سيد شرقاوى

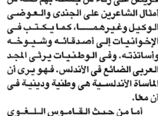
القاهرة: مكتبة النصر، ٢٠٠٣، ٤٠٥ صفحات



يعد عبداللطيف عبدالحليم (أبوهمام) واحدًا من الحرس القديم الأشداء على ناصية الشعر العربى العمودى بأوزانه وقوافيه، وهو إلى ذلك أستاذ جامعى شغل منصب وكيل كلية دار العلوم فى جامعة القاهرة، وعضو بالمجلس الأعلى للثقافة ولجانه، وله عديد من الدراسات النقدية المهمة.

أما فى الشعر، وهو مناط هذه الدراسة، فله فيه عدة دواوين منها «الخوف من المطر»، «لزوميات»، «هدير الصمت»، «مقام المنسرح»، «أغانى العاشق الأندلسى» و«زهرة النار».

ويلاحظ المؤلف أن المرأة شغلت مساحة واسعة من شعر «أبوهمام» وهو فى مناجاته لها شديد الاخلاص والوفاء، متكبر حينما يشتم منها رائحة الكذب والخداع، وهو فى قصائده عنها، يترفع عن الغزل الحسى والتعرض لمفاتن جسدها، وهى عنده مصدر من مصادر الإلهام والإبداع.



وإلى المرأة، فإن الرثائيات فى شعر «أبوهمام» تحتل جانبًا معتبرًا، وهو حريص على رثاء من جمعته بهم صلة من أمثال الشاعرين على الجندى والعوضى الوكيل وغيرهما، كما يكتب فى الإخوانيات إلى أصدقائه وشيوخه وأساتذته. وفى الوطنيات يرثى المجد العربى الضائع فى الأندلس. فهو يرى أن المأساة الأندلسية هى وطنية ودينية فى آن معًا.

أما من حيث القاموس اللغوى الخاص، فـ«أبوهمام» يختار من اللغة ما يعبر عن لسان حاله من مفردات وتراكيب، وينتقيها بشكل يميزه عن أقرانه من الشعراء المعاصرين، فتصبح هى والإيقاعات المداخل الكبرى لفهم شعره وتعمقه، والنظر إلى التشكيلات الفنية وتعامله مع اللغة، لا ينعزل عن تصوراته الأيديولوجية ورؤيته للثقافة العربية والتراث وكيفية التعامل معه. إلى ذلك يقدم المؤلف رؤية فنية لخصائص شعر أبوهمام والجماليات التى يقوم عليها من رمز وصور وتوازن ودلالات تركيبية ولغوية شديدة الخصوصية.

■

أساسيات تكنولوجيا المعلومات والاتصال والتوثيق الإعلامى

محمود علم الدين - محمد تيمور عبد الحسيب، ٢٠٠٣، ٣٩٦ صفحة



يتصدى الكتاب لمعالجة الجوانب المختلفة لثلاث من أهم الأدوات الأساسية التى يستخدمها الإعلامى فى مطلع الألفية الثالثة وهى المعلومات كمادة خام للعمل الإعلامى، وأساليب توثيق هذه المعلومات، ثم أخيرًا التقنيات الحديثة التى يتم من خلالها معالجة تلك المعلومات وتوصيلها وتبادلها خصوصًا مع التغيرات المتلاحقة التى تجرى فى هذا القطاع مع تطور وسائل الاتصال بصورة مطردة.

والكتاب الذى يأتى استكمالاً لجهد المؤلفين اللذين أصدرا من قبل «الحاسبات

مراجعة

عـــالـم واحـــد كـــالـبـــلـــد الـغـــريـــب

الاستشراق جنسيًا

تأليف: إرفين جميل شك

ترجمة: عدنان حسن

بيروت: دار قدمس للنشر، ٢٠٠٣، ٤٠٠ صفحة



لم يكف العالم عن أن يكون مسرحًا للغرب وميدانًا خصبًا لتمثيلاته، وتمثيلات الغرب للعالم هى تمثيلاته عن نفسه، مرآته التى لا ينى يُشظيها ويُدمى بها وجهه والعالم. وليست فكرة حاقدة أن يكون الغرب قدر العالم المشئوم بل ربما هى أدعى للابتسام، فما يحمل بين جنباته الموت يحمل الحياة أيضًا.

إذا لم يكن المكان هو الحيز المادى الموضوعى فقط، بل مضافًا إليه الخبرة البشرية التى تجعل منه فضاء اجتماعيًا، فإن الانزياح الغربى صوب العالم اللاأوروبى ما كان دون الاقتران بخبرة بشرية أوروبية تقتحم الفضاء الأصلى وتنزع فضاءها الخاص مستفيدة من الخلل الناتج فى توطيد فضاء استعمارى ينشر عباءته فوق البلد المستعمر من جهة ومن جهة ثانية فوق بلد المستعمر نفسه بما يضمن الولاء والاستمرارية لمنظومته السلطوية. وبذا تتحول الخريطة الجغرافية إلى شكل من أشكال التعبير عن القوة والسيطرة. فمن يحدد على خارطة العالم مساحة بيضاء، باعتبارها مجهولة، إنما يعقد العزم على اكتشافها وتجييرها لصالحه. ولن تكون الخطوط الوهمية للخارطة نفسها، التمثيلات على الورق، سوى التمزيقات الفعلية على الأرض، تمزيقات على صعيد الواقع وعلى صعيد الفضاء أيضًا. ومن هنا ينشأ صرح التباين الهائل بين الـ«هنا» والـ«هناك» وتمثل الجنسانية أحد أهم تعبيراته وأكثرها إضمارًا ومضمونية، كونها الأشد التصاقًا بالسياسى ودلالاته. إنها (أى الجنسانية) القادرة على تشريب المكان بالمعنى بما يكسبه دلالات رمزية تشكل واسطة التعرف به، وبما يتيح بناءه وإعادة إنتاجه اجتماعيًا عن طريق «أدوات واستراتيجيات يتم بها تكوين الفضاء كمكان» وهو الهاجس الأساسى الذى يشكل محور الكتاب وعقده الناظم.

سياسة الزمن

عمد علم الإناسة (الإثنوغرافيا)، إلى خلق فارق زمنى بين منتج الخطاب الإناسى (المستعمر) وبين موضوعه (المستعمر) بإحالته الموضوع (أى المستعمر) إلى زمن آخر مختلف وهو ما أسماه فابيان «سياسة الزمن». فمن غير الممكن تبعًا للفيزياء، وكذلك على ما يبدو للسياسة، أن يشغل جسمان حيزًا واحدًا من الفراغ فى نفس الزمن، ولذلك كان لابد من خلق هذا الفارق الزمنى المذكور والذى تم على أساسه إنشاء «مخطط وُضعت بموجبه ليس فقط ثقافات الماضى، بل كافة المجتمعات الحية، بشكل نهائى على منحدر زمنى، تيار الزمن، البعض فى أعلى المجرى، البعض الآخر فى أسفل المجرى».

وقد لاحظ «شك» عبر مسحه لمادة كتابه تكرارًا فى الموضوع لدرجة «تبعث على الغثيان» وكذلك لاحظ تناقضًا مذهلاً فى التوكيدات والأحكام المتعلقة بـ «اللاأوروبى». إذ تتقلب المرأة الشرقية فى مختلف الكتابات الغربية من رحلات وروايات وتقارير بين صفات القبح المفرط والجمال المذهل، القذارة الجسدية المشينة والاهتمام لدرجة الهوس بالنظافة، الشذوذ الجنسى والسوائية الجنسية، وهو تناقض لا يمكن تفسيره من وجهة النظر التى ترى فى تمثيلات الخطاب الاستعمارى كلاً متجانسًا لدرجة الاتساق، إذ أن التناقض الراسخ فيه ليس تعبيرًا عن تفكك وضعف بقدر ما هو تعبير عن قدرة على التكيف والتلاؤم. فطرفا التناقض معًا لا يعبران عن حقيقة المرأة الشرقية مثلاً، بل هما غير معنيين بذلك أصلاً، ولذلك لا يتنافيان، بل يتآزران ويتبادلان المواقع فى سياق التعبير عن واقع أوروبا وعن نظرتها إلى ذاتها من خلال إطلالتها التلصصية على الآخر و«أخرنته» (Othering).

كتاب «جميل شك» دعوة جدية للانفلات من أسر الـ«هنا» والـ«هناك»، الـ«نحن» والـ«هم»، أسرٌ ارتفعت أسواره عاليًا عبر مئات السنين من العمل الواعى وغير الواعى، فى ذات الوقت، على كذبة امتدت لترسخ وتطالب بأحقيتها كحقيقة. ولن تجد الكذبة، أية كذبة، ميدانًا أكثر رحابة من اللغة لتمارس فيه عنفها واستسلامها، قوتها وضعفها، نبلها وعهرها. لذلك كان الكتاب - حسب رغبة مؤلفه - دعوة لإطلاق بناءات تحررية وخلق بُنى مقاومة قادرة على إنشاء سرديات مختلفة يكون العالم على أساسها بلدًا للجميع، نقاط التمايز والخصوصيات القومية والثقافية فيه هى قنوات اتصال أكثر من كونها متاريس لحرب أبدية سخيفة.

محمد غيث الحاج حسين

(دمشق)

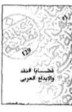
الإلكترونية وتكنولوجيا الاتصال» ١٩٩٦، و«المعلومات وتكنولوجيا الاتصال» ٢٠٠٢، وهو يتألف من أبواب أربعة، يعرض الأول فيها تحليلاً للمفاهيم والمصطلحات الأساسية للمعلومات، ويختص الباب الثاني بالتوثيق وتطبيقاته الإعلامية والنظام الكفء للمعلومات الصحفية، ويعرض الباب الثالث لتكنولوجيا المعلومات وأهم جوانبها وهي الحاسبات الإلكترونية وتكنولوجيا الاتصال وشبكة الإنترنت، ويخصص الباب الرابع لبعض الإشكاليات التي تثيرها التطورات الراهنة في تكنولوجيا المعلومات والاتصال.

■

قضايا النقد والإبداع العربي

سيد البحراوي

القاهرة: هيئة قصور الثقافة ٢٠٠٣، ٤٩٠ صفحة



وجوه عدة من أزمة النقد والإبداع والسينما والتشكيل يطرحها المؤلف عبر عدة عناوين رئيسية هي: في المنهجية النقدية، وجوه من أزمة المنهج في النقد العربي الحديث، وجوه من أزمة الإبداع، السينما، وعزل الفن التشكيلي.

وتحت العنوان الأول يتعرض لأزمة المصطلح النقدي التي يشكو منها النقاد والقراء على السواء، ويطرح لتجاوزها عدة نقاط، منها الاهتمام بالتأسيس النقدي في مراحل التعليم المختلفة وزيادة الوعي الفلسفي، والاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية، والعمل على إتقان اللغة العربية، وإنشاء مؤسسة عربية موحدة تكون مهمتها إنجاز ما يتفق عليه المختصون في الأقطار العربية من ترجمات.

والمؤلف لا يرى أملاً في تغيير قريب للواقع النقدي المأزوم، بل يرجح أن مزيدًا من التردي سيقع.. «لأن فريق الفكر النقدي مازال غير نقدي، ولن يستطيع بتكوينه الطبقي والذهني أن يحدث النقلة المطلوبة».

ويتناول المؤلف في دراسة مطولة التبعية الذهنية في النقد العربي الحديث في مصر طارحًا نماذج لأصحابها، ويشير إلى نتاجهم بوصفه ثمرة نقص حاد في القدرات الذاتية يقود إلى الاعتماد على إنتاج الغير دون وعي وبدرجة مريعة من الاستلاب.. «فممارسات الآخر (الأوروبي) كانت تحقق مزيجًا من القمع المادي والإبهار الذهني في ذات الوقت، سواء كانت هذه الممارسات على أرض الوطن أو على أرض الآخر» وفي حديثه عن أزمة الإبداع، وبعد سرد لنماذج من المبدعين الجادين المخلصين لشعوبهم المعبرين عن طموحات أوطانهم، مستندين إلى التراث الرسمي والشعبي فيما يبدعون من أمثال إميل حبيبي ورشيد بوجدره وجمال الغيطاني والطاهر وطار ويحيى الطاهر عبدالله وسعدالله ونوس والطيب الصديقي، فإنه يتساءل عما إذا كان بإمكان هؤلاء وأمثالهم أن يحققوا ما يريدون دون نهوض وطني تقدمي، يحقق الاستقلال والديمقراطية على المستويات المختلفة».

إلى ذلك يقدم المؤلف دراسة مهمة في مسرح سعدالله ونوس، ويرى قدرًا من عدم التجانس في بعض منظورات ونوس تجاه القضايا المختلفة، لكنه يشير إلى أن أعماله تبقى نصوصًا خالدة من أجمل نصوص المسرح العربي، بقدرتها على الغوص في تحولات النفس البشرية ومشكلاتها، كما يقدم دراسة في عزلة الفن التشكيلي والتي يرجعها في الأساس - إضافة إلى أسباب فرعية أخرى - إلى أن فنانينا لم يتوجهوا إلى الإنسان وإنما إلى نموذج الإنسان كما قدمته الحضارة الأوروبية، ويرى أن على الفنان أن يعيد النظر في توجهاته وفي عمله، باحثًا عن متلقيه الحقيقي لا المزيف.

■

الكون في قشرة جوز

ستيفن هوكنج

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٣، ٢٢٠ صفحة



المؤلف هو صاحب كتاب «تاريخ موجز للزمان» الذي ظل في قائمة أكثر الكتب مبيعًا بصحيفة «صانداي تايمز» لما يزيد على أربعة أعوام وهو يقترح على قارئه أن يبدأ بالفصلين الأولين بوصفهما أساسًا للفصول الخمسة التالية، التي بوسعه أن يتنقل بينها بعد ذلك بالترتيب الذي يراه.

يشرح المؤلف في الفصل الأول وعبر ملاحقة السيرة الذاتية للعالم الفيزيائي الحائز على جائزة نوبل (١٩٢١) «ألبرت إينشتين»، نظريتيه الأساسيتين: النسبية والكم، وفي الأولى دحض أينشتين الفكرة القائلة بوجود قيمة مطلقة تسمى الزمن تقيسها كل الساعات، وطرح بديلاً عنها فكرة الزمن الشخصي الذي يختلف من شخص لآخر، ويتفق هذا الزمن لدى فردين إذا كانا في وضع السكون أحدهما بالنسبة للآخر، لكن الزمن لن يتفق إذا كانا يتحركان، وبهذه النظرية التي برهنها بمعادلات رياضية عدة، دمر أينشتين مطلقين من مطلقات علم القرن التاسع عشر، وهما السكون المطلق الذي يمثله الأثير، والزمان المطلق أو الكلي الذي تقيسه الساعات كلها، وكالعادة، اكتسبت النظرية أبعادًا فلسفية إضافية، وتساءل كثيرون عما إذا كانت الأخلاق بدورها باتت نسبية وأنه لا توجد قيم أخلاقية مطلقة؟

لكن إحدى النتائج المهمة للنسبية كانت هي العلاقة بين الكتلة والطاقة، والتي صاغها أينشتين في معادلته المشهورة: الطاقة = الكتلة × مربع السرعة.

وبقدر إفادتها العلمية الكبيرة، بقدر نتائجها الرهيبة التي اتضحت في الحرب العالمية الثانية، إذ كان بين نتائج هذه المعادلة إدراك أنه إذا انشطرت نواة ذرة اليورانيوم إلى نواتين لهما كتلة إجمالية، فإن هذا سيطلق كمية هائلة من الطاقة، وكانت هذه الفكرة التي عجلت بمشروع مانهاتن الذي قاد إلى تصنيع القنبلتين اللتين انفجرتا فوق هيروشيما وناجازاكي في ١٩٤٥، وبرغم أن البعض يلقي باللائمة على أينشتين في هذا الصدد لاكتشافه العلاقة بين الكتلة والطاقة، فإن الثابت تاريخيًا أن أينشتين أصابه الروع عند إسقاط القنبلة الذرية.

ولم تتوافق نظرية النسبية مع نظرية الجاذبية مما دفع أينشتين إلى محاولة إيجاد علاقة بين الجاذبية وانحناء «الزمان» أي هندسة الزمان والمكان والتي غيرت كثيرًا من المفاهيم حول أصل ومصير الكون. وتعطي النظرية العامة للنسبية عند أينشتين شكلاً للزمان سعى هو إلى توفيقه مع نظريته الأخرى المهمة عن الكم، والتي يفيد ما طرحه ماكس بلانك وماكسويل في إيضاحها على نحو ما يرى المؤلف، كما يفيد كذلك في تفسيرها نظرية الأوتار الفائقة.

الفصول الخمسة التالية تفسر عديدًا من النظريات العلمية عن الكون ونشأته ومستقبله.

■

رام الله التي عشتها حصارا

خالد داود

القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٣، ١٧٢ صفحة



المؤلف هو مراسل جريدة الأهرام المصرية حاليًا في واشنطن، وكتابه تجربة ذاتية عاشها في مدينة رام الله بفلسطين لمدة سبعة أيام قبل عملية السور الواقي التي ابتدعتها حكومة إيريل شارون في ٢٩ مارس ٢٠٠٢، وكان شاهد عيان على الفظائع التي ارتكبها جيش الاحتلال الإسرائيلي والمجازر التي راح ضحيتها عشرات الفلسطينيين من الأبرياء، بينهم نساء وشيوخ وأطفال.

والكتاب إلى جانب كشفه لهذه المعاناة، يميط اللثام عن كذبه دولة إسرائيل الديمقراطية، والتي تشير إليها معاناة الباحثين عن الحقيقة من صحافيين وإعلاميين ومصورين لقنوات فضائية عربية وأجنبية، وحتى ممثلين لمؤسسات إغاثة وصحة دولية، عوملوا بوحشية وتم التعتيم عليهم كي لا يتمكنوا من نقل الفضائح التي تجري في فلسطين المحتلة على أيدي قوات الاحتلال، وهو ما يتأكد من كل سطر من سطور الكتاب.

■

المنهاج الإسلامي ومواجهة مشكلات البيئة

علي القماش

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣، ٣٠٠ صفحة



قضايا البيئة وتلوثها من المشكلات المستحدثة في المجتمع الدولي، وهي عنوان وحدة الكون ومشاركة دوله على اختلاف أنظمتها وشعوبها على تباين ثقافاتها وألسنتها في وحدة الهدف والمصير، وقد عنى الإسلام عقيدة وشريعة بقضايا البيئة، ودعا إلى حمايتها من التلوث وصيانة الطبيعة من الانهيار بفعل الملوثات الناتجة عن التقدم والمستحدثات.

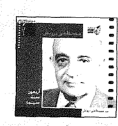
المؤلف يتناول المنهج الإسلامي المتكامل في التعامل مع قضايا البيئة ويشير إلى النصوص القرآنية التي تحض على التعامل الرشيد مع البيئة بكل أبعادها، فضلاً عن الأحاديث النبوية الشريفة التي تعاملت مع قضايا البيئة.

■

أربعون سنة سينما

مصطفى درويش

القاهرة: صندوق التنمية الثقافية (وزارة الثقافة)، ٢٠٠٣، ٢٧٠ صفحة



من منصة القضاء التي أنهى فيها حياته الوظيفية نائبًا لرئيس مجلس الدولة، انتقل المؤلف إلى قاعات العرض مديرًا لجهاز الرقابة سنوات طويلة، ثم ناقدًا يتابع السينما العربية والعالمية على مدى أربعين عامًا.

والكتاب صدر في مناسبة تكريمه من قبل المهرجان القومي التاسع للسينما المصرية ويضم عشرات المقالات والأبحاث والذكريات التي تحكي مسيرته السينمائية طوال عقود أربعة، وبين ما يكتبه المؤلف

حكايته مع الرقابة التى انتدب إليها فى بادئ الأمر من مجلس الدولة، ثم حكايته مع «التنظيم الطليعى»، وهو كيان سياسى سرى أنشئ فى العهد الناصرى، ممثلاً - بدرجة ما - لأداء التنظيم السياسى الوحيد الذى كان موجودا فى ذلك الوقت (الاتحاد الاشتراكى) ثم علاقته بالوزير الذى ينسب إليه فضل إنشاء العديد من المؤسسات الثقافية والفنية ذات الشأن فى مصر فى حقبتى الخمسينيات والستينيات، والتى مازالت شواهدها قائمة حتى اليوم، واتهامه بالتخابر لحساب الأمريكيين والإفراج عنه بعد ثبوت زيف الاتهام.

ويتابع المؤلف فى مختاراته حال السينما العربية والأجنبية، متناولاً حكاية الصهيونية فى السينما، والمرأة فى السينما العربية، والسينما بين أزمة النقد ونوم العقل، والسينما بين الاقتباس والابتكار وحكاية المهرجانات والمعايير الفاسدة التى تحكم الجوائز التى يحصدها النجوم، وعشرات الموضوعات الأخرى.

■

الديمقراطية (دورية)

هالة مصطفى (رئيس التحرير)

القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٣، ٢٦٥ صفحة



إلى جانب متابعته لحالة الديمقراطية فى العالم، عبر تغطيات للانتخابات فى كوريا الجنوبية وكينيا وجيبوتى وإسرائيل وسورية، ودراسات عن المستقبل السياسى لعراق ما بعد صدام والعلاقات بين شمال السودان وجنوبه، ومستقبل العلمانية فى تركيا وتوصيف للعلاقة بين الحركة الإسلامية والديمقراطية مع التركيز على التجربة المصرية فى ربع القرن الأخير.

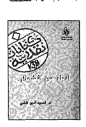
إلى ذلك كله تطرح هذه الدورية المعنية بالديمقراطية أساسا ملفا مهما عن الليبرالية ومستقبل الديمقراطية فى الوطن العربى، فيكتب فؤاد زكريا عن الليبرالية من زاوية فلسفية. ويتساءل حازم الببلاوى عن مستقبل الديمقراطية فى مصر، ويكتب سيد القمنى عن أزمة الديمقراطية بين المقدس والسلطان، ويرسم سعيد إسماعيل على الطريق إلى تربية النشء على الثقافة الليبرالية، ويدرس جهاد عودة حال المرأة عضو الجماعات الإسلامية، كما يضم الملف دراسات أخرى عن الفكر الليبرالى والمنطلقات الاجتماعية والخطاب الليبرالى عند أحمد لطفى السيد وتقييما لبعض التجارب الليبرالية.

■

أدباء من الشمال

السيد أمين شلبى

القاهرة: هيئة قصور الثقافة (كتابات نقدية)، ٢٠٠٣، ٢٤٠ صفحة



برغم اهتمامه الأصيل بالشئون السياسية وعمله لسنوات فى السلك الدبلوماسى المصرى، فإن المؤلف معنى بشئون الفكر والثقافة والإبداع، وقد أتاح له العمل القنصلى الاطلاع على أعمال إبداعية لمبدعين كبار فى البلاد التى عمل بها، وهو هنا يقدم خمسة من أعلام أدباء الشمال: هنريك إبسن، كنوت همسن، أوجست ستريندبرج، هانز كريستيان آندرسون وسيجريد آنرست، وجميعهم - باستثناء الكاتب المسرحى النرويجى هنريك إبسن - ليسوا معروفين لقراء العربية.

وهو لا يكتفى بنتاجهم الأدبى وأثره فى الإبداع والفكر العالمى، وإنما يغوص فى حياتهم كاشفا عن تناقضات وانعطافات كانت لها تأثيرات بالغة على مسيرة كل منهم.

■

أم كلثوم فى الأدب المصرى

مصطفى بيومى

القاهرة: دار الهدى، ٢٠٠٣، ١٢٠ صفحة



مثلت أم كلثوم حالة فنية خاصة ارتبط بها وجدان الشعب العربى من المحيط إلى الخليج على مدى أكثر من نصف قرن، وهى لم تغب عن صفحات الأدب، فظهرت بوضوح فى أعمال عدد من المبدعين العرب الكبار، وبين هؤلاء نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس وفتحى غانم ويوسف إدريس وبهاء طاهر وصنع الله إبراهيم وجمال الغيطانى وعلاء الديب.

وهى تظهر عند محفوظ فى أعمال عديدة منها المرايا، قصر الشوق، خان الخليلى، السكرية، ميرامار، والسراب وغيرها، بوصفها جزءا من نسيج الشخوص ورافدا أصيلا فى مخزن الذكريات.

بهذه الطريقة يتابع المؤلف ظهور أم كلثوم فى الأعمال الروائية لهؤلاء المبدعين، سواء بوصفها صاحبة مكانة راسخة فى قمة الغناء المصرى وصاحبة تأثير مدوٍّ على قطاعات مختلفة ومتنوعة فى الواقع المصرى كما فى رواية الشوارع الخلفية لعبدالرحمن الشرقاوى، أو بوصفها جزءا من واقع الحياة الفنية والاجتماعية وتعبيرا عن انتماء طبقى بدرجة ما كما تتبدى فى روايات وقصص إحسان عبدالقدوس، أو كجزء من منظومة فنية متنوعة الأطراف وتعبيرا عن حالات نفسية للسجناء كما فى رواية «شرف» لصنع الله إبراهيم، أو تحولها إلى مجرد مركز تجارى ليس أكثر فى عيون الانفتاحيين كما فى رواية «ذات».

وهكذا وجدت أم كلثوم وتمت صياغتها فى هذه الأعمال الأدبية وغيرها مما يشير إليه المؤلف تعبيرا عن حالة أو تأكيدا لفكرة يطرحها.

■

الأجهزة السرية فى المغرب

أحمد نجارى

المغرب: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٣، ٢٣١ صفحة



كان كتاب مليكة أوفقير «السجينة»، صرخة مدوية ضد غشامة نظام ملكى فاسد، لا يتورع عن التنكيل بخصومه أو من يظن أنهم كذلك، ويلاحق أسرهم انتقاما من عوائلهم الذين تجرأوا وأعلنوا العصيان والمقاومة. فابنة رجل المغرب القوى الجنرال محمد أوفقير، الذى كان وزيرا للدفاع وواحدا من أصدقاء الملك الحسن الثانى المقربين، والذى دفع حياته ثمنا لمحاولة انقلاب فاشلة جرت فى قصر الصخيرات عام ١٩٧٢، والذى كان قبضة الملك الباطشة بخصومه فى وقت من الأوقات. روت فى الكتاب ما جرى لها هى وأخواتها الخمسة فى سجون الملك طيلة عشرين عاما، ومحاولاتهم الفاشلة المتكررة للانتحار، إلى أن استيقظت فيهم إرادة الحياة وقرروا أن يتحدوا جلاديهم، وتمكنوا من الهروب بحفر نفق أسفل السجن ثم فروا إلى فرنسا.

وقد شجعت هذه السيرة بما حققته من انتشار وردود أفعال هائلة فى أوروبا الأم «فاطمة» أن تحذو حذو ابنتها، فأخرجت هى الأخرى كتابا تروى فيه سيرتها وحكاياتها مع الملك وزوجها الجنرال. ومأساتها بين الاثنين.

وقد شجع الكشف عن هذه الأسرار، ومناخ الحرية النسبى الذى تعيشه المغرب اليوم مؤلف الكتاب وهو واحد من رجال المخابرات المغربية أن يدلى بدلوه فى واحدة من أخطر وأهم قضايا الاغتيال التى شهدتها المغرب والتى راح ضحيتها واحد من المناضلين البارزين فى دول العالم الثالث، وفضلاً عن تاريخه النضالى اليسارى الساطع، فقد كان المهدى بن بركة هو أستاذ الرياضيات الذى اعترف الملك بفضله عليه، قبل أن يأمر باختطافه وقتله فى فيلا فونتناى لوفيكونت بباريس فى أكتوبر ١٩٦٥، وهى الوقائع التى يكشفها المؤلف بعد ٣٧ عاما من الجريمة.

لكن المؤلف لا يكتفى برواية بن بركة، وهى بذاتها دالة وبالغة التأثير، لكنه كعضو سابق فى جهاز المخابرات المغربى، يلقى أضواء كاشفة على الأجهزة السرية فى بلاده، وعلاقتها بالموساد وبالمخابرات المركزية الأمريكية.

وقد بدأت عملية التصفية باكرا جدا وفى أعقاب حصول المغرب على استقلاله فى أواسط الخمسينيات، إذ رفض كثير من المقاومين وأعضاء جيش التحرير الوطنى وضع السلاح والخضوع للملك برغم محاولاته استمالتهم، بتوزيع رخص النقل وبيع الخمور وفتح الحانات ومنح بعضهم مراتب سامية فى الجيش وخارجه. وكانت النتيجة الحتمية هى فتح باب التصفيات الجسدية على مصراعيه، وبحسب المؤلف فإن نحو ٨٠٠ مناضل قديم قتلوا خلال السنوات الأخيرة من الخمسينيات. وطالت التصفيات أناسا عاديين روى عنهم أنهم «شتموا» الملك أو ذكروه بسوء، وهى جريمة يعاقب عليها القانون، فالملك بحسب الدستور مقدس، ومن ١٩٦٠ إلى ١٩٧٣ طالت الملاحقات مواطنين لا علاقة لهم بالسياسة... «انتزعوا من عائلاتهم وقتلوا بدعوى تواجدهم مع مشتبه فيه أو لتشابه بسيط فى الاسم مع مناضل مبحوث عنه».

ويشير المؤلف إلى الروابط الوثيقة التى جمعت بين تل أبيب والرباط منذ تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. ويؤكد أن هذه الروابط تدعمت مع مرور الوقت بعد الاستقلال، وتمكن مبعوثو الموساد من اختراق «الدوائر الأكثر سمواً فى النظام»، وسقوط عشرات من السياسيين ومساعدى الملك وممثلى البرجوازية الكبيرة فى «دائرة تأثير المصلحة السرية الإسرائيلية».

وقد عمل «خبراء» الموساد والـ CIA معا على تصحيح الأمن السياسى المغربى ووضع خطط تطويره لضمان حفظ النظام الملكى وملاحقة معارضيه، وقد عملت الموساد على تنظيم الهجرة السرية لنحو ٢٥٠ ألفا من اليهود المغاربة إلى إسرائيل، وحصل رجال كبار فى الدولة كان منهم أوفقير نفسه على ملايين الدولارات نظير تقديم هذه الخدمات، التى ارتبطت بعمليات فساد كبيرة ودعارة مورست على نطاق واسع.

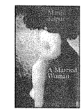
ما رواه المؤلف عن الأجهزة السرية فى المغرب، يشير إلى جريمة غياب الديمقراطية والرقابة والمحاسبة فى كل الأقطار العربية، التى تزخر نظمها بحكايات من القصص المشابهة. بعضها يكشف عنه بالصدفة، وبعضها تلوكه ألسنة الخوف دون قدرة على المجاهرة وأكثره مازال طى الكتمان.

■

A Married Woman

(سيدة متزوجة)

ManJu Kapur
10.99Faber, 2003, 310PP,



مؤلفة هذه الرواية هندية تتحدث فيها عن زوجة هندية عادية ودخولها معترك الحياة مع زوجها وأسرتها بعد أن تربت في أسرة تقليدية، إن هذه الزوجة تمثل الهند بصفاتها المعروفة وفي مقدمتها الصبر والتسامح والحب والشعور بالانسحاب أو الإحجام. فقد تزوجت هذه الشابة الهندية من رجل هندي مناسب طموح حاصل على درجة علمية من الولايات المتحدة وتتناول الرواية رحلة هذه السيدة منذ كانت فتاة لا تحمل أي مسئولية إلى زوجة أدركت مشكلات الحياة وتحاول أن تكون زوجة وأمًا وتعيش في أسرة أكبر. وتسير الرواية إلى أن هذه الزوجة كانت بمثابة بارومتر للتغيير الاجتماعي في الهند فقد أدركت أن العاصمة دلهي لم تعد مدينة الحدائق والهواء النقي بل تحولت إلى مدينة مزدحمة وغابة في الضوضاء والصراعات الاجتماعية والسياسية. وشهدت هذه الزوجة أيضًا تصاعد القوة الاقتصادية الأمريكية في بلادها بعد أن كانت بريطانيا هي القوة الأساسية في الهند.

من خلال الرواية تبدي البطلة آراء كثيرة حول الطعام والملابس والعواطف ومدى تغيرها في الهند اليوم. إن هناك أمورًا كثيرة تغيرت في الهند يمكن للقارئ أن يدركها من خلال قراءة تلك الرواية التي حظيت باهتمام كبير في بريطانيا.

Emma's War: Love, Betrayal, and Death in the Sudan

(حرب إيما: الحرب والخيانة والموت في السودان)

Deborah Scroggins
Harper collins, 2003, 220PP.,
17.99



هذا الكتاب يعالج قضية يمكن اختزالها في أنها علاقة العالم الغني بالعالم الثالث.. عالم الوفرة بعالم الحرب والمجاعة واللاجئين ومع ذلك فهو يعالج قضية شخصية. إنه يتحدث عن قصة المغامرة البريطانية إيما ماكوين الشابة الرومانسية الجميلة العملية في السودان. وقد ولدت إيما في الهند عام ١٩٦٤ وعادت لتتلقى تعليمها الجامعي في إنجلترا وفي أكسفورد اكتشفت أفريقيا من خلال الوقوع في حب الأفارقة وبدأت تهتم بالقصص المروعة عن الحروب الأهلية والمجاعات والعبودية في أفريقيا خاصة في أوغندا والسودان. وحصلت إيما على وظيفة في منظمة خيرية صغيرة تسمى منظمة أطفال الشوارع الدولية في جنوب السودان. ومعظم الكتاب يتناول الأعمال التي قامت بها إيما في جنوب السودان ودفاعها عن الجنوب السوداني ثم وقوعها في حب ريك مشار أحد قادة التمرد في جنوب السودان. لقد تزوجته رغم أنه متزوج.

ورغم أن مشار تحول إلى متمرد لا يتورع عن استخدام أبشع الأساليب ضد خصومه إلا أن إيما دافعت عنه. وأصبحت لا تطيق أحدًا يهاجمه وأبلغت أصدقاءها البريطانيين أنها أصبحت سودانية.. لقد دخلت إيما طرفًا في الحرب الأهلية في السودان. ثم وقعت حادثة مفجعة لإيما وهي حادثة سيارة ماتت على أثرها.. وشيع جنازتها آلاف السودانيين. وتزوج مشار زوجة بيضاء أخرى واستمرت الحرب تحصد مئات الآلاف. وكانت إيما نقطة في بحرها.

70 Not Out

(في السبعين ولم ينته)

William Hall
Blake Publishing, 2003, 304PP.,
16.99

يتناول هذا الكتاب حياة الممثل البريطاني «الهوليوودي» الشهير مايكل كين الذي بلغ السبعين من عمره هذا العام وهو الممثل الذي فاز بالأوسكار ومنحته الملكة اليزابيث ملكة بريطانيا لقب فارس كما فاز بجوائز أخرى عديدة.

وهو يتحدث عن حياة مايكل كين منذ ولد في جنوب شرق لندن عام ١٩٣٣ ورغبته الشديدة منذ الصغر في أن يكون صاحب ثروة، الأمر الذي جعله في بداية حياته السينمائية يقبل أدوارًا لم يعد يمكنه الدفاع عنها لكن سرعان ما حقق النجاح الأدبي والمادي. ويتوقف المؤلف عند نقطة خاصة بعلاقة كين بمسقط رأسه بريطانيا، فقد شن هجومًا على البريطانيين ووصفهم بأنهم أمة من الخاسرين وأنهم يكرهونه لأنه ناجح. وقال إنه رغم فوزه بالأوسكار فإن النقاد البريطانيين سنوا سكاكينهم لذبحه!

Adventures and Exiles.. The Great Scottish Exodus

(مغامرون ومنافي.. الخروج الإسكتلندي الكبير)

Marjory Harper
25.00Profile , 2003, 384PP.,





كثيرة هي الكتب التي تحدثت عن الهجرات الأيرلندية إلى العالم الجديد، إلا أن هذا الكتاب يتحدث عن هجرات كبيرة أخرى للإسكتلنديين الذين عاشوا معززين مكرمين في بلادهم بعكس الأيرلنديين في القرون القليلة الماضية. ويشير الكتاب إلى أنه منذ بداية القرن السابع عشر بدأت رحلة الخروج الإسكتلندية من الجزر البريطانية وفي القرن التاسع عشر وحده هاجر ما لا يقل عن مليوني إسكتلندي من بلادهم. ومع أن الأيرلنديين يحتلون بلا منازع المركز الأول في الهجرة إلا أن الإسكتلنديين يتفوقون على الإنجليز في حب الهجرة إلى بلاد جديدة وعوالم أخرى.

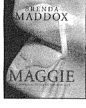
وقد حاول المؤرخون أن يتعرفوا على الأسباب الحقيقية وراء هذا الخروج الإسكتلندي وقال بعضهم إن الخروج كان إجباريًا وليس اختياريًا، فالظروف الاقتصادية حتمت هذه الهجرة فقد تطلع الإسكتلنديون إلى العالم الجديد ذي الوفرة والغنى والمرتبات العالية.

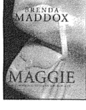
لقد كان الاسكتلنديون يهاجرون مدفوعين بحلم أن يصبحوا أغنياء مثل أبناء جلدتهم الذين سبقوهم. ويورد الكتاب أمثلة كثيرة لهجرات إلى أمريكا وأستراليا وغيرها من دول العالم الجديد. وقد نقل الإسكتلنديون عاداتهم وتقاليدهم إلى العالم الجديد إلا أن أهم ما نقلوه كما يقول المؤلف هو حبهم للمساواة وتطلعهم إلى الحرية.

Maggie: The First Lady

(ماجي: السيدة الأولى)

Grenda Maddox
17.99Fodder, 2003, 288PP.,





باستثناء ونستون تشرشل ليس هناك سياسي بريطاني في القرن العشرين أشهر من مارجريت تاتشر، فقد حكمت تلك السيدة التي اشتهرت باسم السيدة الحديدية بريطانيا من ١٩٧٩ حتى ١٩٩٠ وأشاعت في العالم مذهب الليبرالية الجديدة بالمشاركة مع الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان. ورغم استقالتها المذلة التي أجبرها عليها كبار حزب المحافظين البريطاني الحاكم آنذاك، والتي كانت هي أول من أخذ بأيديهم إلى السلطة، فإن تاتشر لازالت لها كلمة في حزب المحافظين، بل إن أي تصريح سياسي لا يحتل حيزًا معتبرًا في الصفحات الأولى من الصحف العالمية. وهذا الكتاب وضعته مؤلفته لكي يتحول إلى برنامج وثائقي تليفزيوني من أربعة أجزاء بثته شبكة «آي تي في» البريطانية مؤخرًا ويتناول الكتاب والبرنامج سيرة حياة مارجريت تاتشر ابنة البقال التي دخلت جامعة أكسفورد ودرست العلوم، ثم تحولت بعد سنوات قليلة (في الخمسينيات) إلى السياسة ثم أصبحت عضوًا في مجلس العموم ثم واصلت صعودها السياسي الصاروخي لتصبح وزيرة للتعليم في أوائل السبعينيات إلى أن انتزعت زعامة الحزب من إدوارد هيث ثم فازت بالانتخابات العامة عام ١٩٧٩.

كما يتحدث الكتاب عن زواجها عام ١٩٥١ من دينس تاتشر الذي أخذت منه لقبها لكنها طغت عليه وأصبح زوج السيدة ويكشف عن مدى استياء دينس من انشغال زوجته الشديد بالسياسة على حساب الاهتمام الشخصي به.

Blood Against The Snows

(جرائم ضد الثلوج)

Jonathan Gregson
Fourth Estate, 2003, 240PP.,
8.99

مملكة نيبال القريبة جغرافيًا من الهند معروفة على مدى تاريخها بمزاج القصر لكن الأحداث التي وقعت في أول يونيو ٢٠٠١ لم يتخيلها أحد. فقد قام الأمير ديباندرا ولي العهد بإطلاق النار على ٩ من أعضاء الأسرة المالكة فأرداهم قتلى بمن فيهم والده وشقيقه ثم استدار وقتل نفسه.

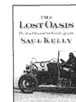
وقد وصل مؤلف هذا الكتاب إلى العاصمة كاتماندو بعد أيام قليلة من الحادث المفجع وحاول أن يرسم صورة قلمية للظروف التي أدت إلى وقوع الكارثة. والنتيجة هذا الكتاب الذي يمزج بين البحث العلمي والتحدي الصحفي والعودة للتاريخ. ويشير المؤلف إلى أنه منذ أعلن ناريان شاه نفسه ملكًا على نيبال عام ١٧٦٩ فإن سفك الدماء والصراع أصبح من سمات هذه المملكة فهناك الامتثال الداخلي والتآمر والنفي.

وعودة إلى الأحداث الغربية. يقول المؤلف إنه بحلول تسعينيات القرن العشرين سارع الملك بيرندرا بالتحول إلى الديمقراطية التعددية والملكية الدستورية بعد أن كان الملك يقترب من الآلهة إلا أن ذلك أشعر ابنه الأمير ديباندرا، الذى تلقى تعليمه فى أشهر مدارس إنجلترا (ايتون) بالإحباط وأن دوره كملك فى الانتظار تحول إلى مراسم بروتوكولية من استقبالات وزيارات. إلا أن الكتاب يشير إلى أن دوافع القتل قد تكون أكثر تعقيدًا من ذلك وهناك من يقول إن السبب الحقيقى هو رفض والدته الملكة أن يتزوج من المرأة التى يحبها.

The Lost Oasis: The Desert War and the Hunt for Zerzura: The True Story Behind (The English Patient)

(الواحة المفقودة: حرب الصحراء والبحث عن زرزورة: القصة الحقيقية وراء «المريض الإنجليزى»)

Saul Kelly
Westview, 2003, 312PP., $26.00



منذ سنوات قليلة، ظهرت رواية «المريض الإنجليزى» فأحدثت ضجة أدبية بفوزها بجائزة «بوكر» البريطانية، ثم أحدثت نفس القصة التى تدور أحداثها فى صحراء مصر الغربية ضجة سينمائية بتحولها إلى فيلم سينمائى بعنوان «المريض الإنجليزى» حصد عددًا من جوائز «الأوسكار» الأمريكية. هذا الكتاب لا يتحدث عن الرواية الخيالية التى نسجها المؤلف وإنما يتحدث عن القصة الحقيقية وراء الرواية، والتى كان لها دور مهم فى تاريخ الحرب العالمية الثانية.

يؤكد الكتاب على أن بطل الرواية المستكشف المجرى لاديسلاوس دالماسى كان شخصية حقيقية (سمى مطار الماظة على اسمه). وكان الماسى ضمن عدد كبير من المستكشفين الأوروبيين المبهورين بالصحراء الليبية وألغازها، وفى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية كان أهم لغز هو لغز واحة زرزورة التى حاول الماسى الوصول إليها. بل كان هناك ناد للمستكشفين كما يبين الكتاب يسمى «نادى زرزورة»، ولكن بعد إعلان الحرب تحولت القصة من قصة مغامرة واستكشاف إلى قصة عسكرية وجاسوسية. فقد عمل أعضاء هذا النادى كل حسب معسكره السياسى، وكان الماسى ضمن الجيش الألمانى فى أفريقيا واستغل معلوماته عن المنطقة فى الخطط العسكرية وفى التمويه على الأعداء. ويبين الكتاب

كيف استطاع المستكشفون البريطانيون مساعدة جيش مونتجمرى فى حسم معركة العلمين الشهيرة التى غيرت مجرى الحرب العالمية الثانية.

Ungrateful Daughters.. The Stuart Princesses who Stole Their Father's Crown

(بنات جاحدات.. أميرات ستيوارت اللاتى سرقن عرش أبيهن)

Maureen Waler
8.99London, Sceptre, 2003,



فى عام ١٦٨٥ وعقب وفاة تشارلز الثانى تولى أخوه الكاثوليكى جيمس عرش إنجلترا. وبعد ٣ سنوات فقط كان جيمس فى طريقه إلى المنفى فى فرنسا بعد أن أصبح وليام أوف أورانج ملكًا. وقد لعبت ابنتا الملك جيمس أدوارًا بارزة فى هذا الانقلاب الكبير بكل المقاييس. وقد اختارت مارى أن تخلع أباها وتنضم إلى وليام، الذى تزوجته، والكنيسة الإنجليكانية بعد أن حاول جيمس إحياء الكاثوليكية فى إنجلترا.

ومن جانبها، عملت الأميرة آن، التى خلفت وليام فى العرش، أن تنشر الشائعات والنمائم حول والدها بل إنها تخلت عنه فى لحظاته التى كان فى أمس الحاجة إلى مساندة بناته.

ويتناول الكتاب تأثير الدين فى هذا العصر الذى شهد صراعات ومعارك دموية راح فيها مئات الآلاف بسبب الانتماء الدينى.

Putin's Russia

(روسيا بوتين)

Lilia Shevtsova
Camegie. Endowment, 2003,
14.75298PP.,



روسيا اليوم محكومة، كما تقول المؤلفة من جانب رجل بارد العيون وصاحب ماض فى جهاز المخابرات السوفيتية السابق كى جى بى. وكل ما كان يعرفه العالم عن فلاديمير بوتين رئيس روسيا لدى توليه السلطة فى عام ١٩٩٩، أنه الرجل الذى دفع روسيا إلى حرب جديدة فى الشيشان وأنه مؤمن بضرورة أن يعود النظام الصارم إلى روسيا التى تكاد الفوضى أن تدمرها.

وتقوم المؤلفة خلال صفحات الكتاب بعمل يوميات سياسية للعامين الأولين من حكم بوتين حيث تتبعت عناوين الأحداث وقامت بتحليلها وإبداء الرأى فيها. ومثل معظم الليبراليين الروس، تبدو المؤلفة متشككة بشأن بوتين إلا أنها أظهرت دعمًا لسياسته الخارجية بعد ١١ سبتمبر عندما أدت سياسات بوتين الداعمة لواشنطن إلى فتح نادى السبعة الكبار لعضوية روسية ليصبح نادى الثمانية الكبار.

وتعتقد المؤلفة أن التحدى الأكبر الذى يواجه بوتين هو أن يجعل روسيا تقاوم رغبتها التاريخية الطويلة فى شخصنة السلطة وإسنادها إلى رجل واحد.. فهل يجرؤ بوتين؟ مع الملاحظة أن خصومه يتهمونه بتركيز السلطة بين يديه.

Fashion Victim: Our Love-Hate Relationship with Dressing, Shopping and the Cost of Style

(ضحية الموضة: الحب والكراهية فى علاقتنا بالملابس والتسوق وثمن المظهر)

Michelle Lee
Broadway Books, 2003



تسلط المؤلفة الضوء على ظاهرة سلاسل محلات الملابس التى تنشر فروعها فى أنحاء العالم، وتلقبها بظاهرة الماك ـ موضة! فعلى نفس طريقة سلسلة مطاعم ماكدونالدز التى تقدم نفس الوجبة فى أركان معظم مدن العالم، تقدم السلاسل الضخمة لمحلات الملابس الشهيرة ذوقًا موحدًا وقطع ملابس متماثلة فى مئات الفروع حول العالم. ويؤدى هذا النمط من بيع الملابس إلى عدة مشكلات تتناولها المؤلفة فى كتابها من ضمنها التجانس المخيف فى الزى الذى تخلقه بين أفراد العالم. فعلى الرغم من أن الإنسان يميل إلى التميز والتفرد إلا أنه يحب درجة من التجانس والانتماء للجماعة، الأمر الذى يتحقق إلى حد بعيد جدًا بفضل هذه المحلات التى تبيع سلعًا متطابقة فى أرجاء المعمورة. كذلك تقوم فلسفة هذه المتاجر على تغذية نزعة الاستهلاك السريع والمتكرر والذى يصل إلى مراحل الإدمان. حيث تعمل هذه المتاجر على تغيير الموضة بشكل سريع يجعل من الملابس التى تباع فى شهر باعثة للملل ومتأخرة بعد ثلاثة شهور. وبالتالى تقوم دورات قصيرة وسريعة من الشراء والإلقاء تمامًا مثل مرض البوليميا الذى يصيب بعض الناس من جراء الشراهة فى استهلاك الطعام ثم التخلص منه بالقىء من أجل استهلاك المزيد مرة أخرى.

Letters to a Young Activist

(رسائل إلى ناشط شاب)

Todd Gitlin
Basic Books, 2003, 192PP.,
$ 22.50



يعمل المؤلف أستاذًا للثقافة والصحافة وعلم الاجتماع بجامعتى نيويورك وكاليفورنيا، كما كان رئيسًا لحركة الطلاب الأمريكية التى اشتهرت فى الستينيات باسم «طلاب من أجل مجتمع ديمقراطى».

فى هذا الكتاب يستحضر المؤلف روح النشاط السياسى والاجتماعى التى ميزت شباب الستينيات، ويوجه نصائحه للجيل الجديد لكى يستكمل النضال بالشكل السليم. فهو يشجع شباب النشطاء على التركيز على الليبرالية، باعتبار أن المحافظة تعنى عدم التغيير ولو كان إلى الأفضل.

وهو ينصحهم بالتحلى بالنزاهة والعمق التاريخى والإيمان ويركز على الجمع بين المثالية والواقعية، وبين حب الوطن والإصرار على تحقيق العدالة الاجتماعية. وفى النهاية بين الناشط المخضرم كيف أن الحركات الاجتماعية لا تستمر إلا بقدر كبير من الإخلاص والالتزام.

The Clinton Wars

(حروب كلينتون)

Sidney Blumenthal
Farrar, Straus, & Giroux, 2003,
822PP.,$30.00



المذكرات الشخصية لسيدنى بلومنتال، أحد أهم مستشارى الرئيس كلينتون فى فترته الرئاسية الثانية. فهو كان يمثل «الفارس الأول» فى بلاط كلينتون إن جاز التعبير، وكان مسئولاً عن كتابة خطب رئاسية ومذكرات سياسية مهمة.

تتغنى مذكراته بعهد كلينتون الذى يشبهه بعهد الرئيس فرانكلين روزفيلت،

الذى طغى بظلاله على كل الرؤساء الذين جاءوا من بعده. كما يشبه السيدة هيلارى كلينتون بأن دورها كان مماثلاً لدور روبرت كيندى أثناء رئاسة جون كيندى، وأنه يفوق دور أى سيدة أولى أخرى فى تاريخ أمريكا.

تمر المذكرات على جميع المحطات الرئيسية فى عهد كلينتون من فضيحة وايت ووتر إلى مونيكا لوينسكى وغيرها من الحروب والتحديات التى واجهته مع المحافظين.

Jennifer Government: (A Novel)

(جنيفر حكومة «رواية»)

Max Barry
Doubleday, 2003, 336PP.,
$19.95



رواية خيالية سياسية، من نوعية المستقبل القريب. تدور أحداثها فى العهد الذى تحتل فيه الشركات الأمريكية العملاقة العالم كله، وتتولى إدارة شئونه وحكمه حكمًا سياسيًا مباشرًا. ويتخذ كل مواطن من اسم الشركة التى يعمل فيها لقبه العائلى، كما تتحول الدول القومية التى كانت مستقلة (مثل أستراليا التى تدور فيها الأحداث) إلى أراض أمريكية تابعة.

تعتمد الحبكة على محققة من الشركة التى تمثل الحكومة الأمريكية اسمها «جنيفر حكومة»، تقوم بتعقب جريمة ترتكبها شركة «نايك» للأحذية فى إطار حملة تسويقية ينفذها «هاك نايك».

Flower Portraits: The Life Cycle of Beauty

(بورتريهات الزهور: دورة حياة الجمال)

Joyce Tenneson
Bulfinch press, 2003, 120PP.,
$ 50.00



تدير المصورة الفوتوغرافية جويس تينيسون عدساتها فى كتابها هذا إلى الزهور، بعد أن تصدر كتابها السابق عن وجوه النساء العجائز قوائم الأكثر مبيعًا بين كتب الفن. تسجل تينيسون المراحل التى يتم تجاهلها فى عمر الزهرة وهى مراحل التفتح الأولى ومراحل الذبول الأخيرة، فهى ترصد لنا نوعًا خاصًا من الجمال والرقة فى الدورة الكاملة لعمر الزهرة. وهى تصر على أنها تقدم لنا الزهور فى تلك اللقطات ليس باعتبارها زينة، وإنما باعتبارها كائنات حيّة لها تفردها.

God's Secretaries: The Making of the King James Bible

(كهنة الرب: عملية إعداد نسخة الملك جيمس من الكتاب المقدس)

Adam Nicolson
Harper Collins, 2003, 281PP.,
$ 24.95



يتناول الكتاب الظروف والملابسات التاريخية التى تم خلالها إعداد نسخة «الملك جيمس» من الكتاب المقدس. وهى تعد أهم الترجمات الإنجليزية للكتاب المقدس، حتى أن صياغاتها الأنيقة وألفاظها الشعرية لها أصداء قوية فى أشعار شكسبير وميلتون وتى إس. إليوت.

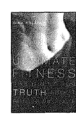
يبدأ الكتاب بقصة الملك جيمس، وهو جيمس السادس ملك سكوتلاند، وأيضًا جيمس الأول ملك إنجلترا، فقد كان همه الأول هو الحفاظ على وحدة بريطانيا التى استطاع أن يحققها أخيرًا. ومن أكبر التحديات التى واجهته، ذلك الشقاق الدينى بين البروتستانت الإنجيليين والبروتستانت المتطهرين والروم الكاثوليك.

ويرى المؤلف أن دافع الملك وراء الإقدام على تلك الترجمة الضخمة بعد توليه العرش بسنة، عام ١٦٠٤، كان دافعًا سياسيًا أراد من ورائه التقريب بين الجماعات المسيحية المختلفة فى وطن تتجمع فيه سلطة الدولة مع سلطة الكنيسة. وقد كان المتطهرون (أو التطهريون) يفضلون نسخة جنيف من الكتاب المقدس. يبين المؤلف كيف تم تعيين ستة فرق للعمل يضم كل منها ثمانية من العلماء بالإضافة إلى ستة من المراقبين. وقد قام بتجميع معلومات كثيرة عن بعض هؤلاء الأشخاص، رابطًا فى بعض الأحيان بين خبراتهم الحياتية وبين ألفاظ تلك الترجمة من الكتاب المقدس. فمثلاً أحد المترجمين كان له كتاب عن جزيرة دومينيكا فى الكاريبى، فوجد المؤلف أن وصفه لجمالها يشبه إلى حد بعيد وصف الجنة فى الجزء الأول من ترجمة الكتاب المقدس.

Ultimate Fitness: The Quest for Truth About Excercise and Health

(الرشاقة المثلى: البحث عن الحقيقة فيما يتعلق بالرياضة والصحة)

Gina Kolata
Farrar, Straus, & Giroux, 2003,
290PP.,$24.00



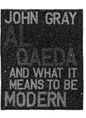
تتصدى جينا كولاتا، المحررة العلمية لصحيفة نيويورك تايمز، لخضم النصائح والدعاوى الهائلة عن الرشاقة والصحة البدنية والقوام الرياضى التى تزدحم بها الثقافة المعاصرة، فى محاولة لفرز «الدرر العلمية القليلة من بين جبال النفايات».

فقد وجدت بعد التدقيق والتحقيق العلمى أن أغلب ما هو مقبول من معلومات عن الرياضة والرشاقة يحتوى على مغالطات ومزاعم باطلة. ويقدم الكتاب إلى جانب ذلك، تاريخ الاهتمام بالرياضة البدنية منذ اليونان القديمة وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأخيرًا فى القرن العشرين الذى ظهرت فيه موضات «الجرى الخفيف» فى السبعينيات، ثم الأيروبكس فيما بعد، ورفع الأثقال بعد ذلك.. إلخ. ويبين الكتاب أيضًا تلك الصناعة التى تقوم حول الرياضة البدنية وتحسين القوام والصحة. فكثير من الأحيان يتم استدعاء النصائح الطبية والعلمية لأسباب دعائية وتسويقية بحتة.

Al- Qaeda: And What it Means to Be Modern

(القاعدة: ومعنى الحداثة)

John Gray
Faber & Faber, 2003, 145PP.,
10.99



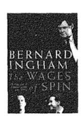
يقدم جون جراى أستاذ الفكر الأوروبى فى كلية لندن للاقتصاد (ومؤلف كتاب الفجر الكاذب) رؤيته عن علاقة تنظيم القاعدة وهجمات سبتمبر بتحطم أسطورة الحداثة الكاملة التى سيطرت على العقل الغربى لمدة طويلة. فهو يرى أن حركات الإسلام الثورية المتطرفة ما هى إلا عرض من أعراض مرض تعتقد أنها جاءت لتعالجه.

ويبين جراى كيف أن الاعتقاد بأن العلم وحده سيحقق الكمال الإنسانى كان اعتقادًا وهميًا ساقه إلينا علماء اجتماعيون مثل أوجست كونت وسان سيمون. أما القاعدة وما شابهها، فيرى جراى أن فكرها لا يخرج عن نفس القالب، إذ يعتقد بن لادن أنه بتطبيق شريعة القرن السابع يستطيع تحقيق الكمال الإنسانى. بل إن جراى يرى بن لادن جزءًا لا يتجزأ من ظاهرة الحداثة فى مراحلها الأخيرة، خاصة مع خلفيته كرجل أعمال سعودى يستخدم أدوات الحداثة فى هدم مبادئها.

The Wages of Spin

(حروب المستشارين الصحفيين)

Bernard Ingham
John Murray, 2003, 261PP.,
18.99



بعد ١٢ عامًا من إصداره مذكراته التى كانت بعنوان «اقتل المرسل» عاد السير برنارد إنجهام المستشار الصحفى لرئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت تاتشر إلى الساحة مرة أخرى بهذا الكتاب الذى يدافع فيه عن زملائه الذين يعملون كمتحدثين أو مستشارين صحفيين حكوميين والذين يعتقد أنه جرى تهميشهم من جانب المستشارين الصحفيين الذين جاء بهم تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى من خارج المؤسسة الحكومية. ويقول إنجهام إن هؤلاء المستشارين الجدد فشلوا فى إبراز الخط الفاصل بين الحزب الحاكم والحكومة، فوظيفة المستشار الصحفى أن يدافع عن أعمال الحكومة وليس عن الحزب أى أنه لا يتورط فى نزاعات مع الأحزاب الأخرى، لكن هذا ما يحدث حاليًا من جانب مستشارى بلير الصحفيين. ويقول المؤلف إن تاريخ ظهور هؤلاء المستشارين الجدد، الذين يفعلون كل ما بوسعهم لتجميل صورة رئيسهم بأى وسيلة أخلاقية أو غير أخلاقية، يعود إلى ٢ مايو ١٩٩٧ أى منذ تولى العمال السلطة فى بريطانيا. ويشير إلى أن المتحدثين الصحفيين الذى يعملون فى الحكومة تحكمهم قواعد وأخلاقيات محدودة بعكس المستشارين الصحفيين الذين يتدخلون على سبيل المثال ويهاجمون الأحزاب الأخرى مع أن هذا ليس من عملهم لأنه من المفترض أنهم ليسوا حزبيين.

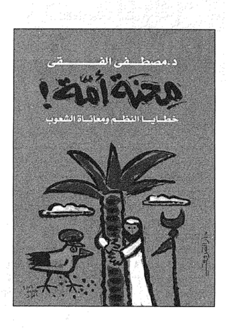
ويشن المؤلف هجومه بشكل خاص على المستر كامبل المتحدث باسم بلير والذى يعد من أقوى المساعدين لرئيس الوزراء البريطانى.

التغيير المطلوب فى أنظمة الحكم العربية

لا أظن أن هناك لحظة عربية حاسمة تحتاج منا درجة عالية من الصدق مع النفس والوضوح فى الرؤية مثل تلك التى تمر بها المنطقة حاليًا لأن التطورات اليومية - ولا أقول الأسبوعية أو الشهرية - تحمل معها حقائق جديدة وأنباء مثيرة وتطورات غير متوقعة، لذلك فإن الوعى القومى ومحاولة الخلاص من الأسباب التى أدت إلى ما نحن فيه والتى وضعتنا فى هذا الموقف المعقد هى أمور لازمة فى الفترة القادمة، ويحلو لى أن أركز فى هذه الأيام العصيبة على نهج الإصلاح المطلوب الذى يجب أن ينبع منا ذاتيًا حفاظًا على هويتنا واحترامًا لثقافتنا وتأكيدًا لشخصيتنا الحضارية ونسقها التاريخى، لذلك لابد من تشخيص الداء واكتشاف أسباب العلة قبل أن ندخل فى جوهر المشكلة ونتحدث عن الحلول لها وكيفية الخروج منها، من هنا فإن توصيف طبيعة النظم العربية القائمة وآلياتها الفاعلة وكوادرها الحاكمة يمكن أن تعطينا فى مجملها الصورة كما يراها غيرنا بكل ما لها وما عليها إذ أن هناك حالة ركود حقيقية فى عدد لا بأس به من العواصم العربية فضلاً عن الجمود السياسى والترهل المؤسسى الذى يعكس فى النهاية أزمة حادة لا تخفى على أحد وقد يكون من المفيد أن نستعرض بعض جوانب الوضع الراهن من خلال العناصر التالية:-

أولاً: إن بعض الأنظمة العربية تعانى حالة من التقوقع داخل إطار دوائر مغلقة سواء كانت تلك الدوائر سلطوية أو حزبية أو حتى عائلية، لذلك توقفت المشاركة فى السلطة وغاب دوران النخبة واختفت الدماء الجديدة التى تضخها الشعوب فى نظمها السياسية لتعطيها الحيوية وتوفر لها أسباب المضى نحو آفاق المستقبل بخطى ثابتة ونقلات واعية.

ثانيًا: إن قوائم الطلبات الأمريكية المطروحة - فى الخفاء والعلن - والموجهة إلى عدد من الدول العربية ليس المقصود بها النظم فحسب ولكنها تتجه إلى الشعوب أيضًا إذ أن الدعوة الدينية والبرامج الثقافية والأفكار السائدة كلها أمور لا تقف عند حدود سلطة الحكم ولكنها تتجاوز ذلك إلى هوية الشعوب ومزاج الأمم، ومن هنا تأتى خطورة ما نحن مقبلون عليه، فالنظم تستطيع أن تتكيف بسهولة مع الواقع الجديد بالولاء المطلوب، ولكن



الشعوب لا تقدر على المضى فى ذلك الطريق دون الانتماء المرغوب! فالخصوصية القومية حاجز لا يمكن تخطيه وسد لا يمكن تجاوزه.

ثالثًا: إن من الأسباب الرئيسية للحملة الأمريكية المستمرة على المنطقة هى تلك المفاهيم المغلوطة عن التعليم الدينى والتثقيف الاجتماعى لدى العرب والمسلمين وإحساس الولايات المتحدة بأن المنطقة تحتاج إلى التبشير بقيم أخرى والدعوة إلى مفاهيم مختلفة وذلك كله - فى ظنى - محض هراء.

رابعًا: إن مشهد مئات الألوف من الشيعة وهم يحتفلون منذ أسابيع فى «كربلاء» بذكرى «سيد الشهداء» إنما هى رسالة لا تخطئها العين مؤداها أن التراث الثقافى والتراكم الحضارى لشعوب المنطقة لا يجعل أطماع الآخرين أمرًا سهلاً ولا يسمح للمغامرين بالحديث عن التغيير دون فهم صحيح أو دراسة واعية.

خامسًا: إن منطقة الشرق الأوسط والتى تعكس إلى حد كبير «فسيفساء» الأقليات فى إطار الدولة العثمانية مثلما كان «موزاييك» منطقة البلقان فى ظل تلك الإمبراطورية أيضًا، لذلك فإنه إذا لم تكن المنطقة العربية تنعم بالتعددية السياسية إلا أنها تنعم بتعددية أخرى فى الأصول والأعراق والمذاهب والرؤى.



.. هذه بعض ملاحظات وجدت أن تأملها سوف يكون بالضرورة مصدر إلهام فى هذه الظروف الصعبة والأوضاع المتوترة ويهمنى أن أنوه هنا بحقيقة أرجو أن تكون ماثلة فى الذهن العربى وهى أن التغيير المطلوب سوف يشمل عناصر ثلاثة هى المؤسسات بمعناها الواسع سياسية أو ثقافية، والسياسات سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية، ثم المناخ العام الذى يعبر عنه خطاب إعلامى جديد يستوعب المستجدات ويعبر عن كافة التطورات التى حدثت فى العامين الأخيرين تحديدًا، ولا يعنى ذلك الرضوخ لمطالب أمريكية بقدر ما هو استجابة لروح العصر وإصلاح لأوضاع قائمة حان الوقت لإعادة النظر فيها وقد يكون من الملائم أن أسجل هنا بعض الملاحظات التى توضح ما أسعى إلى إيضاحه:-

١ - إن دوائر الحكم المغلقة قد خلقت من السلطة فى العالم العربى مركز جاذبية لبعض عناصر الثورة وعنصر طرد لبعض عناصر الثقافة مما أدى إلى هوة بين المنتمين للنظم والأغلبية الصامتة التى اختارت اللامبالاة طريقًا، وثرثرة النقد بديلاً للتحرك السياسى أو العمل العام.

٢ - قد يقول قائل إنه من الطبيعى أن تكون للحكم - أى حكم - دوائر مغلقة، فالمطبخ السياسى فى النهاية يحتوى مجموعة صنع القرار وهذا أمر متفق عليه ولا جدال فيه ولكن المشكلة الحقيقية هى ديمومة المسئولين داخل الدائرة الواحدة بحيث يبقى بعضهم لما يقترب من العشرين عامًا أو يزيد فى منصبه، وهذه فى ظنى ملحوظة تستحق التأمل لأن عطاء المسئول فى الموقع الواحد لا يمكن أن يكون متجددًا ومؤثرًا فى ظل ظروف الاستمرار الذى يجب أن يخضع لحدود العمر الافتراضى لحماس البشر فى المنصب الواحد، فإذا ما تجاوزوه فقدوا الصلاحية الذهنية وأصبح عملهم تكرارًا رتيبًا ليس فيه وجود للمبادرات الخلاقة أو الأفكار الجديدة، فضلاً عما يمثله ذلك من جناية على الأجيال الجديدة وحرمانها من فرص عادلة وهو ما يجعلها بحق مثل من يسكن «الدور المسحور» فى البنايات الكبيرة والذى لا يقف عنده المصعد ويتجاوزه وصولاً إلى أدوار محددة!

٣ - إن حيوية النظم مستمدة أساسًا من تدفق الدماء الجديدة وجذب العناصر المتميزة والحملات اليقظة ضد الفساد المالى والإدارى بل والسياسى أيضًا، لذلك فإن النظم التى تعتمد على الدوائر المغلقة لا تخرج منها العناصر المترهلة بسهولة ولا تدخل إليها العناصر القادرة إلا بصعوبة أيضًا بحيث تبدو فى النهاية مثل البحيرات الراكدة التى لا تتدفق إليها مياه من المنبع ولا تخرج منها مياه إلى المصب.



.. إن الشهور الماضية بما أفرزته من شعور بالهوان وإحساس عميق بالثمن الباهظ والفاتورة الفادحة التى تدفعها نتيجة للأنظمة الفردية ودوائر الحكم المغلقة تدعونا اليوم إلى المضى نحو عملية إصلاح شامل لا تتجه إلى تغيير الأفراد بقدر ما تتجه إلى تغيير السياسات وأنماط التفكير وأساليب الإدارة لأن السبب الرئيسى وراء عجز الدول العربية فى السنوات الماضية وإخفاقها فى إدارة الصراع العربى الإسرائيلى إنما نجمت كلها عن تعطيل برامج الإصلاح وتوقف برامج التنمية وغيبة الممارسات الديمقراطية التى تتيح فرص تمثيل كافة القوى السياسية على المسرح السياسى.. إننا مقبلون على سنوات استثنائية تحتاج إلى قرارات صعبة ومواجهات ضرورية ونحن لا ننتظر تعليمات من الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها ممن يقدمون لنا وصفات الإصلاح و«روشتات» العلاج «فأهل مكة أدرى بشعابها»، ونحن أعرف من غيرنا بمشكلاتنا السياسية، وهمومنا القومية، وأمراضنا الفكرية، ولقد آن الأوان لكى يتحرك العرب نحو الإصلاح الجاد والتفكير الشامل والابتعاد عن العشوائية السياسية مع القدرة على الموازنة بين المصالح الوطنية والضغوط الخارجية، إنه وقت للصحوة المطلوبة، والرؤية الغائبة، والرشد المنتظر■

صفحات من كتاب بعنوان: «محنة أمة» للدكتور مصطفى الفقى، يصدر قريبًا عن دار الشروق



تعديل مناهج التعليم.. بيدنا أم بيد عمرو؟

بعد أن انتهت الحرب على العراق على النحو الذى انتهت به، أصبح من حق أمريكا - طبقًا لما يعتقده اليمين المحافظ الذى يسيطر على البيت الأبيض - أن تدخل شريكًا فى صياغة مستقبل منطقة الشرق الأوسط، وأن يكون لها دور فى إصلاح ما ينبغى إصلاحه، وإزاحة ما ينبغى إزاحته، وتغيير ما تراه ضروريًا بعد أحداث سبتمبر المشهودة، لقيام شرق أوسط «يشهد يومًا جديدًا يسود فيه العدل، ويومًا جديدًا يتحقق فيه الرخاء» كما جاء فى نص الخطاب الذى ألقاه الرئيس بوش فى جامعة ساوث كارولينا أخيرًا.

من هنا توالت قائمة الطلبات على العديد من الدول العربية.. بعضها جاء بأسلوب هيِّن ليِّن. والبعض الآخر جاء بأسلوب يتسم بالخشونة وبتهديدات علنية أو مبطنة. ولكنها جميعًا استهدفت غاية واحدة، هى تهيئة المنطقة العربية للتكيف مع المتغيرات الاستراتيجية التى تتصور الولايات المتحدة أنها تحققت أو باتت قاب قوسين أو أدنى من التحقق.

على رأس هذه المطالب إصلاح نظم التعليم، وتغيير القيم الثقافية، وتعديل المناهج الدينية، وتحديث الحياة السياسية والاجتماعية، وتحرير المرأة لتشارك مشاركة فعالة مع الرجل فى الحياة العامة، وتحقيق الديمقراطية. وقد جاءت هذه المطالب فى صورة مقترحات قدمها كولين باول وزير الخارجية الأمريكية فى خطاب له عن الشراكة الديمقراطية قبل بدء التدخل العسكرى فى العراق، وأكملها الرئيس بوش فى خطاب له بعد انتهاء حرب العراق التى لم تدم غير أسابيع قليلة.. تحدث فيه عن منطقة للتجارة الحرة تربط بين الشرق الأوسط والولايات المتحدة، يتحقق فى إطارها السلام الموعود بقيام دولة فلسطينية إلى جانب الدولة الإسرائيلية.



لا تتوجه أمريكا بهذه المطالب الجديدة إلى النظم والحكومات العربية والإسلامية فحسب، بل تتوجه بها أيضًا إلى الشعوب. فإذا كانت الدول والحكومات مطالبة بتعديل القوانين والتشريعات التى تتعلق بحقوق الإنسان وبقوانين الملكية الفكرية وبالتشريعات الضريبية والتجارية التى تسمح بالتواؤم مع ما أصبحت تقتضيه «العولمة» من إسقاط للحواجز التجارية وإطلاق حرية السوق، والانضمام إلى منظمة التجارة العالمية، فإن الشعوب مطالبة بتغيير سلوكياتها، وأساليب حياتها، وطرائق تفكيرها، ومنظومات قيمها.

ووراء هذه المطالب فكر أمريكى راسخ، يروج له دعاة اليمين المحافظ، الذى عبأ القوى والطاقات لشن الحرب فى أفغانستان، ثم لم يلبث أن أغرته القوة العسكرية على غزو العراق، يقوم على أن العالم العربى والإسلامى تسوده أيديولوجية دينية قائمة على الإرهاب والكراهية والتعصب. «تغذيها وتحميها أنظمة طغيانية»، تسعى لحيازة أسلحة الدمار الشامل، وتوظف طغيانها لاضطهاد شعوبها، وتهديد السلام، وقتل الحريات، وممالأة الإرهاب الجماعى الذى يشجع العمليات الانتحارية باسم الجهاد والاستشهاد فى سبيل الدين والعقيدة.

ويمضى هذا الفكر إلى أبعد من ذلك، فيرجع أحوال الفقر والتخلف وانتشار الأمية وانحطاط وضع المرأة فى السلم الاجتماعى وعجز المجتمعات العربية عن اللحاق بقيم العصر وعن الأخذ بأساليب الديمقراطية والتعددية السياسية، إلى نوع من السلطة الدينية الجامدة التى أساءت توجيه الشباب وأفرزت عناصر من أمثال بن لادن والظواهرى وأتباعهما من تنظيم «القاعدة»، الذى تحمله أمريكا مسئولية ضرب برجى نيويورك، وتفجيرات السفارات الأمريكية فى أفريقيا، ونسف السفينة الأمريكية فى عدن، وأخيرًا عمليات التفجير الموجهة ضد المصالح الأمريكية فى السعودية، وما قد يستجد فى المستقبل من جرائم الإرهاب العالمى..



قد يختلف تشخيص أسباب المرض أو الأزمة، ولكن الأعراض صحيحة فى مجملها.. فالأمة الإسلامية تواجه مأزقًا حضاريًا لا سبيل إلى تجاهله. وينخر فى عظامها مرض عضال لا سبيل إلى إنكاره، ولا يمكن إرجاع أسبابه فقط إلى عوامل خارجية تتعلق بموازين القوى أو بالمشاكل والصراعات السياسية التى تفجرت فى الشرق الأوسط بسبب إسرائيل، فأنهكته طوال نصف قرن، ولكنها ترجع أيضًا إلى تعطل النمو الروحى والفكرى والاقتصادى الذى غشى الشعوب الإسلامية وعاقها عن التقدم. وفى كافة اللقاءات والمؤتمرات التى تعقد فى أرجاء العالم العربى يصارح المتحدثون أنفسهم بهذه الحقائق، ولكنهم يعجزون عن مصارحة شعوبهم بها، وبالتالى عن تغيير الأنماط والأفكار السائدة.

وأخطر شىء يحدث الآن هو أن غياب الحراك الاجتماعى، والتفاعل السياسى والثقافى، وجمود النظم السياسية وعدم قدرتها على التجديد والتطور فى المجتمعات العربية كلها بدون استثناء وإن بنسب متفاوتة، هو الذى بات يغرى قوى خارجية على محاولة التدخل لسد الفراغ ولإصلاح الأوضاع فى هذه المجتمعات.. على أساس أن بقاءها على ما هى عليه، أصبح يمثل تهديدًا لها ولمصالحها من خلال جماعات الإرهاب العالمى وتنظيماته المتنامية التى تشن هجماتها بأكثر الأساليب تدبيرًا وبدرجة عالية من التقنية.

وتتشكل الآن تحالفات عالمية لمواجهة هذه الأخطار. عبرت عن نفسها كما رأينا فى حرب أفغانستان، ثم فى الحرب على العراق. وقبل ذلك فى إجراءات وتشريعات واتفاقات دولية حازمة، أصبحت تضع الحواجز أمام حركة السفر والهجرة لهؤلاء القادمين من دول عربية وإسلامية. وتصنفهم - منذ البداية - كإرهابيين محتملين. وتحد من أعدادهم ومن أنشطتهم التى يعبرون فيها عن هويتهم الثقافية والدينية فى المجتمعات التى يعيشون فيها. وهو ما يمكن أن يؤدى إلى عزل العالم العربى والإسلامى عن حركة التقدم والتفاعل مع العالم، ويحرمه من كثير من منجزات العصر، ويحكم عليه بالذبول والاختناق وقطع الروابط بينه وبين التحديث.



وإذا كانت محاولات التدخل الخارجى فى الماضى قد انصرفت إلى التأثير على السياسات الخارجية أو الأوضاع الاقتصادية، فهى تركز الآن على صميم الأوضاع الداخلية. وأكثر ما بات يهمها الآن هو تفسير المناهج التعليمية والدراسات الدينية واللغوية، باعتبارها المدخل إلى صياغة مستحدثة لعقول الشباب والأجيال الجديدة، لكى تبرأ هذه المجتمعات من «إرثها الاستبدادى» ومن جذور التعصب الدينى، وتتحول إلى مجتمعات حرة مسالمة.

ولتحقيق هذا الهدف كلفت مؤسسات بحثية أمريكية بوضع مناهج وكتب مدرسية جديدة وأجريت أبحاث ودراسات على أساليب وبرامج التعليم فى عدد من الدول العربية بهدف إصلاحها طبقًا للمعايير التى تم وضعها فى أمريكا. وقد كشف بوش فى خطابه الأخير فى ساوث كارولينا عن جانب من هذه الخطط حين أشار إلى عزم أمريكا على «ترجمة كتب القراءة للمراحل التعليمية المبكرة إلى اللغة العربية ثم التبرع بهذه الكتب إلى المدارس الابتدائية».

وأكثر ما يثير القلق هو أن معظم الدول العربية بادرت إلى قبول هذه «النصائح» الأمريكية. وبدلاً من أن تأتى المبادرة من جانب خبراء التعليم والمثقفين ورجال الدين فيها لتجديد الفكر الدينى وإصلاح مناهج التعليم واللغة، لكى تحظى هذه «المجتمعات بتأويل دينى يتعايش مع حقائق العصر، وبنظم تعليمية تدرب الشباب على النقد والتساؤل والفكر المنهجى العلمى.. فإنها استمرت فى انتهاج سياساتها التعليمية الفاشلة، والاستجابة - سرًا - للضغوط الأمريكية، استرضاءً لها أو حرصًا على استمرار المساعدات.

ومن الطبيعى ألا يؤدى مثل هذا الإصلاح المزعوم فى المناهج التعليمية، والذى يتم تحت ستار من التكتم الشديد، ويركز بصفة خاصة على حصص اللغة والدين والنصوص القرآنية بقصد تجريدها من المعانى والمبادئ التى يعتقد الأمريكيون أنها وراء العنف الإرهابى، إلا إلى مسخ الشخصية المصرية أو العربية، وتذويب الهوية القومية، وترقيع المناهج التعليمية بدلاً من التزام رؤية إصلاحية شاملة. وسوف يفضى هذا فى نهاية الأمر إلى سقوط ذريع لا قيام منه. وهو ما نجحت ألمانيا واليابان فى الإفلات من قبضته، وإلا لما صارت أى من الدولتين إلى ما صارت إليه الآن دون أن تتخلف عن الركب ودون أن تفقد ثقافتها وشخصيتها!

سلامة أحمد سلامة